أحمد مدحت

ثلاثة فساتين لسهرة واحدة

دوّن للنشر والتوزيع

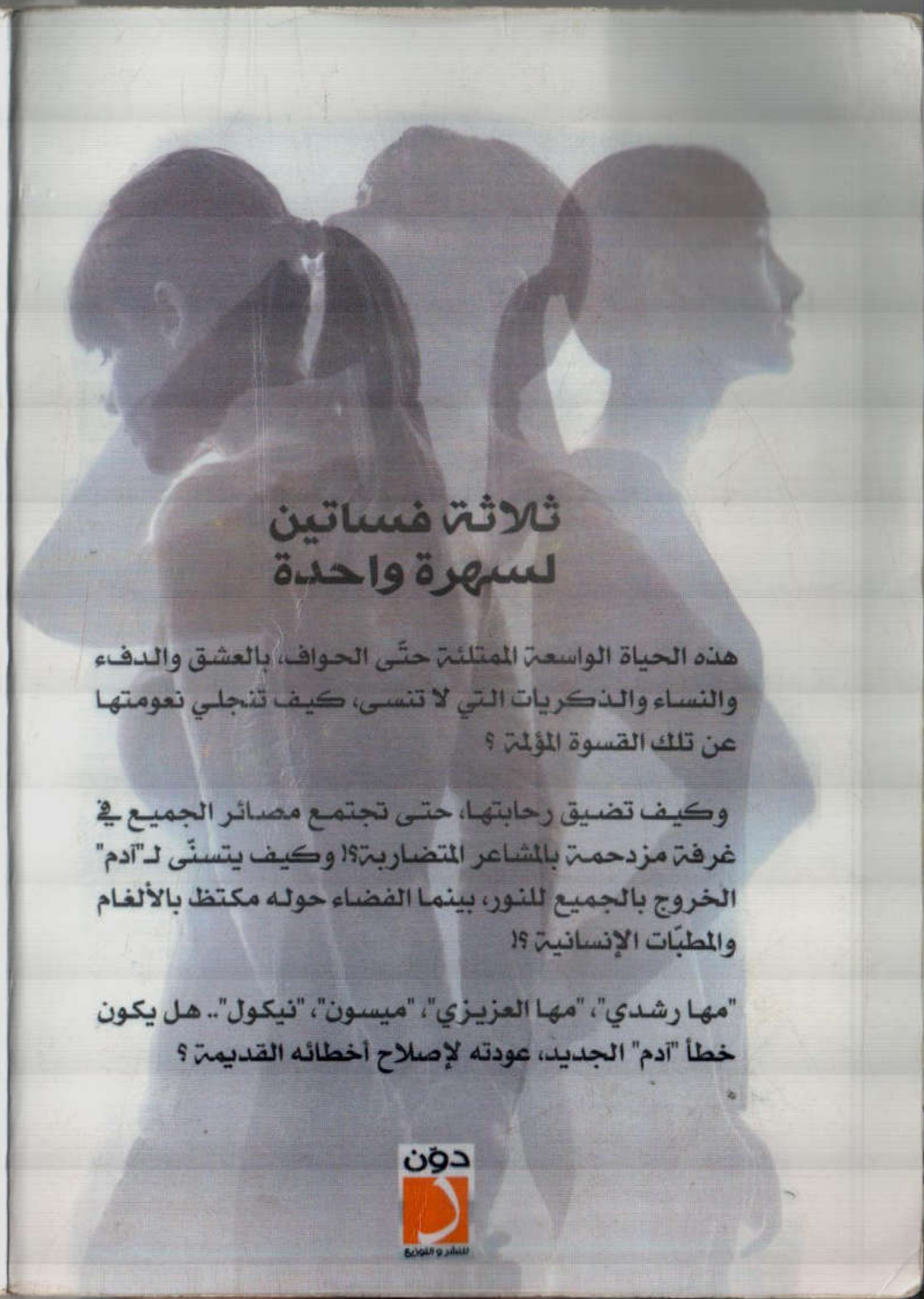

إهداء

إلى السيدة الجميلة
جدتي
فتحية أمين عوض

(١)

لماذا يحلو لي دائمًا تذكر اللقاءات الأولى؟!..

اللقاءات التي تضع طرفي القدر، أو بطلي المسرحية، وجهًا لوجه لأول مرة..

في رقة يبتسمان.. يتحدثان بشكل عابر.. ربما يضمر أحدهما أو كلاهما شعورًا ما نحو الآخر.. شعورًا غامضًا محيّرا، لكن مبهج.. ولا يَرِد على بالهما، ولا يقوَى خيالهما على تصوّر ما تخبئه لهما الأيام، ولا ما تتضمنه صفحات العمر اللاحقة من أحداث تجمعهما وتثيرهما وتفرّقهما.

ضحكات وحيرة.. هيام وشوق.. فرح وعذاب.. ألم وأمل.. همس وصراخ.. تلاقٍ.. ثم طلاق.. من الذي يستطيع أن يرى كل ذلك في اللقاء الأول؟!

(٢)

ينحفر اللقاء الأول بداخلي حفرًا.. وأجدني مشدودًا إليه بقوةٍ

لا تهن.. حتى إذا ما طمرتنا أمواج الحياة، وتتابعت علينا فصول الحياة المتلاحقة، وجدتني أعود إليه بقوة الراغب في النجاة، الحريص على الحياة أشد ما يكون الحرص.. فأجد على شاطئه راحةً وأي راحة، وأجد هنالك بسمات الزمان الأول وحرارته الغامضة المحيرة المبهجة، بعيدًا عن أزمات الحاضر المؤلم..

وتكون المأساة لو تعددت البدايات التي لا تنسى!..

(٣)

أصل مأساتي هو أنني لا أنسى..

وأنني أسير للأمام وعيناي معلّقتان بالخلف.. وكذلك قلبي..

كما أنني حزت مقدرة عجيبة على إحياء قصص الحب التي ماتت ودفنت منذ سنين..

(٤)

ولكن من قال إن قصص الحب تموت حتى ندفنها؟!..

إن قصص الحب لا تموت مطلقًا.. هي فقط تنتهي.. ثم تبقى في مجلّدها الأنيق الذي تصنعه أيدينا وقلوبنا.. وبقية من مشاعرنا..

ثم تجدنا نعود إليها بين الحين والحين، نقلّب في سطورها، أو نغوص في تفاصيل صورها.. لسبب دعانا أو لغير سبب على الإطلاق..

(٥)

لماذا يحنقني دائمًا رأي الناس؟! لا أعني انتقاداتهم، فلكل إنسان الحقُ في أن يعبّر عما يحب أو يكره، أو يعبّر عن رأيه في مسألة ما، لكن ما أعنيه هو أن يكوّن الناسُ رأيًا في مسألة هم أبعد ما يكونون عنها وعن فهمها!..

كيف تحكم على إنسان وأنت هناك بمأمن من الأمواج المتلاطمة وهو في لجتها يصارع؟!..

كيف تعرف وتحلل، ثم تحكم على ما برأسه، وأنت بالكاد ترى رأسه وهو يعلو وينخفض خلف الأمواج العالية؟!..

أؤكد لكم أن الحقيقة غير ما ترون.. تمامًا..

لست سفاحًا ولا مجرمًا.. ولا وددت أن أكون ذلك الرجل..

(٦)

النساء؟!..

الحب؟!..

الزواج؟!..

الكرامة؟!..

الطلاق؟!..

السعادة؟!..

(٧)

كيف ينتهي عقدي الرابع وأنا بعدُ لا أعرف كيف يبدأ الحب، ولا كيف يموت؟!..

(٨)

مها رشدي.. مها العزيزي.. ميسون.. نيكول؟!..

(٩)

الغول والعنقاء والمرأة العاقلة والرجل الذي لا يعرف الملل..

نيكولا رشيدوف

«إن جلال حسنك في الحزن فاتنٌ،
كشروق ابتسامتك عند السرور..
وإن لحزنك سيطرة كما لجمالك الآسر»

(١)

يحلو للجميع أن يرجع زواجي من الروسية الشقراء، إلى افتتاني الأزلي بالشعر الأصفر والأعين الزرقاء..

وهذه تهمة لا أنكرها، لكن افتتاني بالشقراوات لم يدفعني يومًا للزواج بأي منهن، فلماذا تزوجت من «نيكول»؟!..

لقد التقيت نيكول وأنا على قمة نضج واعٍ، خلَّفَه عمرٌ طويل، وقلبٌ اكتوى بتجاربَ ناجحة وفاشلة، وامتلأ حتى حوافه بذكريات مشبعة بالدفء والزواج والنساء الجميلات. وامتلأ كذلك بغصة الفراق والحزن والغضب ومعارك طحنت كل شيء..

ولكني، رغم ذلك، أحببت نيكول.. فما أصدقه من حب وما أعمقه من شعور!..

(٢)

في اللقاء الأول..

حين التقيت نيكول للمرة الأولى، عرفت أنني بحضرة ملكة العمر المقبل..

وأحببتها، فإذا بخبرتي وذكرياتي يستحيلان رمادًا منثورًا، وتاه قلبي في متاهات الوجد المتجدد، فلم أعرف كيف أسترجع مرارة تجاربي السابقة لأتوقف.. حينها قررت أن أتزوج نيكول..

(٣)

شيء ما أغراني بالوقوف على شواطئ نيكول الحانية..

شيء ما دعاني لأن أتنسّم هواءً منعشًا، طازجًا، ولدلتوه ولم أعرفه من قبل.. ورذاذ رقيق بارد يرطّب بشرتي في حنان فائض.. وخيالات عذبة مغرية دعتني، فإذا أنا في عرض البحر المائج.. ورغم خبرتي السابقة، لم أرفع رأسي، ولم أضرب بيديّ القويتين الموج، بل تركته يغمرني ويجذبني نحو القاع في استسلام ورضا.. وفضول!..

كان الجميع يرقبونني وأنا أغرق فيمصمصون شفاههم، ويؤكدون أن ذلك كلّه بسبب افتتاني الأزليّ بالشعر الأصفر والأعين الزرقاء، فأهمّ خانقًا مضطرًا أن أستخرج من خزانة القلب صورة قديمة للسمراء الفاتنة التي رقدت منذ زمن بعيد خلف بابٍ، حرصْتُ العمرَ ألا أقترب منه، وقد حمل فوقه اسمها المؤرق.. «مها رشدي»..

(٤)

أجبرني الصداع، والإرهاق، وقدماي ـ اللتان أنهكهما التجول الطويل بين أجنحة معرض «السياحة في دول البحر المتوسط» ـ على

التوجه إلى الكافتيريا، طلبًا لكوب من الشاي وراحة قصيرة.

وقفت أقلّب النظر في الكافتيريا لأنتقي مكانًا، فساقتني عيناي، كالعادة وبلا تدبير، إلى طاولة هناك في أقصى المكان، تحتلها فتاة أجنبية شقراء. وبعد لحظة، كنت أحتل الطاولة المجاورة لها. وجدتها منهمكة في تصفح وتنسيق مجموعة من «البروشورات» لفنادق وشركات سياحة، إلى جانب كروت شخصية أخذت ترتبها في اهتمام ومثابرة..

التفتت، فالتقت بعينيّ، فلم أملك إلا أن أومئ برأسي، كأنما أشجعها على مجهودها، فابتسمت ابتسامة بين المجاملة والصدّ..

لكن ابتسامتها جذبتني من هناك..

من بعيد..

من جزر الثلج التي اتخذتُها مؤخرًا محلًا لإقامتي.. ولم يثنِ حماسي إلا كونها أجنبية سترحل بعد انقضاء أيام المعرض..

ولكن لماذا تخبرني حاستي، التي أنضجتها خبرة عصور من الحب، أن هذه الشمس التي سطعت بابتسامتها، وهذا الدفء الذي أنعمت به عليّ، لا يكون لقصّة عابرة.. فكيف يكون ذلك؟!

تحيّر بالي.. ووجدتني بلا تدبير أسألها بالإنجليزية:

ـ من أين؟!

التفتت إليّ، وقد بدا أنها كانت تتوقع سؤالي أو حديثي، وقالت بأدب:

ـ من روسيا..

اشتعل حماسي كالعادة، وبلا تدبير أيضًا، وقلت:

ـ بلد العظماء والأدباء!

هنا أنعمت عليّ بابتسامة مختلفة، فعرفت أنني في الطريق الصحيح،

لكنها فاجأتني مفاجأة كبيرة حين قالت بالعربية وبلهجة مصرية صميمة:

ـ وماما من مصر!

حملقت فيها مبهوتًا من المفاجأة، وقد ارتسمت على شفتيّ ابتسامة غير مصدقة!..

تجاوزَتْ دهشتي وأردفَتْ بالعربية وهي على حافة الضحك:

ـ بلد العظماء والأدباء أيضًا!

فضحكتُ، وقد صار لديّ تفسير ما لأسباب النشوة التي أعملتْها فيَّ ابتسامتُها الأولى..

هل يكون لهذا اللقاء ما بعده؟!..

(٥)

تعارفنا..

أنا مدير العلاقات العامة بإحدى شركات الإنشاءات، وهي مندوبة المبيعات بإحدى شركات السياحة الشهيرة. وبخبرتي الطويلة، لم أنخدعْ بحديثها السابق ولا مزحتها، بل عدَدْتُها مجاملة من «بائعة محترفة» لـ «عميل محتمل» بلغة رجال المبيعات، غير أني استسلمتُ للنشوة والارتياح بلا تحفظ، كأيام الحب الأعمى والبراءة الأولى..

سارت نحوي وهي تمد يدها بـ «الكارت» الشخصي الخاص بها، فقمتُ من فوري وأنا أُخرج «كارتًا» من جيبي، فتبادلنا الكروت وقد أحنت رأسها في أدب، ثم عدنا إلى مقاعدنا..

(٦)

وضع النادل الشاي أمامي، فعادت لما كانت فيه من عمل. جعلت

أراقبها في لطف، ولمّا تزول عن ملامحها ابتسامة حديثنا الأخير. داخلني شعور مبهج أنني أب لتلك البسمة الجميلة التي احتفظت بها وزرعتها فوق الغمازتين الساحرتين..

وأنعمت النظر في ملامحها، فتأكدت أن والدتها المصرية لم تكن شريكة بالنصف في هذا الكائن الروسي البديع!..

انتهت من عملها كما بدا من استعدادها للرحيل. وقبل خروجها خصّتني بهزة رأس وابتسامة، فتساءلت بصدق: أين كنت قبل ٨ سنوات؟!..

وأتبعتها بصري حتى غابت في الزحام..

(٧)

من الذي تحدث عن الحب من أول نظرة؟!..

إنه إنسان.. وليس الإنسان إلا هو..

(٨)

في المساء، دعتني ميسون ابنتي لحضور حفل عيد ميلادها السابع، يوم الجمعة التالي، وقالت تذكّرني في إلحاح:

ـ لقد وعدتني أنك ستحضر الحفل!

لم أكن بحاجة إلى إلحاحها. كنت بالفعل متلهفًا لحضور الحفل، والإعداد له إن أمكن، علّي أتذكر أيامًا جميلة مضت. فقلت:

ـ لا تخافي يا ميسون.. سأحضر بإذن الله..

فلما اطمأنت، قالت بنبرة مغايرة مليئة بالشجن:

ـ أشتاق إليك كثيرًا يا بابا..

ربض فوق صدري حزن يصعب وصفه، أو التعامل معه. وقلت وأنا أحاذر أن تلحظ وهن صوتي وحزني:

ـ وأنا أيضًا يا ميس.. أشتاق إليك كثيرًا كثيرًا.. ولكن لم يتبق على الصيف إلا أشهر قلائل، ثم نسافر معًا كالعام الماضي..

ـ ولكني أشتاق إليك.. لم تسرّعتَ وطلّقتَ ماما؟!

حذّرتها من التمادي، وقلت:

ـ عندما تكبرين ستفهمين كل شيء..

فبكت وهي تقول:

ـ لم أعد أستطيع النوم.. كل ليلة أتمنى أن أنام في حضنك كأيام زمان..

صمتُّ تمامًا وأنا أمسح دمعة انفلتت، وقد اختنق حلقي بالحزن، فعادت تقول:

ـ أنا آسفة يا بابا.. لقد ضايقتك ولكني حزينة..

تمالكت نفسي وقلت:

ـ بعد الشر عنك يا روح بابا.. اسمعي.. ستأتين للمبيت معي بعد عيد ميلادك.. اتفقنا؟!

ـ وهل ستوافق ماما؟!

امتعضت وقلت في حدة:

ـ سأتحدث معها!

ـ هل أناديها؟!

ـ لا.. ليس الآن..

ـ ولكنك ستحدثها ولن تنسى!

أكدت لها أنني لن أنسى، وأنهينا المكالمة وأنا أزفر من الحزن والغضب..

واسترجعت صورة «مها العزيزي» ـ أمّها ـ فطالعتني بهيئتها المعاندة المتحفزة، فلعنتُها بعنف..

(٩)

وجدتني أدلف إلى الكافتيريا لأجد مها العزيزي، بهيئتها البراقة وحسنها الفتان الذي لا يخبو، تجلس في ركن كأنها تنتظرني. اشتعل دمي بالرغبة المحمومة كما اعتدتُ كلما رأيتها، لكننا كنا نلتقي للمرة الأولى!..

وتعارفنا، فأخبرتني أنها روسية من أم مصرية! مدتْ يدها بوردة صحبتها ابتسامة بديعة من كرز شفاهها الحمراء المثيرة، وحين مددتُ يدي لأتناولها، استحالت الوردة سكينًا جَرَح نصلُه كفَ يدي بعنف فأدماني، ونظرت مها نحوي في ندم، قبل أن تمضي وهي تجهش بالبكاء..

(١٠)

سيطرت عليَّ كآبة الحلم العجيب طوال اليوم التالي، وطارد الحزن صورة نيكول في مخيلتي، حتى أشفقتُ من تذكُرِها. وجعلت أفكر في تفسيرٍ للحلم، فلم أجدّ غير أنه رسالة تحذير من بدء مشروع جديد، يبدأ بالورود وينتهي بالندوب الغائرة..

اطمأننتُ إلى تفسيري، لكنني لم أطمئن إلى قدرتي على التوقف عن

المغامرة لو أتاحت لي الأيام أن أكون صاحبَ القرار!..

وطاردت مها العزيزي صورة نيكول بقوة وإصرار..

(١١)

بعد ظهر الجمعة، وصلتُ عشّنا السابق، شقتنا التي تقع ضمن بيت كامل تقيم فيه أسرة مها العزيزي.

استقبلتني ميسون باشتياق محموم، واستقبلني حمايَ باحترام وطّده عمر طويل من الزمالة في العمل والحياة الخاصة، وكذا استقبلتني حماتي، أما مها العزيزي، فقد أقبلت فيما بدا كالمضطرة، رأفة بميسون..

توقف وجيب قلبي الخائن الذي غافلني وانتظر ظهورها بشوق، فلما أقبلت بهذا السمت المتحدّي، باخ حماسي، واسترجعت قراري الحاسم بإنهاء هذه العلاقة، أو أي أمل في استئنافها، إلى الأبد..

قضينا يومًا جميلًا، احتضنتُ فيه ميسون مائة مرة، وأنا أحاول التكفير عن ذنب لم يكن ذنبي! ساهمتُ في اليوم بكل ما استطعت من مرح وأفكار لألعاب استمتعت بها ابنتي ورفيقاتها. وقالت حماتي وهي تناولني طبق «جاتوه» ثم تجلس بجواري بينما اختفت مها تمامًا:

ـ مازلتُ أنتظر أن تعقل!

فقلت بودّ مراوغ:

ـ أنا؟!

ـ أنت أو هي.. لا يهم.. المهم ميسون!

فزفرتُ في حزن، وأنا أراقب لهو محبوبتي الصغيرة وسرورها

الموقت لاجتماعنا.. وفي المساء، اصطحبت ميسون للمبيت معي، بعد منعٍ من مها وتدخّل أهلها..

(١٢)

في مكتبي بالشركة، حوّلت لي السكرتيرة مكالمة من فتاة لم تستطع استيضاح اسمها، وما إن سمعت صوتها حتى هتفتُ:

ـ نيكولا! كيف حالك؟!

قالت في تحفظ:

ـ بخير.. شكرًا لك..

ثم بأدب:

ـ أودّ من فضلك، أن تحدّد لي موعدًا لزيارتك..

فقلت بهدوء، وأنا أكتم سرورًا عارمًا تخطى قسوة الحلم الكئيب منذ بضعة أيام:

ـ هذا يشرفني..

ـ عندي بعض العروض التي أود إطلاعك عليها، عسى أن نتمكن من التعاون مع شركتكم..

ـ حسنًا.. سأنتظرك غدًا عند الواحدة..

ـ هذا جيد.. شكرًا لك..

لبثت نيكول في خيالي بقية اليوم، وحتى استيقاظي في صباح اليوم التالي. وقبل خروجي من الشقة، وقفتُ عند المرآة الكبيرة بجوار الباب أتأمل ملامحي..

فتشت فيها عن براءة الماضي وأحلام زمن الدهشة والبهجة الأول..

(١٣)

وقالت السمراء الفاتنة «مها رشدي» وهي ممتقعة الوجه إثر المفاجأة الجميلة يوم الإسكندرية:

ـ أما أنا فلا أستطيع أن أصف حبي لك.. ببساطة هو لا مثيل له!

ورنوت إلى عينيها، تحت سمرة الغروب الساحرة، وأنا أذوب في روح الوجود، مؤكدًا أن عينيها هاتين هما مستقر عالمي، وأنهما بلا مثيل إلا ما تُورده الأساطير..

وقالت ملكة جمال الكون، «مها العزيزي»، ونحن نهبط من سمائنا بعد إقلاع مذهل:

ـ لن يحبّك أحد في الكون مثلي.. صدقني لن تجد!

فقلت في حرارة، وأنا أذوب في سخونة عشقها المنبعثة من الداخل والخارج على حد سواء:

ـ ليس في الكون إلا أنتِ وأنا..

(١٤)

عند الواحدة تمامًا، كانت نيكول في مكتبي المطل على النيل..

صافحتني بنصف ود ونصف تحفظ! ودخلت مباشرة في تقديمها لشركتها وخدماتها. ثم سألتني بضعة أسئلة عن احتياجات شركتنا، والمشكلات التي نواجهها مع وكيلنا السياحي الحالي.

استمعت بتركيز، وجعلت تدوّن ملاحظاتها باهتمام. وصمتتُ لدقيقة، وهي تراجع ما دوّنته، ثم قدمت لي عرضين دلاني على ذكائها وتركيزها وتمكنها الشديد من عملها وفهمها الحقيقي له. وتناقشنا، فأدركتُ أنني بحضرة امرأة تستحق أعمق الاحترام..

(١٥)

نيكول امرأة فاتنة الحسن، ذات حضور متعب، وسيطرة مؤكدة..

ولكنها تستخدم أدواتها العملية، من فهم وتركيز، محل ما امتلكت من أدوات طبيعية للإغراء..

نيكول كانت تنسى تمامًا أنها ذات صوت عذب داع، وابتسامة ساحرة، فتقدم مهارتها في التفاوض وذكاءها في المناورة، على زرقة عينيها وقدرتها على السيطرة والإقناع بغير مجهود..

بل إن منطقها في ترتيب العروض وتقديمها، أنعم من خيوط شعرها المذهب!..

(١٦)

جمعت نيكول أوراقها، وهمّت بالقيام فهتفتُ:

ـ أوه.. نسيت.. ماذا تشربين؟!

لكنها قامت وهي تقول:

ـ شكرًا.. عندي الكثير من العمل!

وعندما هممت بالاعتراض، مدت يدها في حسم وهي تقول وقد ابتسمت لأول مرة:

- إن شاء الله عند توقيع العقود..

ثم أردفت وهي تعدل حمالة حقيبة اللاب توب على كتفها:

- سأرسل لسيادتك ملخصَ مقابلتنا وكذلك العروض على «الإيميل»، ثم يكون بيننا اتصال لأعرف قراركم..

- إن شاء الله..

(١٧)

أدركت فورًا أن مغامرة سحرية قد جذبتني بغير إرادة مني.. ولا طاقة!

(١٨)

صاحت مها العزيزي:

- هل أعجبتْك؟!

- إنني حتى لم أنظر نحوها.. ثم، ألا ترين أن زوجها معها؟!

- كذاب..

- لست في حاجة للكذب!

- أنت كذاب..

- إني أبذل جهدًا خارقًا لأحترمك، فاحذري.

- وأنا أبذل جهدًا خارقًا لأتحملك، فارحمني.

(١٩)

طعم السكر الذي يتبقى في الفم بعد مشروب الفراولة ألذ من المشروب نفسه..

والملامح الباهتة المشوشة المتبقية في الذاكرة عقب لقاءات أولى قصيرة، تمارس أجمل أدوار الإغراء في هذا القلب الذي لا يكف عن الحلم..

مكثتْ نيكول في مخيلتي كالصدى الذي يرن بعد نغمة عالية.. وكعلامة مائية فوق مجال بصري حتى لقائنا التالي..

(٢٠)

فرحة صافية لقلبٍ بِكْر، تلك التي هزّتني عندما أشار صندوق رسائلي إلى استلام رسالة من نيكول..

أدهشتني فرحتي.. كأنّ تاريخًا طويلًا، مشبعًا بذكريات مثيرة مترعة بالدفء والنساء الجميلات، وقصص الحب المليئة بتناقضات العشق المذهلة، بين وصل وفراق وخصام وسلام وحرب ضارية في كل الأحوال، كل ذلك قد حط على قلبي في لحظة واحدة كسرب حمام، فتعجبت من قدرته على الفرح وهو مطمور تحت ركام البراكين..

وتنهدتُ مشفقًا من معركة جديدة، ومتشوقًا أيضًا..

(٢١)

ذكريات الزمان الماضي بكل ما حوَت، لن تستطيع أن تجد فيها أثرًا للمرارة..

(٢٢)

سارت الأمور على ما يرام، وحازت عروض نيكول إعجاب

الإدارة. وبعد عدد من اللقاءات تم توقيع العقود. وزارتني نيكول مبتهجة لتتسلم نسختها من العقد. كانت المقابلة بعيدة عن سمت الاجتماعات الرسمية التي أصرت نيكول أن تضع المقابلات السابقة في إطارها، وأشرت إلى السرور البادي على محياها، فضحكتْ وقالت:

- هكذا أكونُ حين أظفر بعقد جديد!

فقلتُ بصدق:

- إن إصرارَك هو أجمل ما فيك من صفات..

فقامت فجأة، كأنها لم تسمع جملتي، وهي ترفع رأسها ناظرة إلى النيل الجاري تحت نافذة مكتبي، وقالت:

- طوال لقاءاتنا الماضية وأنا أكتم إعجابي بهذا المشهد الباهر..

ضحكتُ لطفولتها، واعتدلت كي أشاركها النظر إلى النيل، وقلت:

- عجيب أن تنبهر روسية بهذا المشهد البديع وعندكم موسيقى كورساكوف!

ظهر الاهتمام على ملامحها وعادت إلى مجلسها وهي تقول:

- هل تحبه؟!

أسعدني أن استولى حديثي على اهتمامها، فقلت:

- بل أعشقه.. انظري إلى قائمة الموسيقى المفضلة لدي على «اللاب توب»!

قالت في حبور جليّ:

- إنك لا تتخيل سعادتي!

- حقًا؟!

- لم أصادف بين عملائي في المجالات المختلفة من يهتم بالفن الروسيّ!

كنت أرتقي في السماء طبقة تلو الأخرى، لم أصدق أنها تخلت عن تحفظها الثقيل، وقلت وأنا أحافظ ما أمكنني على هدوء الصياد الذي يخشى أن يفزع طائرًا سريع الهرب:

- حقًا؟! اعلمي إذن أنني أدمن أيضًا كتابات ديستوفسكي وتولستوي..

قالت وقد استبد بها الحبور:

- وماذا عن الشعر الروسي؟!

- الحق أنني لا أعرف منه أكثر من اسم «ألكسندر بوشكين»!

قهقهتْ ضاحكة وهي تقول:

- فاتك الكثير.. لكني أستطيع أن أوافيك بما يتيسر لو أردتَ، فأنا من مدمني الشعر وأفضله على الرواية..

من الآن فصاعدًا سأعشق الشعر الروسيّ، أيتها الفتاة التي جاءت في آخر الزمان..

(٢٣)

أنشدت نيكول قطعة شعر بالروسية، وكأنها تعرض عينة من بضاعتها، ثم رددت بالعربية وقد تهدجت أنفاسها وهي توشك أن تغيب عن الوجود:

لقد تعلمت أن أعيش ببساطةٍ وحكمة..

أنظر إلى السماء وأصلي للرب

أتنزه طويلًا قبل نزول المساء..

كي أنهك همومي الباطلة

جعلت أحملق فيما يجري حولي وأنا منفصل عن واقعي بالكلية..
تساءلت وأنا أحاول التشبث بالزمن: ما هذا الذي يحدث؟!..
أما زال في القلب متسع لمغامرة جديدة؟!..
أين كانت بالقلب هذه المروج الشاسعة التي تمرح فيها نيكول فوق صهوة حصان أبيض؟!..

(٢٤)

في المساء، آويتُ إلى مكتبتي، فاستخرجتُ كتب الأدب الروسيّ التي قرأتها قبل زمان، وكأنني في مراجعة نهائية..

(٢٥)

إن الموج الذى رماني على شواطئها لم أختر الإبحار فيه.. بل أغراني بنسيمه المنعش المضمخ بعبير الفردوس.. وبرذاذه الرقيق المترع بالأمل المغري..
الأمل ذاته الذي أفعمني جنونًا يوم قالت مها رشدي ساعة المظاهرة في الجامعة:
- الحمد لله..
أو يوم همست مها العزيزي في فحيح متهدج:
- يخرب بيتك!
هل تستطيع هذه الأحاسيس أن تغزوني مجددًا بنفس القوة الخالقة؟!..

(٢٦)

نيكول والمغامرة السحرية صارا يستحوذان عليَّ بقوةٍ حسبتُ - يوم طلاق مها العزيزي - أنني لن أستطيع الاستسلام لها مجددًا، لكني أجر إلى المعركة جرًا، رغم عدم وضوح أو توافر أي معلومات عن أرض المعركة..
فمن نيكول خارج عملها؟!..
كيف تبدو؟!..
وكيف تتعامل؟!..
من أصدقاؤها؟!..
وما شكل مجتمعها؟!..
وما ظروف حياتها ومع من تعيش؟!..

(٢٧)

صرت ونيكول أصدقاءً على الفيسبوك..
لكن ذلك لم يمنحني من المعلومات إلا القليل بسبب تحفظها المبالغ فيه..
وإضافة إلى الأسئلة السابقة.. كان السؤال الأهم: هل تعرف نيكول أنها دعتني للمبارزة والنزال؟!..

(٢٨)

توطدت العلاقات بيني وبين نيكول على أساس متين من الاحترام

المتبادل، وحب صادق من كلينا للأدب الروسي وللفن عمومًا.. وربما أيضًا للمغامرة مجهولة المرفأ..

كانت نيكول حذرة للغاية تجاه أي كلمة إعجاب، وإن كانت عابرة، وأي حياد عن المسار الطبيعي للحوار المتبادل بيننا على صفحات الفيسبوك..

كانت تقود الحوار في الطريق الذي تسمح به فقط، فإذا شعرت بأي التفاف، فإنها تروغ بمهارة، لا تجاوز الأدب، ولا تصل إلى الصدام..

أنا أيضًا كنت على قدر المسئولية، فلم أكن في الواقع أطمح لمرافقة فتاة أجنبية شقراء. كنت مفتونًا بفتاة مذهلة الحسن، لا تُلقِي بالًا لجمالها، وتبني علاقاتها على أسس من الاهتمامات المشتركة، والتفاهم، والتواصل المبطن والمغلف بالمكاشفة، الخالي من سوء الظن أو النوايا السيئة..

لذلك سمحت نيكول بأن نصير أصدقاءً على الفيسبوك، لنبدأ علاقة رأسمالها الاحترام وحده..

(٢٩)

مأساة نيكول الحقيقية، هي إدراكها أنها حسناء فاتنة، وكونها أدركت أيضًا، أنها تملك داخلها جمالًا أبهى وأكثر ثراءً مما يظهره جسدها الجميل، من شعرها المذهب، حتى أصابعها الرخامية الرقيقة مرورًا بصوتها الدسم ولهجتها المميزة، لذلك عدّت جمالها عبئًا ثقيلًا، يجذب إليها أشخاصًا هم أبعد ما يكونون عما يدور في عقلها من ثقافة

وفن وحزن عميق، فأوشكت أن تكره جمالها، وفرضت على نفسها مجهودًا مضاعفًا لفلترة الملتفين حولها من أصدقاء وعملاء ومعجبين أولًا بأول وبلا هوادة، فإن أصغر إهمال قد يجلب لها من المشاكل مالا تريده، ولا تتوقعه، فضلًا عن أن تُحسن التعامل معه..

(٣٠)

تفرغتُ في الصباح للعمل، وللتفكير في نيكول.. وفي المساء أقضي الوقت في القراءة الأدبية الممتعة، وفي متابعة نيكول على الفيسبوك..

(٣١)

هل تعرف عمق التناقض بين أن تكون أسعد إنسان في الكون، وأن تكون أكثر العالمين حزنًا في الوقت نفسه؟!..

هذا هو الحب قبل أن تبوح..

وهل تعرف ما هو أصعب ما في الحب؟!..

هو تلك المسافة بين إدراكك أنك أحببت، وأن يواتيك الظرف الذي تبوح فيه بحبك وأنت موقن أن طلقتك لن تخيب.. في هذه المسافة تمتد صحراوات قاحلة يعربد فيها الجنون، وتمرح الشياطين، وتنتحر الآمال الحسان.

في لحظة يملكك شعور لامعقول، ينثر ظنونك السيئة وشكوكك وقلقك على مر الثواني بلا توان. فتتمنى لو أن محبوبك قد وُلد للتو، أو أن يستحيل بلا أي مجارب سابقة..

بلا أي معارف ولا ذكريات..

بلا معجبين ولا أصدقاء..

بل وبلا أهل!..

تتمنى أن يكون لك وحدك، وهذا بالطبع مستحيل لأنك لم تبحْ له بحبك أصلًا، ولم تبحْ بحبك لأنك ترى أن الظرف لم يواتك بعد..

في هذه المسافة، يكون الحبُ حلوًا ذا قلب مليء بالمرارة، مناديًا بصدق أشبه بالرفض، مرحبًا ذا هيئة توحي بالصدود، مداعبًا بقسوة خشنة، وراقصًا على لحن حزين..

وأنت في كل ذلك مجبر على تحمل المرارة والحيرة والاكتئاب بلا أدنى قدرة على المقاومة..

هذا هو الحب قبل أن تبوح..

(٣٢)

إن الكلمات المخملية التي لم تُقَل.. هي أحدّ ما يمزق شغاف القلب..

(٣٣)

ما الذي جذبني بهذا الشكل إلى نيكول؟!..

هل هو افتتاني الأزليّ بالشعر الأصفر والأعين الزرقاء؟!..

إنني لم أرتبط يومًا بامرأة، إلا وكانت مثالًا للحسن الطاغي، ولكني حذفت من حياتي أيضًا، وبكل حسم، جميلاتٍ توقف حسنهن عند حدود أجسادهن، ولم ينفذ منه شيء إلى أرواحهن، فأفلت شموس حسنهن في عيني بلا شروق لاحق.. ولذلك لم أتزوج سوى مرتين فقط!..

(٣٤)

ـ بابا.. ماما تريد الحديث إليك..

امتعضت، ورقص قلبي أيضًا، كما هو حالي دومًا مع سيدة التناقضات المذهلة، مها العزيزي..

المرأة التي فاقت النساء في الحسن وفي القبح الذي تصير إليه حين الغضب، في المرح وفي الحزن حتى الموت، في الحب وفي الكره حتى الطلاق..

وإلى الآن تنزف جراحي، فألعنها في مقت ويبتهج قلبي لذكرها، ولكننا نلتقي ونتحدث كغريمين..

أتاني صوتها ناعمًا ممطوطًا كالعادة:

ـ آلووو..

ـ أهلًا.. كيف حالك؟!

ـ بخير.. ميسون اذهبي إلى تيتة من فضلك..

ثم قالت:

ـ ألا تلحظ أنك لم تعد تهتم بمتابعة ابنتك؟!

هذا الحديث، وهذه النبرة المستفزة، وهذا النقد المقيت المفاجئ، يردني إلى أصعب أيامي مع مها. الأيام التي اقتحمت حياة هانئة واعدة بالاستمرار إلى الأبد، فقلبتها رأسًا على عقب، وتحول المحبون الهائمون إلى غرماء، يتحين كل منهما الفرصة لينفجر في الآخر، ولولا ميسون لجاءت النهاية أسرع، لكن حرصنا المشترك على مصلحة ميسون دفعنا لسنوات وسنوات لتوقيع اتفاقات هدنة متتالية. ولكن الهدنة في كل الأحوال، ليست كالسلام المستمد من السكينة والحب الذي ظللنا يومًا، قبل أن يزول عن سمائنا إلى غير رجعة. أما الذي

دفع مجرى الحياة نحو تلك الهاوية المفزعة فيبدو أنه سيظل سرًا إلى الأبد..

قلت في برود:

ـ لا ألحظ ذلك في الحقيقة..

ـ إنك تتعمد إغاظتي..

ـ قولي ماتريدين، وأفرغي كل الاتهامات التي في جعبتك حتى تستريحي..

بانكسار قالت:

ـ شكرًا لك..

(٣٥)

أدركت مها العزيزي أن امرأة تدخل حياتي..

هذا ما تؤكده خبرة تسع سنوات تقريبًا من حياتي مع مها، وإلا فلم تتحدث إليَّ اليوم بشأن ميسون وهي لم تفعل منذ وقع الطلاق من أكثر من عام؟!..

امرأة جديدة تعني انتهاء الأمل الضعيف في رجوعنا كما تعشم حماي وحماتي، اللذان كانا يراهنان على حبنا، ساعة أن وقع طلاقنا. الطلاق الذي حرصت هي عليه يومًا، وأحرص أنا عليه اليوم أكثر منها.. ولكن.. هل كان لمها ـ كما لأبويها ـ أمل في عودتنا؟!..

لم أجد في الواقع الوقت الكافي للحيرة بشأن هذا الأمر..

(٣٦)

سيدة التناقضات.. مها العزيزي.. ليس عجيبًا أن تكوني أحلى أقداري وأكثرها مرارة..

(٣٧)

كيف غفلت عن عظمة الشعر الروسي كل هذا الوقت؟! وكيف تستيقظ أرواحنا بلا مقدمات؟!..

(٣٨)

وَحْشَةٌ..
وأنا أنحدرُ من نجمةٍ لنجمةْ
بحثتُ قرونًا عن صورتي
فوجدتُها على الأرضْ..
على الأرضْ
حيث أنا وحيدةٌ..
أشقُّ طريقًا إلى نبع السماءْ

ـ لماذا هذه القصائد الحزينة دائمًا؟!

ـ لا أدري! ربما لأنها تذكرني بحياتي..

بترقب وبعد طول تردد، أندفع فأكتب:

ـ حياتك؟! أهي مليئة بكل هذا الحزن؟!

ويجيء ردها كما توقعت:

ـ عفوًا! أظن أن ماما تناديني..
وتهرب في أدب.. كالعادة!..

(٣٩)

طالت غيبة نيكول هذه المرة..
لا ترد على الموبايل، ولا على أي من رسائلي على الفيسبوك، أو «الإيميل» الشخصي. هل أساءت فهمي فأصدرت أمرها بنفيي خارج مدينتها المسحورة التي لم أدخلها بإرادتي؟!.. وها أنا الآن أخرج منها بغير إرادتي أيضًا!..
ولكن حدثًا كهذا لم يسبق أن حدث معي.. ولن أسمح بحدوثه!..
حقًا؟! ولكن كيف؟! هل أملك حقًا القدرة على القبول أو الرفض؟!..
إن صورتها لا تغيب عن بالي لحظة من ليل أو نهار.. ورغبتي في رؤيتها لا تقل أبدًا عن رغبة محب غارق في الحب.. وهذه الموجات من الحزن ومن الحنين الغامض، هي ذاتها عذابات العشق ووساوس الشوق في الزمان الأول.. وهذه النفثات المستعرة من الجحيم الأبديّ لا نجاة منها إلا في فراديس اللقاء الذي لا يجيء..

(٤٠)

استفحل جنوني بعد أسبوع..
فترت رغبتي وقدرتي على العمل بشكل حاد، وفترت كذلك رغبتي في الراحة بل وفي الحياة ذاتها. ومن سوء الحظ أنه لم يكن هناك

ما يستدعي أن أتصل بها في شركتها. فحتامَ يستمر تعذيبي؟!..
وهل كُتب عليّ أن أبقى بمنفاي أنتظر عفوًا ساميًا؟!..
لم لا أسخر هازئًا من تلك العبودية التي لم أعرفها ولم أذعن لها يومًا؟! لم لا أرتد لما قبل لقائها بالمعرض؟!..
ولكن كيف، وصورتها لا تغيب عن بالي لحظة من ليل أو نهار؟!..
وعدت ـ في يأس ـ إلى حياتي السابقة الرتيبة المحنطة في جزر الثلج..
جعلت أستعرض كل ما رغبت في فعله ذات يوم، فمنعتني عنه مشاغلُ حياةٍ مليئة بالمسئوليات، فلم أعثر على شيء ذي بال..
قلبت في حكاياتي السابقة عن قصص مشابهة أستلهم منها العزاء والقوة وأتساءل: فكيف لو لم تجرب الفراق عشرات المرات؟!..
وأجلس بالساعات محملقًا في شاشة الفيسبوك، أراقب الـ(notifications) وأستحلف الـ(inbox) أن يفجر مفاجأة مبهجة!
لم تكن حياتي بانتظار المزيد من الآلام أيتها الفتاة التي تجيء في آخر الزمان..

(٤١)

حياة وأيام تمضي بلا معنى ولا رغبة ولا أمل..
يكاد الجنون يفتك بي..
ما هذا الذي يحدث؟! كيف ومتى وأين تم هذا البناء القويّ الذي يحاصرني في عناد مقيت؟! وكيف ومتى ولماذا استولى عليّ الخَوَرُ

فأعجز عن هدمه؟! كيف يقف متحديًا وأقف صاغرًا عاجزًا؟! ما الذي يحول بيني وبين أن أسخر هازئًا من كل شيء؟!..

ومن هي نيكول؟!..

إنني حتى لا أعرف من هي نيكول.. فأنا لم أعرف غير تلك الموظفة الجادة الجميلة التي استخرجتُ من ابتسامتها المخام دفئًا قد لا يكون قد خطر ببالها أصلًا، والصديقة على الفيسبوك تتبادل معك حديثًا متحفظًا مليئًا بالفن، خاليًا من الجنون الذي يمزقك الآن..

فهذا الدفء وهذا الجنون من صنعك لا صنعها، ولا دليل على ما هو عكس ذلك. وربما كانت الآن في سهرة مع حبيب لم تعرف أنت عنه شيئًا كمئات الأشياء التي لم تعرفها، أو لعلها تحضر معه حفلًا في الأوبرا مستمتعة بالفن وهي إلى جواره، أو ربما كانت مع صديقاتها تمرح وتتسوق، وهي في كل الأحوال لا تدري شيئًا عن الحزن الذي انفرد بك، أو عن خناجره التي تعتمل في أحشائك، أو عن النار التي تشب في الكون من أقصاه إلى أقصاه، فلا تدع لك موضعًا يرتاح فوقه رأسك المنهك المثقل بالسؤال وبالعتاب وبالجنون..

(٤٢)

أنا لا أخشى الفراق..

أنا من قاتلت أحزان الفراق مائة مرة وانتصرت.. أنا قادر على الفراق.. ولكن.. بعد أن تعلمي أنني أحببتك..

أما قبل ذلك فهو الجنون القاتل..

(٤٣)

أسبوع كامل من السبت للجمعة، فحتام يستمر تعذيبي؟!..

احتضنتُ ميسون ـ التي تبيت معي منذ أمس ـ أنشد في حضنها راحة بال لا تجيء، فقهقهتْ ضاحكة وقالت:

ـ كنتَ مسافرًا؟!

استوضحتها بعيني وأنا أحاول الابتسام، فقالت:

ـ أحدثك منذ ساعة حتى مللت!

قبلتها وأنا أدغدغها، فركلتني وهي مغرقة في الضحك..

(٤٤)

عند عصر السبت..

وبينما كنت وميسون نخرج من باب الشقة، فاجأتني نغمة مميزة في المحمول خصصتها لنيكول هذا الأسبوع حتى أدرك اتصالها من أول لحظة!

راودني الشك للحظات في أن أكون قد أخطأت ووضعت النغمة لأي شخص سواها، وجعلت أحملق في اسمها على الشاشة وأنا أكذب نظري، ثم رددت بلهفة وأنا أرتد إلى داخل الشقة:

ـ نيكول!

جاءني صوتها منكسرًا على غير عادته، حزينًا جدًا. فقلت في قلق:

ـ ما بك؟!

بحروف سوداء قالت:

ـ ماما ماتت!

طعنني حزنها فمزقني، وقلت في حزن حقيقي:

ـ البقاء لله..

فقالت بصوتها المتألم:

ـ أنا آسفة، لم أستطع أن أجيب مكالماتك، ورأيت الآن رسائلك على الفيسبوك..

تمالكتُ نفسي من التمزق بين الحزن العميق والسرور السماوي اللذيّن يتصارعان بهذه المكالمة العجيبة، وقلت:

ـ كنت فقط أريد الاطمئنان عليك..

ـ أشكر لك ذوقك واهتمامك.. وأكرر أسفي..

ـ لستِ في حاجة لذلك، ولكن طمئنيني هل أنت بخير؟!

ـ الحمد لله.. مرت الأيام الأصعب..

انتبهت إلى ميسون تحدجني بنظرات نارية. لم أستطع الاسترسال في المكالمة، وقلت:

ـ يحفظك الله من كل حزن.. واسمحي لي أن أطمئن عليك لاحقًا..

فقالت وهي تنهي المكالمة:

ـ شكرًا لك..

(٤٥)

فتحت السماء أبوابها مجددًا..

وعادت الحياة في الألوان الشاحبة..

(٤٦)

قالت مها رشدي قديمًا وهي تضحك بعد عودتها من غيبة مفاجئة طويلة:

ـ ماذا ظننت؟!

فقلت وأنا من الغيظ في غاية:

ـ تستحلين تعذيبي؟!

ـ أبدًا والله..

ثم قالت في إشفاق:

ـ أأنت غاضب مني؟!

فقلت في حنق:

ـ لا أبدًا..

ـ أرجوك.. لقد انتظرت أن ألقاك طوال ثلاثة أسابيع، فلا تلقَني بوجهٍ عابس وظن سيء..

فقلت مستسلمًا للسرور الذي أنعم به عليَّ قدومُها بصحبةِ الروح والأماني الحلوة:

ـ ولكن غيابك كان مؤلمًا..

(٤٧)

عند مساء السبت، اتصلت بنيكول بعد تردد دام نحو الساعتين..

صارعت قلقًا مضنيًا من عدم ردها على مكالمتي لأي سبب. حينئذ تنفتح مرة أخرى بوابات الجحيم أمام الظنون المؤلمة، فما أكثر ما نجد في الطمأنينة الكاذبة راحة للقلوب. ولكن خشيتي من فوات

الوقت، ويقيني بأنني لن أستطيع النوم إلا لو سمعت صوتها مجددًا، دفعاني فاتصلت بها.

ردت فورًا لحسن الحظ، وقلت بصوت أفضل بكثير من صوتها عند العصر:

ـ مستر آدم..

ـ فلتغفري لي اتصالي المفاجئ، ولكني راغب حقًا في الاطمئنان عليك.

ـ مرحبًا باتصالك في أي وقت.. إنك أعز صديق..

تلقيت تصريحها بلذة مؤرق يشعر بدبيب النعاس بعد ليلة طويلة، ورأيت البناء العالي العنيد الذي حاصرني طيلة أسبوع حتى هم بقتلي، يستحيل قصرًا ذا جدران من الياقوت.. وإذا مخاوفي السيئة وشكوكي طوال أسبوع، كأنهن أصدقاء عمرٍ يسخرن من خوفي ومن انطلاء حيلتهنَّ الخادعة ولعبتهنَّ المرحة عليّ!

ولمست في صوتها أنها بحاجة للحديث، فسرني ذلك وقلت بلا تحفظ لأول مرة:

ـ يعلم الله أنك أعز من ذلك..

فقالت في ود صافٍ للمرة الأولى أيضًا:

ـ شكرًا لك..

وسألتها، وأنا في الواقع أرغب في أن أغوص أكثر داخل حياتها الشخصية فأعرف المزيد عن ظروفها الاجتماعية:

ـ نيكول.. إنني أود أن أزورك لتقديم العزاء، فهل تأذنين لي؟!

فقالت في امتنان مسّه شيء من التردد:

ـ طبعًا!

وبعد لحظة:

ـ ولكن..

وضح أنها تفكر في حل لمشكلة ما، ثم أردفت موضحة:

ـ لا أستطيع للأسف استقبالك في منزلي، فأنا أقيم بمفردي الآن، ولا أستطيع أيضًا أن أدعوك لبيتٍ من بيوت خالاتي فعلاقتنا ليست على ما يرام، فضلًا عما ستجره الزيارة من تساؤلات لا تخفى عنك..

قلت بسرعة:

ـ فليكن لقاؤنا خارج المنزل..

ـ أين؟!

ـ أي كافيه..

تفكرت قليلًا ثم قالت بعد برهة:

ـ لا مانع..

(٤٨)

في الكافيه وقبل موعدي بنصف ساعة جلست في انتظارها..

تأملتُ نفسي.. فإذا أنا ذاتُ العاشقِ الذي عرَفته منذُ خمسةَ عشرَ عامًا..

في حالٍ مشابهة، انتظرتُ مها رشدي فوق لهيب مستعر في كافتيريا الجامعة، ثم انتظرت مها العزيزي بشوق ممزق في كافيه بأحد مولات الكويت الشهيرة.. والآن نيكول!..

لماذا لا ينطفئ اللهيب؟!..

ولماذا لا أجد في نفسي مللًا من تكرار الحكاية؟! ولماذا لا تلتهم

أحزان النهايات المفجعة آمال البدايات الملهمة؟! ولماذا ـ وهو الأهم ـ أحب من جديد؟!..

ماذا أروم من تلك القصة المشوقة؟! حبا عريضا ثم زواجا جديدا؟! ثم تدور الدائرة فأجدني هنا مرة أخرىٰ؟!..

وهل يتبقىٰ في القلب ما يغري به عاشقة جديدة؟! أو هل هناك ما يمكن أن يغري قلبك ذاته؟!..

وهل تجد في قلبك قدرة علىٰ الاستسلام مجددًا لما لانهاية؟! أم أن أحداث الأعوام الماضية ستحجب عنه شيئًا من النور ومن النار، وتنقذه من التمادي الساذَج في طريق الجنون والعشق، أو تحميه في لحظة حاسمة من اتخاذ القرار الكبير؟!..

كيف يكون الحب لو حدث ذلك؟!..

وأي روعة في حب يجيئك فتستقبله بكامل أناقتك، وتستضيفه في الصالون ذي الهواء المكيف ومن ثم تتبادلان حديثًا رزينًا؟!..

ليجيء الحب فأستقبله بسذاجة طفل لم ير النار من قبل.. طفل مندفع لم يعرف عنف الموجة المتخفي خلف مظهرها الحنون.. طفل غر لم يجرب حيل أهله الماكرة..

ليجيء الحب حرقًا مغرقًا ماكرًا مراوغا ملهمًا.. أو لا يجيء..

وجاءت نيكول..

مكللة بأعذب إغراءات حبٍ جديد..

(٤٩)

الحزن مازال فوق ملامحها الهادئة..

وثوب الحداد الأسود الضيق أبرز لونها الأشقر إلىٰ درجة التألق..

إن جلال حسنك في الحزن فاتنٌ كشروق ابتسامتك عند السرور..

وإن لحزنك سيطرة كما لجمالك الآسر..

وإن حضورك ـ علىٰ أي حال ـ لجدير بمحو جبال من الذكريات والدموع والآلام..

وها أنا معك.. وجهًا لوجه مع تاريخي كله.. ولكن بلا أي حماية من خبرة ولا ماض ولا ذكرىٰ سوداء أو بيضاء..

(٥٠)

قالت وهي تجلس:

ـ شكرًا لك.

ولما التقت عيانا، هربت منها ـ بفعل الحياء ـ ابتسامتها الجميلة وتنحي جانب ثغرها في رقة. وهممت بأن أتحدث، ولكنها قالت وهي تريح بصرها علىٰ الطاولة:

ـ يعلم الله كم أنا ممتنة لك!

يعلم الله أنني أنا الممتن للقدر الذي لا تنقضي مفاجآته الرائعة.. ويعلم الله أنك أبهىٰ هذه المفاجآت وأعجبها!..

وفاجأني جنوني فقال بلا حساب:

ـ قضيتُ أسبوعًا أسود!

رفعتْ رأسها في دهشة، فقلت مستردًا شيئًا من عقلي:

ـ لا أعرف لم في الحقيقة، ولكن يبدو أن صداقتنا تنمو، وكذلك عشقي للشعر..

ابتسمتْ في مكر يدل علىٰ إدراكها لمغزىٰ قولي، وقالت بذات المكر:

ـ لكَمْ أنا سعيدة أن يكسب الشعر الروسي معجبًا ذواقًا مثلك!

ضحكتُ وأنا أهم بالرد ولكن تدخُل النادل أوقفني، وبعد انصرافه شردتْ نيكول فجأة، ثم طال شرودها، فهمست:

ـ نيكول!

فالتفتت نحوي وزفرت وقد بدا أن الحزن قد عاودها، ثم قالت:

ـ كان الأسبوع الماضي محزنًا لدرجةٍ لم أتصور أن أمر بها مجددًا بعد كل ما ضرب حياتي من أحزان.. لقد تصورت أن أحزاني السابقة قد حصنتني ضد الحزن فلن يتمكن من السيطرة على روحي مجددًا.. ولكني كنت واهمة.. وحدث أكثر ما أرعب روحي.. كانت أمي هي حصني الحقيقي، وهاهي تتركني في العراء..

اغرورقت عيناها بالدمع فسحبت منديلًا من حقيبتها ثم أجهشت بالبكاء..

ضربت قلبي بقوة نافذة إلى الأعماق، وتأملتها بإشفاق حتى دمعتْ عيناي.

ودِدتُ أن أمتص حزنها كله ولو قتلني..

تأكدت في تلك اللحظة.. أنني وجهًا لوجهٍ مع النار وعنف الموجة وعمق البحر ومكر الأمل وطيش الإلهام ولذة الجنون.. بلا حواجز ولا حاجب ولا خبرة..

(٥١)

لم يعد يمر يوم دون اتصال هاتفي أطمئن به عليها..

ثم تطورت أحاديثنا لتطمئن عليَّ هي الأخرى، ثم صارت مكالماتنا تتعدد في اليوم الواحد لتصل إلى أربع مكالمات في بعض الأحيان..

لم أجزم إن كان ذلك اعترافًا بأنها وقعت مثلي في الحب أو أنها فقط تبادلني أحاديث وواجبات الصداقة، ولم أهتم بالبحث أو التفكير، فلم أكن إلا هائمًا استخفه الحلم فحلق من جديد، ورامَ الوصول إلى مدن لم يبلغها في رحلاته السابقة، وأمده الحلم بكل ما يلزم الرحلة من شوق ومن لهفة ومن براءة ومن جنون، وقطّر في حناياه رحيقًا هو أعذب ما استخلصه من ذكريات الأيام الخالية، فاستحال الماضي بحلوه ومره خليطًا من حكايا عذبة، وروحًا من جوهر الحب الأول، ومتعة الحيرة الأولى، وتوقًا ملهوفًا إلى لمسة اليد العجلى، والتصريح الممتقع بما يعتلج في الفؤاد من إحساس هو الكون كله..

وحين تماديت في التحليق، سموتُ وسموتُ إلى حيثُ لا أرى من الماضي أي أثر للخلافات الزوجية المزلزلة، والمساءات المعكرة بفعل شجار ليلي منهِك، والأزمات التي تنبت من تحت الأرض بلا بذرة ولا تربة!..

(٥٢)

في تلك الأيام، لم أكن أعود إلى الأرض إلا بفعل مكالمات مها العزيزي المتلاحقة المفتعلة المستترة وراء أسباب واهية لم تخف حدسها الأنثوي الملتهب..

(٥٣)

جمعني ونيكول لقاءٌ ثانٍ...

جاءت بعد رفض متكرر وهي محمرة الوجه، وجلست وهي تقول في حرج:

- هذه آخر مرة!

فقلت بلا مواربة:

- ليتها تكون المرة الأخيرة التي نفترق فيها بعد لقاء!

تهدجت أنفاسها وهي تبحث عن رد، ولكني قلت:

- نيكول.. إني أكاد لا أعرف عنك شيئًا ذا بال، وأنت كذلك لا تعرفينني، فلم لا نتعارف من جديد؟!

أفاقت من رهبتها، وقالت:

- اتفقنا.. لا بأس.. ابدأ أنت!

ضحكتُ لمهارتها في الهروب وإن لم تفاجئني بسبب خبراتي السابقة معها، وقلت:

- حسنًا.. أنا آدم حسين الشوبكي.. أعمل في شركة..

قاطعتني بإشارة معترضة من يدها وهي مغرقة في الضحك، وقالت:

- كل ذلك أعرفه..

فضحكت وأنا أقول:

- حسنًا.. أنا آدم حسين الشوبكي، تخرجت في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية عام ١٩٩٨، وعملت في قسم الدراسات الإستراتيجية بإحدى الصحف الكبرى. شققت طريقًا مليئًا بالأحجار، ولسبب ما انتقلت لقسم الإعلانات بالصحيفة وحققت نجاحًا جيدًا، ثم شاء القدر أن أرحل للكويت فأعمل بقسم الإعلانات في صحيفة شهيرة أيضًا، ثم مللت الغربة وعدت للقاهرة لأعمل كما تعرفين مديرًا للعلاقات العامة بالشركة الحالية..

وسكتُ، فطاردتني بنظرة حائرة تشير إلى أنني لم أطرق موضوعًا

غاية في الأهمية، وتصنعتُ عدم الفهم، فلم تجد بدًا من التصريح، وأشارت ضاحكة إلى بنصر يسراها، فضحكتُ وقلت:

- ليس قبل أن أسمع منك موجزًا أيضًا!

حاولت التملص وهي تضحك في حياء، ولكني تراجعتُ حتى أرحت ظهري على الكرسي، وقلت بحسم:

- دورك!

فاعتدلتْ بدورها وهي تحاول جمع شتات فكرها، ثم سرحت وهي تقول:

- أما أنا فلا أستطيع أن أبدأ قصتي مثلك من يوم تخرجي، إذ إن حياتي بهذا الشكل تبدأ من لحظة قديمة تسبق ميلادي نفسه.. اللحظة التي وقع فيها نظر أبي - موظف الجوازات الروسي - على المضيفة الجوية الجميلة على الخطوط المصرية. انتظرها أبي في كل رحلة حتى أثار انتباهها وانتباه زميلاتها. ثم فاجئها ذات مرة، فذهب إليها وصارحها بحبه، وأخبرها بأنه يعلم بأنها مسلمة وأنه سيشهر إسلامه قبل أن تجيء في رحلتها التالية!. وفي الرحلة التالية عرض عليها الزواج، وكانت أمي من الجنون بحيث وافقت..

ضحكت نيكول وهي تلحظ إعجابي بالحكاية، ثم أردفت:

- ولكن أهلها لم يكونوا على ذات الدرجة من الجنون بالطبع! فرفضوا هذا الارتباط وهذا الزواج، ولكن رفضهم لم يدم فترة طويلة، لما رأوه من إصرارها. وفسدت علاقتها بهم. وتم عقد القران في بيت جدي في صمت، ثم رحلت مع أبي إلى موسكو، وعاشا حياة مليئة بالحب، بعيدًا عن أهلها الغاضبين، وبعيدًا عن أهله الذين تجاهلوا كل شيء يخصنا فلم أعرفهم إلا في لمحات عابرة مليئة بالحزن.

والسواد، وأنجبتني عائشة نصّار بعد عام من زواجها فتصورت أنها قد حازت السعادة المطلقة..

شردت نيكول قليلًا قبل أن تقول في حزن وبلا تفاصيل:

- وقعت أمور غيّرت مجرى الحياة تمامًا، ثم توفي أبي، وعدنا سويًا لنقيم بالقاهرة بعيدًا عن أهلها في المنصورة المشتعلة بالغضب، وبعيدًا جدًا عن موسكو المليئة بالثلج. كنت وقتها في العاشرة، وكنت روسية تمامًا! لا أعرف عن مصر إلا ما كانت ترويه أمي في اقتضاب عن حياتها السابقة، ولم أكن أستطيع أن انطق بجملة عربية واحدة. وعادت أمي لعملها، واندمجتُ أنا في الحياة المصرية بين مدارس الجالية الروسية وبعض المدارس المصرية حتى تخرجت في الجامعة الأمريكية وقد درست إدارة الأعمال..

صمتت، وعرفت أنها لن تضيف حرفا. حان دوري، فتوترت أعصابي وعرفت أن لحظة حاسمة في علاقتي بفتاة آخر الزمان على وشك البداية..

(٥٤)

قالت في انتقام مرح:

- دورُك!

وصلنا إلى محطة المواجهة، فقلت في مناورة أخيرة:

- أخبريني يا نيكول.. ألم تجربي الحبَ من قبل؟!

- لا..

- لا؟!

- بلى.. لم تكن حياتي مهيأة لذلك!

- كيف؟!

- سأجيب عن جميع استفساراتك، ولكن حين يحين دوري!

لا المناورات ولا المكر ينطليان على هذه الفتاة الذكية. تهيأت للقفز إلى اليم، وقلت في بساطة مصطنعة:

- أما أنا فقابلت الحب كثيرًا خلال رحلتي الطويلة..

ثم بعد لحظة صمت وترقب:

- ولكني لم أحب إلا قليلًا.. ولم أتزوج سوى مرتين!

رفعت حاجبيها للحظة في غير تصديق، فلما رأت وجومي أدركت أنني لا أمزح، فضحكت ضحكة جافة وهي تقول:

- كتر خيرك!

فأعقبتُ في سرعة لأنتهي من المهمة الثقيلة:

- وطلقتهما أيضًا..

طفت خيبة الأمل جلية فوق نظرتها المضطربة، ثم قالت بصوت على حافة انفعال مكتوم:

- هذا رائع!

وبدت على ملامحها حيرة عارمة ورغبة في الرحيل فورًا، لكنها لم تتغلب على فضولها فيما يبدو، فقالت:

- لا شيء من ذلك يظهر عليك!

فضحكت في افتعال لأخفف من حدة الموقف السخيف وقلت:

- لستُ وَحْشًا على أي حال..

فقالت وهي تحبس دمعة لمحتها تتجمع أسفل جفنها الأيسر:

- بالعكس.. تبدو ملاكًا.. ولكنك وَحْش على أقل تقدير..

(٥٥)

عشر سنوات كاملة..

تفصل بيني وبينك يا ابنة الخامسة والعشرين..

عشر سنوات ستجعل من محاولتي أن أعلمك ـ أن الحياة ليست بالبساطة ولا بالسطحية التي تعرفينها ـ أمرًا عسيرًا.. ستمنعك براءة عمرك الغض من استيعاب أقوالي، ومن فهم مأساتي..

لست مجرمًا ولست سفاحًا.. كل ما في الأمر أنني صادفت حظًا عاثرًا في الزيجتين..

(٥٦)

قلت لوالدة مها رشدي وأنا أنتفض من الغضب والغيظ:

ـ إذن أعطيني حلًا مناسبًا!

فصاحت في جنون:

ـ ليست مهمتي أن أعطيك حلولًا، مشكلتك تحلها ثم تخبرني ماذا قررت!

وقلت لمريم أختي:

ـ لقد اتخذت قراري ولن أتراجع عنه.. سأطلق مها..

فلما بكت، قلت وأنا أزفر في ضجر:

ـ جرح الكرامة مؤذٍ جدًا يا مريم..

وبعد ثمان سنوات قالت مها العزيزي في المستشفى ونحن نرتجف من القلق على ميسون المنهارة بفعل شجارنا المرعب:

ـ بدمعتين من واحدة حقيرة خربتَ بيتنا ودمرت ابنتك..

ـ لن يدمر ابنتي إلا قلة أدبكِ وعجرفتك، هل تتصورين كيف

يكمل ميسون دراستها في المدرسة بعدما اعتديت على مُدرستها وعلى مديرة المدرسة؟!

ـ سأنقلها..

ـ لن تنتهي المشاكل طالما أنت أمها..

(٥٧)

وضح بما لا يدع مجالًا للحدس أن نيكول قد ضاعت إلى الأبد..

خافت نيكول وابتعدت.. ولكنها كانت حريصة وهي تنزع الحياة من علاقتنا، ربما بسبب ذكائها الفطري الذي يجعلها تدرك أنني قد أفسر انقطاعها المفاجئ بأن انجذابها للعلاقة كان بسبب رغبتها في الزواج مني!..

لكن اتجاهها لإنهاء العلاقة ـ ولو تخفّى وتنكر ـ كان واضحًا تمامًا، وكذلك انطفاء طموحها وحماسها لما يختص بعلاقتنا الوليدة..

تقلص عدد مكالماتنا إلى مكالمة واحدة يوميًا أو مكالمة واحدة في يومين، وعللت هي ذلك بضغط العمل وانشغالها بمشروع جديد. لم تطفئ حججها ناري المتقدة، ولم تنسني جفوتها المؤلمة أحلامي ولا رحلاتي إلى مدن لم أعرفها من قبل..

لم يزدني غيابها إلا تمسكًا بالبقاء بمدينتها المسحورة التي تنتظرني خارج أسوارها اللعنة والتيه في صحراء الزمان بلا أمل ولا رجاء..

أنتِ يا نيكول جنّتي وقلعتي وعاصمتي الأخيرة..

أنت دوائي الذي استطب به قلبي المليء بالآلام..

أنتِ التي بعثت قلبًا ميتًا من غيبوبة دامت كثيرًا..

لقاؤك السبب..

وابتسامتك السبب..
وصوتك المليء بالنداءات السبب..
وأنا لستُ سفاحًا ولا مجرمًا..

(٥٨)

أتاحت لي أيام الجفاء فرصة نادرة للتفكير من جديد..

اجتررت ذكرياتي، ونكأت جراحًا أعلم موضعها في القلب العليل، وراجعت عمري من لحظة التقيت مها رشدي في الجامعة إلى اللحظة التي هويت فيها أنا ومها العزيزي من فوق الهملايا إلى مستنقع مترع بالعداء! وجعلتُ أتشمم عبير أيام الصفاء والعشق، والعواصف التي سبقت النهايات، فوصلت إلى نتيجة واحدة..

إن حياتي بحاجة إلى نيكول وإلا فإنني لم أعش مطلقًا!..

ولكن هل نيكول جديرة بهذا الحب وبهذا الانتظار؟!..

الحقيقة أنك لا تستطيع أن تتساءل عن كون امرأة ما جديرة بالحب وبالانتظار بشكل مطلق.. بل هي المرأة الواحدة التي يرشحها الحب والقدر في لحظة ما، وتزكيها الظروف، وتتواطأ مع نظرة عينيها بوابات القلب، فإذا هي بين عشية وضحاها تسبح في الشرايين، تعطر الروح بنغم صوتها، وتنقش على الثواني صورتها، حتى تصبح إدمانًا قبل أن تكون احتلالًا..

عندئذ يستحيل الخلاص، وتوشك أن تنعدم احتمالات التحرر من السطوة المتمكنة القابضة على الزمان والمكان..

هذه الواحدة هي نيكول.. نيكول دون غيرها..

وأنا.. أحب من جديد..

(٥٩)

وجدتني بحضرة امرأة، هي مها رشدي ومها العزيزي في كيان واحد، فحينًا تبدو هذه وأحيانًا تبدو الأخرى. نظرت إليّ غاضبة وقد تنامى إليها - أو إليهما - خبر نيكول، ولكني كنت مسرورًا فاحتضنتها وأنا أهدئ غضبها، فسكنت حينًا كانت فيه مها رشدي. ثم تملصت من ذراعيّ بقوة وهي مها العزيزي البضة المثيرة، ثم ضحكت في إغراء ومدت ثغرها، فهويت بفمي لأقبلها، ولكنها فاجأتني بصفعة قوية مباغتة، فاستعرت غضبًا، وهممت أن أصفعها بعنف، فإذا هي ميسون تدغدغني وهي تضحك في براءة وشيطنة، فوضعت يدي في ذهول على خدي المستعر، ثم انفجرت ضاحكًا حتى دمعت عيناي..

(٦٠)

لم صارت الأحلام العجيبة تعودني من جديد؟! وتلازمني بقية من كآبتها ليومين لاحقين..

(٦١)

كان اليوم فارقًا في حياتي..

إضافة إلى شوقي العارم لنيكول، تنبهت اليوم إلى إشفاقي عليها كأب!

خنقني خوفي من وقوفها بمفردها في وجه الوحدة والحزن..

وتصورت إيابها كل ليلة إلى شقتها، وجلوسها حزينة منفردة وسط ذكرياتها المشبعة بالألم، ثم ذهابها كل صباح إلى عملها، وفي

قلبها غصة تمنعها حتى من انتظار حالٍ بالطمأنينة الآتية، والأمل في حدث جديد ينقلها إلى رحاب حياة ناعمة مستقرة..

هذا إلى جانب خوفها الفطري من كل رجل جديد، مما يصعب عليها بدء أي علاقة تحميها من الوحدة والحزن..

مكالماتنا صارت قصيرة، باردة، لا تطمئنني عليها ولا تحميها من البرد والخوف..

(٦٢)

ظلمتني..
أرقت دمي ورميتني..
فماذا أقول لك؟!
لن تسمع ما سأقوله..
وأنت بعيد
حبيبي.. فليسامحك الرب

(٦٣)

في المطعم، وعلى غداءٍ لعقد صلح بيني وبين ميسون الغاضبة لإهمالي لها في الأسابيع الثلاث الماضية، قالت في تجهم وبلا غطاء:

ـ كيف حال نيكول؟!

إذن التقطت ميسون الاسم في أثناء مكالمتي مع نيكول في زيارتها الأخيرة..

ذكرتني بأمها، واستدعت في الحال أسوأ أيام عمري وأصعب

أيامي مع مها. وتبدّى لي عنادها وقسوتها صورة طبق الأصل من الهيئة المزمجرة المتأهبة للعراك الرافضة لأي نصح أو تهدئة. رمقتها وأنا أحذر من غضبتي وسواد ذكرياتي، وقلت ببساطة:

ـ بخير..

أشاحت بوجهها بعيدًا، فقلت:

ـ هل ما زلت تحبين بابا يا ميس؟!

فلم تلتفت..

هل ورثت ميسون العناد والقسوة الغبية؟!..

ولكنها محبوبتي الأثيرة، فهل تصر الأشواك على أن تقاسمني جميع الورود بلا استثناء واحد؟!..

وفي المساء، انفرجت الأزمة قليلًا ونحن نشاهد فيلمًا بالسينما. ولكني لن أسترد ميسون بالكامل فيما يبدو، وقبل أن نستغرق في النوم سألتني:

ـ بابا.. أما زلت تحب ميسون؟!

(٦٤)

صار السؤال.. ميسون أم نيكول؟!..

وعلى غرابة السؤال، فإنه قد استنفد أعصابي في الأيام التالية حتى جننت..

الحق إنني ـ على كثرة من أحببت ـ لم يحدث أن أحببت أكثر من امرأة في وقت واحد، باستثناء أيامي الأخيرة مع مها العزيزي ومحاولاتي الواهنة غير الجادة لخلق حب مواز!..

ولكن لو أجبرت على الاختيار وقتها لاخترت مها بلا تردد، أما

الآن فإنني أقف أمام السؤال العجيب ـ ميسون أم نيكول؟ ـ حائرًا ضائعًا..

فعلاقتي بميسون أبعد من أن أضعها في مهب الريح مهما كانت المغريات ومهما كان الثمن الذي يمكن أن أتكبده. إن حمايتي لميسون هي جزء أصيل من مأساتي مع مها العزيزي، فلولا تمسكي بميسون لربما انتهى زواجنا ـ أنا ومها ـ في وقت مبكر، وقبل أن نخوض في حقول الشوك الدامي الذي جرح قلوبنا وجلودنا، وخلّف من الآلام ما يستعصي على النسيان..

ثم كان طلاقنا في نهاية الأمر أيضًا، استكمالًا لرغبتي في حمايتها من العيش في جو متوتر وحياة مضطربة مليئة بالألغام..

ولكنني أجد في نفسي اليوم ترددًا لم يحدث من قبل، ومهما حاولت حسم قراري، فإن الحيرة تهوي بي دركات في الشك والألم. ووجدتني أخلق في زواجي من نيكول ـ لو عادت ـ من الأسباب ما أقنع به نفسي أنه سيكون في مصلحة ميسون!..

استنفدني السؤال حتى جننت.. وحتى أدركتُ أنني أحب نيكول بكل صدق، وأنني قادر على بذل تضحيات جسيمة في سبيل حبها..

(٦٥)

أصررتُ ـ رغم أعذارها واستماتتها للرفض ـ على دعوتها للعشاء. جاءت منكسرة وحزينة كما توقعت وكما لم أتمن. كان حسنها البهي شاحبًا كالغروب، وكانت ابتسامتها متألمة، أكثر مما كانت متمنعة أو رافضة..

شعرت أنني الوحيد في العالم الذي يشعر الآن بآلام نيكول،

وبأنني الوحيد أيضًا الذي يجب ألا يتركها لوحدتها مهما حدث ومهما كانت ظروفي، ولو يكن حبي لها أقل من ذلك ألف درجة..

ولكني في الواقع، وبغير هذا الشعور، أحبها.. وأرفض أن أتركها لأي إنسان في الكون سواي، كما أكره أن أدعها للألم الذي انفرد بها في غياب أمها وفي غيابي..

ـ لستُ سيئًا كما تتخيلين يا نيكول..

اغرورقت عيناها وهي تقول:

ـ لقد أحببتك بكل أسف..

ثم انخرطت في بكاء حارق..

(٦٦)

لقد تلاشت أحلامي
والآن..
ها أنا ذا مستيقظ وحدي
وسط العتمة العميقة
والليل الساكن يطوّق سريري
على حين غرة..
تتسلل الرعشة إلى أحلام حبي
فتفرّ مني
وتختفي بين الحشود
مع ذلك..
تبقى نفسي تعج برغبات الأحلام
ويتملكها شوق عارم

(٦٧)

ميسون أم نيكول؟!..
وكيف سيمكنني التخلي عن نيكول؟!..
كيف ستكمل حياتها الحزينة؟!..
هل يتحمل قلبك من جديد أن يرى دموعها وجزعها؟!..
تدفعني الأقدار إلى شفا الجحيم ورُبى الجنة..

(٦٨)

في نفوسنا دهاليز سرية، قد تخفى علينا حتى آخر العمر.. وربما عرفها الآخرون من حولنا ولا نعرفها نحن.. في هذه الدهاليز السرية تتشكل القرارات الخطيرة الكبرى..

(٦٩)

في منتصف الصيف، وفي عشاء على مركب نيليٍّ مكيف، كانت نيكول متجهمة كالعادة، كأنها تلبي دعواتي بدافع من قوى خارجية. كانت تقبل كل مرة للحديث، فتحكي في حزن عن حياتها وعن أمها وعن أبيها وعن برد موسكو وعن قسوة المنصورة، وهي بين ذلك كله تبكي أو تقاوم البكاء. وكانت تطيل النظر إليّ حتى تحيّرني نظرتها، ثم لا تلبث أن تفتعل حديثًا بعيدًا عما يبدو أنها كانت ستنطق به لو طالت النظرة لثانية أخرى. ذكرتني أحوالها وحضورها لتحكي، بمجيء مها رشدي بين المحاضرات لتستشيرني في كل صغيرة وكبيرة، ولكن

ها كانت باسمة في كل أحوالها حتى الخوف أو الغضب..
وثق إحساسي بالشبه بينها وبين مها رشدي، إلى جانب شعوري القديم بأنها ضعيفة وحيدة كميسون، من أسباب عطفي على نيكول، ومد تأثيرها إلى الماضي فكأنني أحبها من وقت حبي لمها رشدي السمراء المذهلة..
كانت تنظر إلى طبقها وهي تقطع الإسباجيتي كما اعتادت أن تفعل دائمًا. شعرت وقتها بأن قوة تندفع من أعماقي كموجة لا يمكنني السيطرة عليها، كانت شبيهة بدفقة البكاء ونوبة الحزن ودقة الخوف العميقة على جدار الروح، في غلاف من حبور مدهش وإلهام راق وأمل عارم ملوّن، قلت:
ـ نيكول..
رفعت رأسها، فقلت والإلهام الغامض يدفعني:
ـ لا أشعر أنني أحببتُ كما أحب الآن..
ترقرقت دموعها المتأهبة دومًا، وتهدجت أنفاسها، فأردفت:
ـ أحبك يا نيكول.. أكثر من أي شيء في الكون.. ولا أتصور إلا أننا قد خلقنا لتكوني حبيبتي ولأكون حبيبك.. وأن نعيش معا للأبد..

(٧٠)

طوال ثلاثين يومًا، استغرقها تجهيز عشنا، كانت نيكول كمن يحمل فوق رأسه إناءً يحوي ماءً ساخنًا، فهي لا تهتز لفرح ولا لقلق. كانت نظرة الحبور لا تفارق عينيها، لكنها تسير في خطى حذرة، وأكثر من مرة قالت:

- لولا خفقة القلب التي لم أعرفها إلا معك، لما قبلت أن أضع نفسي تحت رحمتك!

اللهم لا تخيّب رجاءها واحمنا من شياطين الخلاف والنكد، فهي عدوي الوحيد وسبب شقائي الأصيل..

(٧١)

كان من واجبي أن أبلغ عمي محمود العزيزي بقرار زواجي من نيكول..

تلقى الرجل الخبر ذاهلًا حتى ذكرني بذهول عمي رشدي الصفتي يوم طلاق مها رشدي. تألمت له واسترجعت عذابات مضت، وتساءلت لم تدور بي الدنيا حتى أعذّب كل من أحببت؟!..

وبعد يومين، اتصلت بي ميسون غير مصدقة، ثم قالت:

- يعني لن أستطيع أن أراك بعد ذلك أبدًا؟!

- من قال؟! أنت ابنتي الوحيدة وأنا لن أعيش بعيدًا، سأقيم بنفس شقتي وستأتين للمبيت معي وسنسافر معًا كما تعودنا في آخر الصيف..

- قالت ماما إنك لو تزوجتَ من نيكول، فإنني لن أراك بعد ذلك، وأن نيكول قد تعذبني لو جئت للمبيت عندكم!

- لا تستمعي إلا لما يقوله بابا..

تجنبت أن أتصل بمها، رغم رغبتي العجيبة في أن أسمع صوتها!

(٧٢)

نيكول القادمة من مدن الخيال التي وقعت أمام أسوارها، يوم ذهبت إلى الكافيتريا في المعرض، كما وقعت أليس في بلاد العجائب..

صارت زوجتي..

غمرنا البحر بكل قوّته.. وغسلتنا أمواجه حتى ذابت أجسادنا وانحلّت ثم خُلقت من جديد.. فلا أنا أنا ولا هي هي..

(٧٣)

تعجبت من روعة الأقدار..

وتعجبت كيف عشت يومًا واحدًا قبل نيكول..

وقالت وهي تهمس:

- لا أصدق أن كل هذا السرور في دنيانا..

فطوقت وجهها بيدي ورحت أغوص في الأعين الزرقاء، وقلت:

- كما لا أصدق أنا أن كل هذا الحب في قلبي..

كيف يمكنني التغلب على هذه الفكرة المسيطرة التي تدعوني بإلحاح إلى الغوص في زرقة عينيها وأن أسجن هنالك بقية عمري!

وقلت:

- جميلة هي عيناك..

فضحكت وهي تحرر وجهها من يدي في خجل، فسال نظري فوق الغمازتين الساحرتين على خدها المحمر من الانفعال.. وأنهكتني النشوة حتى اشتكى قلبي..

(٧٤)

وقفت نيكول عارية تجفف شعرها الذهبي أمام المرآة، عارضة جانب جسدها الرخامي المصقول بتفاصيله المنحوتة في دقة، وارتفاعاته الصغيرة وانحناءاته المميزة بلا ذرة دهن زائدة..

أنعمتُ فيها النظر وتاه فكري وراء خاطر عجيب، لكني أوقفته بعزم قوي، ثم قلت:

- ما الذي أغراك بحبي يا نيكول؟!

ضحكت ولم تجب حتى انتهت، ثم جذبت الروب فارتدته، وشدته على جسدها بإحكام وهي تلقي بنفسها في حضني، وقالت:

- كل الرجال ذئاب.. إلا أنت!

- حقًا؟! كيف؟!

- أنت الوحيد الذي سألني عن كورساكوف قبل أن يسألني عن عنوان بيتي! كانوا جميعًا لا يطمحون إلا لغاية واحدة..

ضحكت وقلت:

- تلك التي نلتُها أنا!

قلبت شفتيها في دلال كالغاضبة وقالت وهي تداعب خاتم الزواج:

- سلمتك نفسي لأنك لست ذئبًا مثلهم..

- لا.. بل إن القضية أن نسبة الذكاء بين الذئاب مختلفة!

أغرقنا في الضحك، وقالت:

- لا يهم.. المهم أنني أحببتك وحدك..

(٧٥)

انقضى شهر العسل..

نتلاقى كل يوم بعد العمل في عشنا بحرارة صديقين لم يلتقيا منذ أسابيع، بلا ملل ولا شبع ولا بادرة نهاية..

تأملتها وهي تجمع أطباق العشاء الفارغة، بينما الشوق يتخبط بجوانب روحي كالأمواج الهادرة. وتساءلت: ترى هل يستطيع الشقاق الذي ضرب حياتي مع مها العزيزي أن يضرب حياتي مع نيكول؟!. وانتبهت على قبلة فوق يدي الممسكة بكوب فارغ، ثم أخذته وذهبت..

ليكتب لحبك الحياة إلى الأبد..

(٧٦)

دخل الشتاء بثقله، فقضينا معظم الوقت أسفل الأغطية الثقيلة أمام التلفزيون. ويومًا اشتد البرد فضحكت ساخرة من ارتعادي، وقالت:

- لو صادف أهلي في موسكو جوًا مثل هذا لرقصوا عراة!

فقهقهت وأنا أحبك الغطاء حولي، وسألتها:

- ألم تنازعك نفسك إلى الحياة في موسكو بعد عودتك؟!

فقالت في سرعة:

- لشد ما أكره أن يكون كل ما حولي باردًا..

عرفت أنها وقفت على شفير الحزن، فقمت بغتة من تحت الغطاء وأنا أنقض عليها، فهربت من حركتي المفاجئة في فزع ثم ضحكت، وأدركتها فاحتضنتها من خلفها، ونحن غارقان في الضحك. ولثمت

عنقها، فمالت برأسها نحوي ثم ذبنا في قبلة طويلة كادت تنسيني البرد القارس، ثم قلت:

- من أين تستمدين سحرك يا نيكول؟!

فقالت كالمتفلسفة:

- من حبك لي..

فقلت بصدق وحرارة:

- بل من أجمل بقاع القدر..

وحلقنا إلى مدن الجمال السرمدي ذات الزهور الحمراء والبيضاء..

(٧٧)

خلعت مها العزيزي ملابسها عن جسد وافٍ بضٍّ ناعم كالشمع، ثم جلست وهي تضع ساقيها المذهلتين واحدة فوق الأخرى في إغراء..

أغمضت عيني ومزاج عكر يطوف بذهني إثر مشكلة في العمل، ولكنها قامت بروائها وفتنتها المذهلة، فخلعت عني قميصي ثم قبلتني في صدري فأصابتني الكهرباء، وطوقتها بذراعيّ وقد انسحبت همومي حتى باب الغرفة..

(٧٨)

صحوت فزعًا، أتلفت حولي في حيرة..

ميزت في الظلام عطر نيكول، فاهتديت إلى موقعي من المكان والزمان. احتضنتها ودسست أنفي داخل شعرها الحريري، واستنشقتُ حضورها بقوة مصممة..

ولكن مها العزيزي كانت أكثر حضورًا وتصميمًا..

(٧٩)

هناك درجة في النعيم لم تستطع نيكول أن تصعد بي إليها..

درجة لا أظنها مذكورة في كتب الفراديس.. لكن مها العزيزي كانت تأخذني إليها ببساطة في كل مرة..

(٨٠)

ذهبت لأحضر عيد ميلاد ميسون..

لم ترحب نيكول بذهابي وإن لم تصرّح بذلك..

ولقيتني حماتي بتأنيبها المعتاد، واستمر اختفاء مها وعقابها الذي بدأته منذ زواجي، وعند عودتي وجدت نيكول قد نامت كأنها تعاقبني..

وحدها ميسون التي أسعدتني في هذا اليوم..

(٨١)

لم أرتح لتصرف نيكول ولا لرفضها المقنّع لعلاقتي بميسون..

لذلك فقد دعوت ميسون للغداء ولتتعرف على نيكول. ولدهشتي لم تعترض مها العزيزي ولو لدقيقة واحدة، فشعرت بأن خطة ما تدبر!..

ذهبت لاصطحاب ميسون، ثم ذهبنا فالتقينا نيكول في مطعم بأحدى المدن الجديدة على أطراف القاهرة..

رمقت كل منهما الأخرى بعمق، ثم تاهتا في نظرة مريبة. عرفتُ مها العزيزي في نظرة ابنتها، ولكني لم أعرف نيكول مطلقًا وكأنني أراها للمرة الأولى!!..

ومضى الغداء يرزح تحت نظرات نارية من «السيدتين»، ومجاملات عابرة لا تنطلي على ساذج. عرفت أنه لا سبيل مستقبلًا للتفاهم، وأدركت أن ابنتي لا تقل غيرة عن أمها، وأنها الآن تعد نيكول ضرتها هي، لا ضرة أمها، وأنها تشعر بأنها فقدتني تمامًا ولكنها ستحاول تعويض بعض خسارتها، وفي سبيل ذلك فلربما وقع ما لم يخطر ببالي، كما لم يخف عن فطنتي أنها تحمل وصايا ماكرة من أمها الخبيرة بتلك الشئون والمعارك، وأنها تسعى لتنفيذها خطوة خطوة..

تملكتني الشفقة على ميسون، لكني لم أشعر بأدنى ندم على قراري الأول بطلاق أمها، ولا بقراري الثاني بزواجي من نيكول، وفي طريق عودتنا قلت:

- هل تتخيلين أن زواجي من نيكول سيجعلني أنساك يا ميس؟!

فابتسمتْ بثقة دون أن تلتفت نحوي، وقالت:

- لو فعلت لخسرت أكثر محباتك صدقًا!

ثم بنغمة ملؤها الشجن:

- ستطلق نيكول كما طلقت ماما.. لكنك لن تستطيع أن تطلقني..

(٨٢)

أوصلت ميسون لبيت جدها، ولدى عودتي إلى بيتي وجدت نيكول قد خلدت للنوم..

طبعت قبلة فوق خدها ولكنها لم تتحرك..

كيف تغار نيكول من ميسون؟! وهل ستجيئني المتاعب من الناحيتين؟!

وخيل إليّ أنني لمحت النبتة السامة تتحرك تحت قشرة أرضنا الصلبة..

(٨٣)

على الفطور، كان أول ما قالته نيكول:

- هل مها العزيزي حسناء كابنتها؟!

فاجأني السؤال، فضحكت، ومنعها كبرياؤها من تكراره..

(٨٤)

زارتني نيكول في مكتبي في يوم عطلة لها، كما اتفقنا، لنذهب إلى السينما. وكانت قد تركت حساب شركتنا لأحد زملائها بعد زواجنا حسبما تقضي اللوائح..

كان عندي بالمكتب مديرة لإحدى الوكالات الإعلانية التي أتعامل معها. سيدة راقية توطدت صداقتنا منذ زمن ولكني لم أنظر إليها يومًا بغير عين العمل المشترك والصداقة القديمة. وأصرت نيكول على الدخول إلى مكتبي، ولم تنتظر بالخارج كالمتبع. اضطررت أن أعرفها بالعميلة بشكل أسري حتى أتجاوز غرابة تصرفها. جلست نيكول في تحفز وابتسمت بجفاء حتى جفلت السيدة ونظرت نحوي في إحراج ثم استأذنت للانصراف..

(٨٥)

في طريقنا للبيت، كانت تجفف دموعًا تنهمر من عينيها بلا توقف، وأنا في غاية الغضب والدهشة. كان الموقف جديدًا تمامًا على حياتنا. كان أول خلاف حقيقي يحدث، وكنت حريصًا كل الحرص على ألا أخدش لوح البلور الصافي ولو بكلمة، فلم أدر كيف أتصرف، كما أنها لا تعطيني فرصة للشجار فهي لا تنفجر مثل مها العزيزي..

وفي البيت سألتها:

ـ ماذا يحدث يا نيكول؟!

رفعت نحوي عينين محمرتين، وقالت وهي تجهش بالبكاء من جديد:

ـ أتمنى ألا أكون قد عكرتُ مزاجَك..

ـ ماذا تعنين؟!

ـ من تكون هذه السيدة؟!

ـ هي لاشيء على الإطلاق إذا تحدثنا عنها في بيتنا وخارج الشركة!

ـ لم تعذبني؟!

وخبأت وجهها بين راحتيها، وانهار تاج شعرها الذهبي فاحتضنها. أخذتُ نفسًا عميقًا وجلستُ بجوارها وضممتها فاستكانت ولم تدفعني كما تفعل مها العزيزي، فذهب غضبي تمامًا وحل محله الإشفاق إلى جانب القلق والتوجس مما ستجيء به الأيام.

وهمست:

ـ هل تغارين يا نيكول؟!

ـ لا.. ولكنك غير صريح..

ـ صارحيني بمخاوفك أنت إذن..

ولكنها شرعت في البكاء من جديد ولم تنطق..

خنقني الغم بلا رحمة.. وتساءلت: كيف يتبعني الشقاق والنكد من حياة إلى حياة؟!.. أم أنه مركب في فطرتهن، فإذا أخذتهن كان هو ثالثنا وأسبقنا إلى العش السعيد ليقلبه جحيمًا؟!..

(٨٦)

لو صح ما يقال عن أن النكد ميزة متفردة في الزوجة المصرية، فإنني أعرف الآن ما الذي ورثته عائشة نصّار والدة نيكول لهذا الكائن الروسي البديع!..

(٨٧)

أيقنت أن نيكول تغار بشكل هيستيري، ومن كل شيء..

أخبرتني أن القلق قد سيطر عليها وأنها كانت تثق بي ثقة عمياء ولكن ذهبت ثقتها..

غيرة نيكول لا تحتمل.. وها هي تحدث الشرخ الأول في جدار الأمان.. ثم لن تلبث جحافل القلق والشقاق والنزاع أن تتسرب كالدم من بين الشقوق، قبل أن ينبت النكد والغم من تحت الأرض بلا دعوة..

ها هو التاريخ يكرر نفسه.. وهاهي مخاوفي تتحقق خطوة خطوة..

(٨٨)

تعددت الأسباب والنكد واحدٌ..

حقًا إن الأسباب مختلفة، فغيرة مها العزيزي التي فتحت الباب لمقتلنا، كان منبعها غرورها الصلب، فهي تغار لأنها ترىٰ أنه لا توجد علىٰ الأرض من تدانيها في أي شيء وبالتالي فإن إعجابي بامرأة أخرىٰ هو طعن قاتل لكرامتها المتعالية..

أما غيرة نيكول، فمنبعها الخوف. نيكول تخاف أن تعود إلىٰ الوحدة والغربة والمنفىٰ من جديد..

ولكن في كل الأحوال، فإن ما أشفق من حدوثه، هو تكرار القصة حتىٰ النهاية الموجعة، فإنني لن أتحمل طلاقًا جديدًا مهما حدث..

وبصفة خاصة لو كانت نيكول..

(٨٩)

قالت نيكول يومًا وهي في غياهب الحزن الذي صار يختطفها بين الحين والحين:

- هل تعرف يا آدم كيف مات أبي؟!

كانت تفتح الموضوع للمرة الأولىٰ فقلت بفضول:

- كيف؟!

- شعرت أمي بأن شيئًا مريبًا يحدث من وراء ظهرها، وبالتحري الدقيق استطاعت أن تكتشف أن أبي علىٰ علاقة بامرأة. صارحته بما اكتشفته، فأعلن ندمه، وأقسم أنه لم يرتكب أي حرام مع السيدة، لكن أمي أصرت علىٰ الطلاق رغم اعتذارات أبي المتكررة، وقبل أن يحدث الطلاق بأيام، سقط أبي ميتًا من الكمد!

وجمتُ من المفاجأة ومن الحزن. وتنهدتْ هي ثم قالت:

- من يومها صار البرد عدوي المرعب.. وصار الحزن أحد أعضاء جسدي..

أدركت مغزىٰ الرسالة التي تدسها، ولكني لم أغضب، بل سيطر عليَّ إشفاق هائل عليها.. واحتضنتها حتىٰ غرقت في النوم..

(٩٠)

جعلنا نوغل في الحياة يومًا بعد يوم..

وجعلت شخصياتنا تتكشف لنا كل يوم علىٰ نحو جديد. نكتشف أنفسنا ونكتشف بعضنا بعضا. فأنا مع نيكول مختلف تمامًا عني مع مها العزيزي، ومختلف عني في مبتدأ العلاقة مع نيكول نفسها. ونيكول قبل الزواج مختلفة عن نيكول عقب الزواج، ومختلفة عن نيكول الآن، وهي أيضًا تراني بعين جديدة ولا شك..

إلىٰ جانب الخلافات العابرة، فإن شيئًا ما أصاب جذوة النار المتوهجة، فخبت قليلًا، وجعل شبح الملل يزورنا مرة كل شهر، ولكن الحب وحده وقف كالحارس الأمين ليصد أغلب الزيارات الخائنة..

(٩١)

متىٰ كانت المرة الأولىٰ التي شعرت فيها بالشوق إلىٰ مها رشدي بعد زواجي من مها العزيزي؟!..

وكيف صارت تعودني ذكراها المفعمة بعبير البخور وسحر الأوتار بين الحين والحين؟!..

ومتى كانت المرة الأولى التي زارت فيها مها العزيزي أحلامي بعد زواجي من نيكول؟!..

(٩٢)

وقفت أخلاقي أيضًا أمام غزوات خائنة من نوع آخر..

ضبطت نفسي مرات متلبسًا بالمقارنة بين أنوثة مها العزيزي الغزيرة المتوحشة، وأنوثة نيكول الرقيقة المحافظة.. والمقارنة بين جسديهما.. فعلى حين استوفت أعضاء مها العزيزي وتكوينها كل مقومات الإغراء المذهل، قنعت نيكول بتكوين يصلح أن يكون تمثالًا أسطوريًا فائق الحسن وفقط..

كنت أتوقف في اللحظة التي «أدرك» فيها أنني أفعل ذلك، لكني لم أستطع أن أمنع مها العزيزي من زيارتي في المنام مرة بعد مرة..

(٩٣)

أخلاقي التي وقفت أمام غزوات مها العزيزي المترعة بالرغبة والجنون، لم تستطع في الواقع أن تقف أمام رغبة مفاجئة في أن أبتاع هذا النوع من البخور، وأن أعيد الاستماع لأم كلثوم بينما البخور يتماوج أمام عيني وداخل قلبي كالمخدر، فأستعيد نشوات الجلوس في صالون شقة آل مها رشدي..

راقبت نيكول هذا الجو الغريب وهي تقول في دهشة وجهل بما يعتمل في روحي:

ـ هل تحاول استحضار مباهج ألف ليلة أيها الشهريار؟!

(٩٤)

بعد نحو تسعة أشهر من زواجي، ومع بدء العطلة الصيفية للمدارس، استأذنتُ نيكول بأن تأتي ميسون للإقامة معنا في الـ «ويك إند» كما تعودت سابقًا. وجمت نيكول وكأن طلبي هو أبعد ما كانت تتخيله!

أحنقني وجومها بلا سبب واضح، فقلت في حدة:

ـ لماذا يخيل إليّ أن الفكرة لا تروقك؟!

انتبهت في فزع من حدتي، ثم قالت:

ـ لا أبدًا..

و في المساء، افتقدتها بجواري على الفراش، فلما قمت وجدتها في الصالة تبكي في نشيج مكتوم..

(٩٥)

عدت إلى غرفتي بهدوء..

حاولت النوم دون أن أذهب إلى نيكول فأجلس إليها وأُطمئِن مخاوفها..

كان هذا مخالفًا لعاداتي، سواء مع نيكول أو حتى مع مها العزيزي في أشد أوقات خلافنا. كنت دومًا حريصًا على ألا ينفرد بهن الحزن، ففي قاعات الحزن المغلقة تتخلق أكاذيب لا أساس لها، وتتشكل حكايات لم تخطر ببال، وتتكاثر الكراهية الحانقة..

لكني اليوم انسحبت بهدوء إلى غرفتي..

هل مللت حزن نيكول؟! أم أنني كنت أنتصر بلا وعي لميسون التي ظلمناها جميعًا؟!..

(٩٦)

حين ذهبت لآخذ ميسون، لم تخرج مها لإبداء ملحوظاتها الآمرة ونواهيها كالمعتاد، واستمرت في احتجابها..

جاءت ميسون معي بعد تردد. كانت كالخائفة أو الخجلة، ولكني أصررت، فأقبلت في وجل وهي تحمل حقيبة ملابسها..

عند دخولنا الشقة، أدهشني ذلك الهدوء الغامض الذي يخيم عليها، فالستائر مسدلة خلافًا للعادة في هذا الوقت من اليوم. التلفزيون مطفأ، ونيكول غير موجودة بغرفة الجلوس ولا أثر لها كذلك بالمطبخ أو الصالة. المفترض أنها تعد الغداء الآن فأين ذهبت؟!..

انتبهت أن ميسون تقف عند الباب كالغريبة، تقلب بصرها في أرجاء الشقة كأنها تزورها للمرة الأولى. آلمني ذلك حتى غطى على دهشتي من الغموض الذي يلف المكان، وقلت وأنا أخبئ حيرتي من غرابة ما يحدث:

ـ ميسون.. إنه بيتك.. كل أشيائك في غرفتك كما كانت، والشقة كلها أمامك مثل أيام زمان.. امرحي كما يحلو لك ولا تتصرفي كالضيوف من فضلك..

ابتسمت في خجل وهي تذهب إلى غرفتها، بينما ذهبت أنا أبحث عن نيكول..

وجدتها في غرفتنا نائمة أو تصطنع النوم.. الحق أن شعوري لحظتها كان جديدًا تمامًا، ومختلفًا بالكلية عن أي درجة شعور أحسستها نحو نيكول حتى في أحلك أوقات غضبنا العابرة..

(٩٧)

لأتغلب على المفاجأة السيئة، أوهمت ميسون أنني أعددت مسبقًا أن نأكل من أحد المطاعم السريعة. تفكرت ميسون قليلًا ثم اختارت ساندويتشا من أحد المطاعم الشهيرة، طلبت بالموبايل غداء لثلاثتنا، وجلست أداعب ميسون ونسترجع حكايات الماضي حتى وصل الدليفري. كان الحديث بيننا مرتبكًا مضطربًا بشكل يبعث على الدهشة، لذلك كنت أحتضنها بحرارة لأؤكد لنفسي أنه لا توجد قوة تستطيع أن تحرمني منها، ولتشعر هي بأنها جزء لا ينفصم عن جسدي وروحي ومستقبلي..

لم تقابل نيكول ميسون في هذا اليوم، ولم تستيقظ حتى خلدنا للنوم، لكنها لم تقرب الغداء الذي أحضرته..

استطعت في الواقع أن ألتمس لنيكول أعذارًا كثيرة، ووددت لو طيّبت حزنها، لكني فضلت أن يكون ذلك بعد أن تعود ميسون إلى أمها..

(٩٨)

في اليوم التالي وتجنبًا لأدنى احتمال بوقوع ما قد يخدش كرامة ميسون وأمنها الداخلي، وحماية لنفسي من غضب قد لا أتعافى من آثاره بسهولة، اصطحبت ميسون إلى مدينة الملاهي الضخمة فقضينا يومًا مبهجًا بمعنى الكلمة. اقتربت ميسون مني مرة أخرى، وكانت لا تترك يدي طوال اليوم..

وفي السبت، عادت ميسون إلى مها وهي ممتنة مغتبطة، وآملة أن تعود علاقتنا لسابق متانتها..

وكذلك وأكثر تمنيت أنا..

(٩٩)

وعدت إلى نيكول، فوجدتها في المطبخ أمام البوتاجاز. احتضنتها فاستكانت كالمسرورة بعودتي..

حملتها فوق ذراعيّ إلى مجلسنا المفضل وأنا أقبلها في اشتياق واعتذار عن خطأ ليس خطأً في الواقع، ولكن هل يجدي الجدال مع امرأة تصر على أنك أخطأت؟!

(١٠٠)

كامرأة.. كان لنيكول قاموسها المخصص للتعريفات والسلوك القويم والضوابط الملزمة. قاموس كامل، هو في الواقع مخالف تمامًا للقاموس الذي يحمله كل رجل! لذلك فقد آمنت ـ بعد عمر قضيته أتعرف على النساء ـ أنه لا جدوى من الجدال بين اثنين يتحدث كل منهما لغة مختلفة..

وأيقنت أن الاعتذار وقتها، يكون هو الحل الوحيد..

(١٠١)

قالت نيكول بعد أن صفَتْ أجواؤها:

ـ إني أحب ابنتك يا آدم.. أو قل إني لا أكرهها مطلقًا.. ولكن نظرة واحدة في عينيها تفتح لي أبواب ماضيك قبلي.. فإذا أنا أنظر إلى هوة عميقة لن تلبث أن تبتلع حياتي معك ومعها كل سكينتي واطمئناني..

ـ إنك لا تعلمين كم أحبك يا نيكول..

ـ بل أنت لا تعلم كم أحبك..

ثم همست وهي تغالب دمعة ملّحة:

ـ إذا دفعتك الحياة لظلمي.. فتذكر أنني لا أملك في الحياة إلا حبك.. فلا تظلمني..

(١٠٢)

مر عام كامل على زواجنا..

كنت في الواقع أحب نيكول حبًا ربما فاق ما كان.. لكنه بلا إرادة مني اتخذ شكلًا جديدًا، وتتطبع بطباع وخصال مختلفة، تظنه هي نقصانًا وأراه انا حبًا واقعيًا..

ولكنني على أي حال، كنت لا أزال أبتهج وبشدة لرؤياها إذا عدنا إلى بيتنا بعد يوم عمل، وإذا جلست أمامي في الكافيه إذا خرجنا، وإذا أراحت رأسها على كتفي في السينما، وإذا هربت أجسادنا محلقة إلى فراديس الاشتهاء العارم..

ولكن ذلك أيضًا لم يمنع أن تصيبنا نوبات ملل عارضة بلا سبب.. أو تضربنا حفوات فتور عميقة خاصة تلك التي تعقب خلافًا أو شجارًا..

(١٠٣)

في أعقاب خلاف وقع لسببٍ ما.. جعلت أراقب جلوسي ونيكول منعزلين، قد انشغل كل منا بشيء بين يديه فأتعجب..

مَن الذي يبني بيننا ذلك الحائط الخفي؟! ولماذا نسمح له بذلك؟! وأين ذهب الجنون والهيام والأحلام الفردوسية؟! وكيف أجلس في حضور هذه الأميرة الأسطورية، سليلة القياصرة، وكأنني أجالس زميلة من الجيزة في مدرج الجامعة؟!

ظننت لوقت طويل أن عنف مها العزيزي في الخصومة هو سبب ذلك الجفاء والفتور الذي اعترانا. فلشد ما كانت معاركي مع مها العزيزي مؤذية للنفس، مليئة بالشظايا الجارحة. فما يكون سبب الفتور الذي شاركني ونيكول حياتنا بينما معاركها قصيرة أقرب للوداعة، وإن لم تخل من نكد؟!

فهي تحزن في صمت وتغضب بالبكاء فقط، فلا يطولني منها أذىً ولا جرح إذا قورنت بمها..

ولكننا في النهاية نصل إلى ذات المحطة..

فيا له من سم زعاف، ذلك الشقاق والنكد الذي تكفي منه فقط قطرة واحدة لقتل حدائقنا الزاهرة..

(١٠٤)

جعلت أيضًا أتذكر أيام شغفي الماضي بالشعر الروسيّ، فأتعجب، أين ذهب انبهاري وولعي؟! وأتذكر أيضًا دواوين نزار التي طالما عطرت بها جسد مها العزيزي وزينت بها جبهتها الرفيعة.. فأتساءل: ماذا تبقىٰ من فتوحات نزار؟! وكيف تيبست كلماته وجفت أنهاره وماتت أسماكه الملونة؟!

ثم أقول: وما جدوىٰ الشعر بغير امرأة سريعة التطاير والوله، إذ

كيف يحيا الشعر في رحاب امرأة سريعة الاشتعال والغضب أو امرأة كثيرة الحزن؟!..

(١٠٥)

كيف يصير جنون الحب إلى ما صرت إليه مرة بعد مرة؟!..

وهل كان مصيرًا كهذا ينتظرني إذا ما استمرت حياتي مع مها رشدي؟!..

عند تلك النقطة أجفل.. وأصر أن يظل السؤال بلا جواب حتىٰ لا أنقض الأمل الوحيد الباقي في وجود الفردوس علىٰ الأرض، وإلا فما معنىٰ الحياة؟!..

(١٠٦)

وصلت علاقتي بنيكول إلى المنحنىٰ الأقوىٰ والأكثر عنفًا..

جمعني المصعد في ساعة متأخرة بجارة جديدة وفدت إلى العمارة منذ أشهر، وسكنت الشقة المقابلة لنا، فاجأتني المرأة بالحديث من خلال عطرها المثير الذىٰ أفعم أنفي. قالت وهي تنظر في عيني بثبات:

ـ حضرتك زوج الروسية؟!

ابتسمت للوصف، وقلت:

ـ نعم..

فقالت ونحن نخرج من المصعد إلى دورنا:

ـ هل نساؤهن مختلفات عنا؟!

ـ لا أفهم سؤالك في الواقع..

فغمزت ثم قالت في جرأة:

- أنت فاهم..

اشتعل انتباهي، وحملقتُ في المرأة التي كانت تسدد نحوي نظرة ثابتة، وقلت:

- لكل امرأة مذاق مختلف ولا شك..

- لكنهم يقولون إن الأوروبيات يملكن فنونًا لا تملكها الزوجة المصرية!

ضحكت وأنا أحاذر أن يرتفع صوتي، فعادت تقول وهي تغمز ثانية:

- ليس كل المصريات بالطبع..

- حقًا؟!

اقتربت المرأة ذات العطر المثير، ومدت يدها نحو الكرافت، وقبل أن أقرر رد فعلي، انفتح باب شقتنا وهبت منه نيكول كالعاصفة..

(١٠٧)

هبط الجحيم إلى عمارتنا واشتعلت حياتنا في لحظة..

كانت نيكول كالممسوسة تحاول الوصول إلى السيدة التي احتمت بظهري في فزع وهي تصرخ بصوت جعل يقرع كالأجراس في سلم العمارة. ولم تلبث كل أبواب الشقق أن انفتحت وسكبت علينا بشرًا من كل الأنحاء.

امتلأ دورنا بكل سكان العمارة، بعضهم يحاول أن يخفي المرأة العجيبة عن الأنظار وقد تمزق ثوبها، وبعضهم يحاول السيطرة على غضب نيكول المستعر والمرعب الذي مزق قميصي في أثناء محاولاتها

المستميتة الوصول لغريمتها..

لا أعرف إلى الآن كيف انتهت هذه الليلة..

(١٠٨)

قضيت نحو الأسبوعين في الجحيم..

مرت عليّ ذكريات حياتي كما تمر الهلاوس على ذهن محموم..

رأيت جميع أحداث عمري وهي تقبل نحوي كالأمواج الصاخبة فتصطدم برأسي، ثم تنسحب في سرعة قبل أن أفيق، لتعقبها الموجة التي تليها.. وأنا مكبل، مشلول الحركة، منعدم الإرادة، غير قادر على الإمساك بخيط واحد من ملايين الخطوط التي تفرقني خلفها..

تقبل الموجة..

لماذا طلقت مها رشدي؟!..

هل حقًا بسبب كرامتك الجريحة؟!..

ولنفس السبب طلقت مها العزيزي، وتحملت فراق ابنتك الوحيدة وأقحمتها في تلك التجربة الجهنمية، غير آبهٍ بشيء إلا كرامتك.. فلماذا لا تطلق نيكول؟!..

هنا تنسحب الموجة، ليبدأ سؤال آخر وموجة جديدة..

كم كان ظلمك لمها رشدي فادحًا إذن؟!..

وكيف تحملت هي فراقًا لم تكن يومًا سببًا في وقوعه إلا بادعاءاتك أنت؟!..

كيف مضت حياتها التي لم تخطر على بالك؟!..

ولم تشفقُ أن تواجه نيكول المصير ذاته؟!..

ثم تبدأ موجة جديدة..

إذا كانت ظروف نيكول الخاصة ـ لا حبك الجنوني لها ـ هي السبب الوحيد لرفضك التفكير في طلاقها، فكيف استطعت التفكير في طلاق مها العزيزي رغم ظروف ابنتك الوحيدة؟!..

وتبدأ موجة جديدة..

بعيدًا عن تلك الأعذار الواهية.. ما السبب الخفي الذي جعل حياتك حلقات متصلة من اللقاء والفراق؟!..

وموجة جديدة..

هل كان بإمكاني شيئًا غير ما كان؟!..

للمرة الأولى أشعر بهذا الندم القاتل، وأرى ما كان ملء عمري من حقائق وقناعات راسخة، يتهاوى كالأكاذيب في لحظات كشف متتالية في سرعة وإصرار..

(١٠٩)

بعد أسبوعين من الخصام، وبلا مقدمات، قلت لنيكول:

ـ سأستعيد مها العزيزي..

تهاوت نظرتها وسقط رأسها في يأس وقنوت..

(١١٠)

ورغبةً في صنع جو رائع للمفاجأة..

قررت أن أصطحب ميسون إلى حفل بالأوبرا مخصص لأغاني أم كلثوم، كنت أؤجل حضوره كل عام بسبب انشغالي. كانت خطتي أن أفاتحها بقراري بعد الحفل كالمفاجأة السعيدة التي أرغب أن تكون

أول من يعرفها. ولأستخدمها ـ ميسون ـ كأداة للضغط مع حماي وحماتي، إذا قررت مها العزيزي الرفض!..

وجاءت ميسون في شغف للمفاجأة، لا تطيق الصبر على جهلها، واستمهلتُها وأنا أضحك..

ومضى كل شيء على مايرام..

حتى وقع ما لا يخطر ببال.. وانقلبت حياتي رأسًا على عقب..

(١١١)

على المسرح الكبير..

وعلى اللحن الخيالي العجيب، شدت المطربة بأغنية «أقبل الليل».

وحين سمت بنا إلى قمم الطرب وهي تغني:

لو عدت لي.. رد الزمان إليّ سالفَ بهجتي..

اصطدم وعيي بكيان راسخ كالقدر.. بعنف وبشكل مفاجئ وبلا تمهيد..

صدمة مروعة اخترقت جدران قلبي.. ثم امتدت في سرعة كالموجة المزمجرة إلى أحشائي.. ثم شملت كياني كله ظاهره وباطنه..

مها رشدي

«هل كان صوتها حقًا بهذه الروعة
التي تحملني إلى عمق السماء؟! أم
أن هيامي المعلّق بشفتيها هو الذي
يتلاعب بي، فيسحرني؟!»

(١)

يا أسمراني..
ما أنا كنت خالي
أنا شفت عينيك..
سلمت إليك..
وشغلت بالي

(٢)

هل عرفت الحب قبل مها رشدي؟!..

لا أظن.. بل إنني - ضاحكًا ساخرًا من سذاجتي - أستحضر صور كل من سبقنها ممن توهمت أنني أحببتهن، فأوقن أنه لا حب قبل مها رشدي..

ولكنني أعود فأتساءل: وهل عرفت الحب بعد مها رشدي؟!..

هنالك تبزغ الحيرة، فأغمض عينيّ مستحضرًا ما استطعت من التركيز، مستدعيًا اليقين بكل قوتي.. لكنني لا أصل إلى شيء!..

فلو كانت الإجابة «لا».. فبمَ أسمي علاقتي وزواجي بمها العزيزي ثم نيكول من بعدها؟!..

وإن كانت الإجابة «نعم».. فإني أتساءل: وهل يستطيع المرء أن يجمع في قلبه حب ثلاث نساء تتباين فيهن كل الصفات؟!..

ولو حدث هذا، فكيف يصمد حبها لخمسة عشر عامًا؟! وكيف يستمر زمنها ـ الذي أسميته يومًا «عصر الأغاني» ـ مركزًا للذكريات وعاصمة للعمر وواحة للراحة كلما ألهبتني الحياة؟!..

ولكن لماذا أحببت مها رشدي؟!..

هل هو بسبب افتتاني الأزلي بالسمرة الناعمة والأعين السوداء؟!..

(٣)

خريف ١٩٩٧..

بداية العام الدراسي الأخير بالكلية، وقد انهمكت في نقاش مع الأصدقاء حول قضية كروية مهمة كالعادة! وكزني صديق بقوة فالتفت إليه، فأومأ برأسه إلى حيث يقف دكتور «عبد العليم» يشير إليّ مناديًا، هرولت إليه، وقلت بأدب:

ـ نعم يا دكتور..

فمد يده فصافحني وهو يجذبني نحوه موجهًا وجهي إلى الخلف، وقال:

ـ ابنتي مها!

فالتفت فإذا بفتاة عن يميني لم ألحظها وأنا أجري نحوه. أحنيت رأسي أحييها دون أن أدقق في ملامحها، وإن تساءلت في نفسي عن

سبب تعارفنا. فأردف الرجل:

ـ مها ليست ابنتي تمامًا، لكنها ابنة أعز أصدقائي دكتور رشدي الصفتي.

فقلت وأنا أجهل من هو رشدي الصفتي:

ـ أهلًا وسهلًا..

ابتسمت الفتاة، فأدركت أن لها ابتسامة ساحرة. ثم نزعت عينيّ سريعًا حين قال دكتور عبد العليم:

ـ هذا أول يوم لـ «مها» في الكلية، وأريد منك لو تفضلت أن ترافقها بنفسك لتنهي إجراءات تقديم أوراقها والتعرف على الجامعة.

ـ بكل سرور يا دكتور..

لكن الرجل عاد فقال:

ـ لن أوصيك بها يا آدم، فهي ابنتي.

قلت بحماس:

ـ لا تقلق يا دكتور.

(٤)

بعد جولة شملت مكاتب شئون الطلاب، والعيادة الطبية المهملة لاستخراج شهادة صورية لا قيمة لها في الواقع، ثم الاطلاع على جدول المحاضرات، وزيارات سريعة لمواقع عدد من مدرجات المحاضرات، توقفت مها كالشاكية وهي تقول في خجل غطته بابتسامتها الجذابة:

ـ يكفي هذا، لن أتذكر موقع أي شيء، تداخلت الأماكن كلها في رأسي..

فضحكت من صراحتها وقلت في إشفاق:

ـ حسبنا هذا اليوم، لا تقلقي، ستحفظين كل الأماكن خلال أيام.

ـ هل أستطيع أن أغادر الآن؟!

تعجبت نفسي من انزعاجي المفاجئ، ومن قولي في مكر لأستمهلها:

ـ ألا ترغبين في حضور أي محاضرة؟!

فظهر التردد عليها لثوان قبل أن تقول:

ـ هل هذا ضروري؟!

فكذبت وأنا أقول بإصرار:

ـ ضروري جدًا.. لكسر الرهبة، والإلمام ببعض المواضيع، والتعرف على نظام الجامعة.

رفعت كتفيها في تسليم وهي تبتسم، فسرنا نحو أقرب المدرجات وحضرنا محاضرة لم أسمع منها حرفًا. استغرقت بكل حواسي في متابعة مها وهي تقلب النظر في الطلبة من حولها وفي شكل المدرج وفي هيئة الدكتور، وقد بدا على ملامحها الوجل والقلق الشديد من هذه المرحلة التي تقدم عليها..

أنعمتُ النظر في محياها الرقيق..

سمراء فاتنة السمرة، لم تزايل ملامحها بعدُ ملامح من الطفولة الساذجة، ذات أنف رقيق وأعين سوداء، واسعة، كثيفة الرموش، وثغر جذاب، وشفتين ممتلئتين قد انفرجتا في حسن وإغراء خطير وفي براءة أيضًا! ، ولها ابتسامة محببة تعبر بها عن سعادتها وعن خجلها وعن امتعاضها وضيقها كذلك!

(٥)

تساءلت بقية اليوم حتى المساء عن سبب سعادتي الخفيّ فلم أظفر

...ي»، حتى برقت صورتها في ذهني وأنا أتهيأ للنوم، فتبسمت وأنا أهمس: «أصبحت خاليًا وأمسيت عاشقًا، فما أعجب ما نلقى من هدايا القدر الباهرة»..

(٦)

من هذا الذي تحدث عن الحب من أول نظرة؟!

إنه إنسان وليس الإنسان إلا هو..

(٧)

التقينا صباح اليوم التالي بفعل مصادفة «مدبّرة» من ناحيتي، ...سعدني أن أرى ابتسامتها تتسع في فرح وهي تقبل نحوي، ثم ...مرني الحبور وهي تصافحني قائلة:

ـ الحمدلله أن وجدتك، صباح الخير..

اكتشفت أني أحتفظ في قلبي بنغمات صوتها المبهجة منذ الأمس، وأن نبرتها مميزة وممتعة، بل وأنني صرت أتمنى الاستماع إليها طويلًا..

ـ صباح النور، كنت تبحثين عني؟!

فقالت بسرعة في حياء:

ـ لا، ولكني كنت أشعر بالتيه، ووددت لو وجدتك لأسألك عن ...عض الأمور.

قلت في سرور غامر:

ـ حسنًا، أدركي محاضرتك، وسأحضر أنا أيضًا محاضرة، ونلتقي في الكافتيريا بعد ساعتين تمامًا من الآن.

ابتسمت شاكرة وهي تقول بقوة لتحمس نفسها ولتتغلب على رهبتها فيما يبدو:

- اتفقنا، باي..

- باي.

حرستها بعيني وهي تسير نحو مدرجها بخطواتها الرشيقة، وذيل الحصان الأسود الناعم يتأرجح بخفة خلف رأسها الجميل حتى اختفت وسط عدد من الطلاب. ولدهشتي شعرت بلسعة من الغيرة عليها..

(٨)

ماذا انتابني؟!..

أظهرلي الحبُ وجهه الحقيقي، وجهًا غيرَ هذا الوجه الباسم وتلك السعادة التي هدهدتني طيلة أمس، السعادة الناعمة التي تستطيع إدراكها مع شخص تحبه أو شخص تعجب به على السواء، لكن هذا الوجه المراوغ، وتلك النار المسماة بالغيرة وما تحتويه من حيرة وشك ولهفة، هي ذات الحب وكينونته، والوجه الثاني من عملته، وبطاقة هويته المميزة له عما سواه من أشكال الإعجاب..

توكد لي بلا موارية.. إنني أحب «مها رشدي»..

لكني أتألم من الحيرة ومن الغيرة وهذا هو السيء في الموضوع..

لم أجد رغبة ولا تركيزًا فلم أذهب إلى محاضرتي، وعمدت إلى الكافتيريا..

(٩)

جعلت أتردد بين السماء والأرض، في لحظة أغوص في زرقة السماء الصافية والبرودة المنعشة..

وفي لحظة تالية مباشرة أهوي في الجحيم السفليّ. شعور - في ظاهره - غير جديد تمامًا، فقد جربته مرتين سابقتين في أثناء دراستي الثانوية، ولكنه اليوم أعمق كثيرًا وأكثر حدة وإيلامًا، فكأنني أعرف الحب الأول.. فلماذا؟! وأي شيء فتنني في هذه السمراء التي لم أرها غير أمس؟! وما الذي دعاني مرحبًا للدخول في هذه التجربة الغامضة؟! ولماذا لا أتهيب بسبب قرابتها لدكتور عبد العليم؟! ثم من أدراني أنها ليست مرتبطة بشاب من جيرانها أو زملائها في الثانوي؟!..

لمَ أستهين بكل هذه المخاوف؟! ولمَ ينتابني هذا الشعور بالثقة من أنها تشعر بما أشعر به؟! ولمَ أشعر بهذه الرغبة الطاغية في الاستحواذ عليها وحجبها عن جميع الأعين بالجامعة؟! ولمَ أستشيط الآن نارًا وأنا أتخيل طالبًا يحاول لفت نظرها فتضحك أو تبتسم ببراءة فتسلب لبه مثلي؟!..

وهكذا، جعلت أعدو بين اليأس والرجاء، فينتابني من الألم لذة، ومن الانتظار المضني متعة، ومن الأمل الرمادي الغامض لونًا سماويًا جعلت ألون به الكون من حولي..

متى تنتهي المحاضرة البغيضة فأجدها هاهنا؟!..

وانتبهت إلى أغنية تدور في الكاسيت سابحة بأنغامها في الكافتيريا:

يا أسمراني..

ما أنا كنت خالي

أنا شفت عينيك..
سلمت إليك..
وشغلت بالي

فابتسمت واعتبرتها علامة الحظ الحسن والتوفيق!

(١٠)

يسرني حقًا أن تكون ابتسامتها لي، وأن تقبل عليَّ كالملهوفة تبحث عن ملجأ..

سَحبت كرسيًا وجلست في حرج وحياء، ثم قالت مباشرة بمنتهى البساطة:

ـ لم أفهم أي شيء!

انفجرتُ في الضحك حتى ضحكتْ هي الأخرى وهي تضع رأسها على الطاولة مصطنعة اليأس، ثم أردفت وهي ترفع رأسها الجميل فيرتفع وجهها كما تشرق الشمس:

ـ لم أشعر يومًا أنني بهذا الغباء!

فقلت وأنا مازلت أضحك:

ـ شعور طبيعي مررنا به جميعًا، وما أسرع أن تجتازيه.

فرفعت يديها قبالة وجهها وهي تقول:

ـ يا رب.

فقلت مؤمنًا على دعاء آخر:

ـ يا رب.

(١١)

مر الأيام وأنا منجذب بكل جوارحي وكياني للسمراء الفاتنة..

رتبت معها ساعات يومي ترتيبًا جديدًا.. ونفثت في روحي طموحًا لم أعرفه يومًا.. وصنعت حائطًا كاملًا في كياني ملأته بصورها.. وهي تفكر وهي خائفة وهي تناقش وهي منصتة وهي سعيدة.. وهي في كل صورها باسمة في براءة وإغراء يفوق تحملي..

جذبتني معها إليها بخيط قوي، لم أره يومًا ولم أشعر أنها تراه!

كانت أكثر براءة من أن تسحرني، وأكثر سحرًا من أن أتمكن من الحياة دونها، ودون الأمل في لقائها كل ساعة..

(١٢)

في الكافتيريا، تكون لقاءاتنا عقب المحاضرات أو فيما بينها..

تأتيني محملة بالأسئلة والقلق، ونتحادث حتى يذهب قلقها، وتبتسم فأوشك على الجنون. هذه السمراء تملك مفاتح روحي بشكل لم أتصور أن يحدث..

ويسرني دائمًا أن أحل لها مشكلًا أو أن أعينها على فهم قضية ما، أو أن أرشدها إلى حل ما، أو أن أعيرها مراجعًا ودوريات أشتريها خصيصًا لها بعد أن أخبرها أنها عندي أصلًا، فأعيرها إياها ثم أطلبها مجددًا بعد انتهائها منها!

كنت راغبًا ـ في الحقيقة ـ باستعادتي إياها، أن أظفر بفرصة أن أقلب في المساء ذات الأوراق التي مست أناملها الحبيبة، وشاركتها الحضور والسهر، وجرت فوقها عيناها السوداوان الأثيرتان..

(١٣)

كانت اللحظة التي أراها جالسة في انتظاري من أسعد ما مر بعمري إلى اليوم..

ووجدتها تجلس مهمومة، ولما التقت عينانا ابتسمت كالعادة، فقلت ضاحكًا ساخرًا من همومها المعتادة:

ـ خيرًا؟

فحرّكت رأسها في يأس كأنها تعلن أن الأمر ليس خيرًا على الإطلاق، وقالت:

ـ مطلوب مني أن أعد ورقة بحثية عن «حلف الناتو»!

ولما كان هذا البحث معتادًا تمامًا، فقد قهقهت وأنا أرى خوفها، ثم قلت:

ـ لن يتصور من يرى حالك إلا أنك مطالبة بمواجهة الناتو في معركة شاملة على الأرض!

خف قلقها قليلًا لما رأت ضحكي، وقالت:

ـ هل تساعدني فيه؟!

ـ توكلي على الله، سأكون معك حتى تتمي أفضل بحث.

فأشرقت بسمتها المحبوبة حتى ارتوت نفسي..

(١٤)

أولها قلبي ابتسم..
وآخرها ذُقت الألم..
حبيت وقلت الآه
سلمته روحي أنا..

ولا ليا عنه غنى..
واحتار دليلي معاه
يا أسمراني

(١٥)

كيف انتابتني هذه الحال من الزهد والتصوف فانقطعت عن مراقبة الطالبات من حولي؟!..

ولماذا أشعر أنني من الله أقرب؟!..

كيف أصف حبي لها؟!.. إنه حب سماوي طاهر، ذو قلب أثيري شفاف يستمد روعته الحقيقية من البسمة ومن النظرة ومن القرب البريء. أما الرغبة، فليست إلا طلاءً يمنح هذا الحب البشرية اللازمة ليستمر. وهي ـ إذا نظرت لها بغير عين حبي الطاهر ـ أنثى فاتنة خلف ستار من سذاجة طفولية لن يلبث أن ينزاح خلال عام أو عامين، ولكن ذلك لم يكن يعني شيئًا، ولم يكن يخطر ببالي إذا جلسنا للدرس أو للدردشة القليلة التي كانت تسمح بها على استحياء..

كنت في حالة صوفية حالمة. وكنت من الله أقرب من أي وقت مضى..

في هذا العام، بدأت المواظبة على الصلاة فلم أنقطع عنها حتى الآن..

(١٦)

كان عليَّ أن أصارح مها بعاطفتي..

ولكن وقفت أشياء وأشياء دون رغبتي، أهمها، أن مها لا تزال في أولى سنوات دراستها، مما يعني أنها مصابة ـ ولا شك ـ بالتشوش الذي تسببه ضغوط الدراسة والحياة الجديدة، كما أنها تجد فيّ دعمًا حقيقيًا لها، فماذا لو «خذلتها» وصارحتها بحبي؟! ستجد نفسها حينئذ بين شقيّ الرحى وستضطر أن تحسب المسألة كالتالي: رفضي لحبه = انقطاع مساعدته وأنا في عرض البحر!

كان من رابع المستحيلات أن أسمح لنفسي بأن أدفعها إلى هذا الركن الخانق..

كما أنني كنت أسأل نفسي دائمًا: هل تراني خنت أمانة دكتور عبد العليم؟! ولكن كيف؟! إنني أحب مها بصدق وكأعفّ ما يكون الحب، ولم يحدث مني مطلقًا أي خيانة للأمانة. بل إنني لم أخن حتى حبها الذي لا يعلمه غيري وغير ربي.. ثم إن ماحدث لم يكن لي أدنى تدخل فيه..

إن حبها قد اخترقني كما تخترق الشمس أغصان شجرة في يوم صيفي صحو..

هذه المخاوف كانت أقل ما يعتريني.. أما القضية الأكبر فهي: هل تشعر مها بهذه المدينة التي تُبنى داخل روحي يومًا بعد يوم متخذة من بسمتها شمسًا، ومن نظرتها الساجية علمًا ورايةً، ومن رضاها واطمئنانها دستورًا؟!..

هل تشعر مها بما أصابني وما تحاول كل فعالي أن تدلها عليه؟!..

(١٧)

ها هو الترم الأول قد أوشك على الانتهاء.

وسوف تصير لقاءتنا ـ في أثناء الامتحانات ـ نادرة قبل أن تنقطع تمامًا في إجازة نصف العام..

صار القدر يدفعني دفعًا ويمهد طريقي للبوح والتخلص من ثقل سري وعذابي المتخفي خلف عذوبته الغارقة في الألم والقتل..

ربما كنت أتوق أيضًا إلى أن أضع حدًا لحيرتي، وأن أجد مستقرًا ولو يكن على الأرض.. فلشد ما أنهكني التأرجح ما بين السماء والأرض..

(١٨)

هذا الصباح أدركت أن ما أصابني قد أصاب مها، فيا لرحمة الأقدار وروعتها..

كان يومًا مضطربًا بسبب مظاهرات اجتاحت الجامعة عقب تصعيد إسرائيلي كالعادة. امتنع عدد كبير من الأساتذة عن حضور المحاضرات، وانفرط النظام، فهرول عدد كبير من الطلاب إلى بيوتهم، واشترك آخرون في المظاهرة، وتحفز الأمن لصد المسيرات ومنعها من الخروج إلى الشارع. وأنذر الجو بالمخاطر المتوقعة. ولكني كنت أحترق قلقًا وأنا أجهل أين مها الآن؟! هل قررت أن تشترك في المظاهرة أم أنها قد ذهبت آمنة إلى بيتها؟! أم أنها تعرضت لمضايقة ما أو مكروه؟!

لم نكن حينئذ قد عرفنا الموبايل حتى نوفر على أنفسنا وقتًا وقلقًا كبيرًا، فهرولت إلى المدرج المفترض وجودها فيه، فوجدته خاليًا إلا من عدد قليل من الطلاب استغلوا الفراغ في تبادل المحاضرات القديمة، ومنعني حرصي من سؤالهم عنها. ومضيت في أروقة الكلية

ذاهلًا أكاد أجن، وبدافع فطري ساقتني قدماي إلى الكافتيريا..

عادت روحي فشهقت حين وجدتها رغم خلو كل كراسي الكافتيريا واقفة تلف نفسها بذراعيها من البرد والخوف، والتفتت فرأتني، فهرولت إليّ مسرعة، وتخلت دفعة واحدة عن كل حيائها وحذرها وهي تنفجر باكية وقالت:

ـ الحمد لله..

شهقت وأنا اختزن في صدري بهاء الكون وجلال سره المكنون..

ومن أشد آلام النفس، أنني لم أتمكن من أن أوقف الزمان والمكان عند هذه اللحظة التي لم تمر بي من قبل ولا من بعد..

(١٩)

ابتديت دلوقتي بس..
أحب عمري
ابتديت دلوقتي أخاف للعمر يجري
كل فرحة اشتاقها من قبلك خيالي..
التقاها ف نور عينيك..
قلبي وفكري

لكن الحقيقة أن ما وجدته من الأفراح في حبي لها.. لم يخطر على قلبي ولا فكري من قبل..

(٢٠)

رفعت مها رأسها في دهشة لتجدني واقفًا في صمت..

كانت في الكافتيريا في هذا اليوم تبيض محاضرة ما، لا تدري بأن ألف عاصفة وألف زلزال كانوا يضربون الأرض والسماء داخل عقلي على بُعد سنتميترات من مجلسها، وخرجت أول كلمة من فمي:

ـ مها..

وانحبس الكلام، فطالعتني بنظرة وجلة زادت من توتري، وجلستُ ـ ربما بسبب عنف الألم المعتمل داخل روحي ـ وأنا أشعر رغم البرد بأن الكون من حولي يحترق، ثم قلت وأنا غائب عن الوعي تقريبًا:

ـ هناك ما أريد أن أحدثك به..

بلهفة وقلق وبصوتٍ يغوص تحت لجة الانفعالات المضطربة، همست:

ـ قل..

ـ أنا أحبك..

(٢١)

كل ما يلي تلك اللحظة من حياتي، لا علاقة له بكل ما كان قبلها..

هل تعرف تلك النار المقدسة التي تمس أرواحنا حين نعرف بأننا وقعنا في الحب الأول؟!..

إنها في الواقع لا شيء إذا قارنتها بلحظة البوح الأول.. اللحظة التي تمد نارك المتأججة بالشموع الملونة المضمخة بالعطور المسكرة.. فإذا نار الحب ـ التي كانت تضطرم في جوانحك مؤلمة حينًا ومبهجة حينًا ـ قد استحالت نورًا كالحلم وعبيرًا كالسحر وطاقة كروح الوجود..

صارت مها أجمل، وصارت ابتسامتها أكثر حنانًا، وصار صوتها قيثارتي المفضلة، وصار الشوق إلى عينيها هو جوهر حياتي..

أترعني الشعور بامتلاكها خمرًا.. وملأني الفخر بحبها لي أنهارًا من عسل مُصَفًى..

(٢٢)

في اليوم الأخير لامتحانات مها ذهبت لمقابلتها، وكنت قد انتهيت من امتحاناتي قبل يومين. كان يومًا مرحًا بسبب أجواء العطلة المبهجة، وكانت مغتبطة وهي تلقاني لأول وقد تخففت من أعباء الدراسة التي طالما أثقلتها. فكانت منفتحة للحديث والمرح، فعرفت لها وجهًا جديدًا جميلًا لم أره من قبل. وبسبب من السرور رحت أغني: «كان يوم حبك أجمل صدفة». وأنصتتْ لغنائي وقد تضرّجَ وجهها بحمرة الحياء والبِشر، ولما انتهيت قالت:

ـ صوتك جميل جدًا..

سرني إطراؤها فشكرتها، ثم قالت بانطلاق:

ـ أنا أيضًا أغني..

ـ حقًا؟!

من غير أن تجيبني، أغمضت عينيها ثم شرعت تغني: «أنا باعشقك.. أنا»..

(٢٣)

جعلتُ أتساءل عن مبعث تلك الدهشة والبهجة التي غزتني بوضوح..

هل كان صوتها حقًا بهذه الروعة التي تحملني إلى عمق السماء؟! أم أن هيامي المعلق بشفتيها هو الذي يتلاعب بي فيسحرني؟!..

ولكن.. أيًا ما كان الجواب، فإن غناء «مها رشدي» هو أعذب ما سمعت وما أسمع وما سوف أسمع، ما حييت.. ولذلك ولغير ذلك كان عصرها هو «عصر الأغاني» بلا جدال..

(٢٤)

عُطلة لا طعم لها..

بل هي مُرّة كأنها مستخلص آلام العالم..

لا راحة في الوحدة أو في الاجتماع بالأصدقاء.. لا راحة في النوم أو في السهر.. لا راحة في التذكر أو التلهي..

ولا وسيلة للتواصل مع المحبوبة التي هي الدنيا بأسرها..

كم تعذب المحبون قبل أن يُكتشف الموبايل!

(٢٥)

أحصيت الأيام ساعة بساعة حتى انقضى أسبوعا العطلة..

وفي الصباح، طرت محلقًا إلى الجامعة وأنا على يقين بأنني سأجد مها، أو أنها على أسوأ تقدير ستلحق بي بعد ساعة على الأكثر، لكن ساعة انقضت ثم ساعتان، فرابطت على مدخل مدرجها حتى مرت ساعة ثالثة ثم رابعة..

لم تأت مها..

سيطر عليّ شعور مؤذٍ، كأن الكون قائم على فوهة تفضي إلى فراغ

شامل.. انعدم الزمان والمكان فاستحالا بلا معنىٰ، بل بلا قيمة..

كنت كمن استفاق من حادث ليجد أنه قد فقد ذاكرته، فلم يعد هناك أدنىٰ ما يربطه بحياته السابقة..

لم يعد يربطني بالدنيا غير مها التي عرفتها منذ ثلاثة أشهر..

(٢٦)

ف غيابك عني الناس أغراب
ولا حد فاهمني.. حتى الأصحاب
ولا شيء في الدنيا.. باعمله حساب
ولاكانش الحال ده يخطر على ظني
إلا أمّا قاسيته ف غيابك عني

(٢٧)

أوحىٰ لي الجنون بأفكار عدة، فهممت أن أذهب إلىٰ زميلاتها فأسألهن، أو أن أذهب إلىٰ شارعها فأراقب عمارتها عليّ أظفر بخبر. وفي النهاية، هم جنوني أن يدفعني إلىٰ أن اذهب لدكتور عبد العليم فأفتح معه نقاشًا أدس في طياته سؤالًا عابرًا عن سبب غياب مها ابنة صديقه رشدي الصفتي! ولكني لم أفعل، وتحملت ثقل الوقت فوق كاهلي ومرارة الحيرة في حلقي وشوك الاشتياق المؤلم في أحشائي، وجعلت أتفكر.. ودفعني الفكر لسؤال نفسي عما فعلته بنفسي؟!..

ما الذي دفعني لمها حتىٰ أحببتها؟! وهل تستحق مها هذا الحب؟! أعني هل تستطيع أن تفهمه فتكون جديرة به؟! أم أنها أصغر من

أن تستوعبه فأتعذب بحبي بلا طائل وبلا رفيق يفهمه فيحنو عليّ ويبادلني شوقًا بشوق وحبًا بحب؟!..

وجعلت أراجع الأحداث منذ لقائها حتىٰ الساعة، ثم تساءلت مجددًا: ترىٰ أين هي الآن؟! وهل تشعر بما أشعر به؟! هل تذكرني في كل لحظة كما أذكرها؟! وكم أشغل من وقتها وفكرها؟! وهل تتشوق للقائي كما توقفت حياتي في انتظار لقائها؟!..

وماذا فعلت بي حتىٰ لأشعر أن أبواب السماء والأرض قد أغلقت دوني؟!..

(٢٨)

وفي السبت من الأسبوع التالي أقبلت مها..

في موعد محاضرة لم تحضرها لكي تفاجئني في الكافتيريا. جاءت ومعها كل ما يلزم حياتي من هواء وماء وشمس..

رغم الحياة التي دبت في روحي، ورغم سعادتي الطاغية، عبستُ في وجهها، فانطفأت ابتسامتها قليلًا، ثم جلست وهي تتساءل في قلق:

ـ ماذا حدث؟!

فحدجتها بنظرة محايدة تتراقص تحتها نشوات الفرح المسكرة، فكررت سؤالها، ثم قالت:

ـ كنت أتصور أنك ستسر للمفاجأة..

فقلت في لوم:

ـ أي مفاجأة؟! مفاجأة غيابك الأسبوع الماضي بطوله؟!

ضحكت لما صرحت بسبب غضبي، وقالت:

ـ ماذا ظننت؟!

ـ لا تتلاعبي بي..

ـ أنا لا أتلاعب بك.. لم تقول ذلك؟!

ـ أنتِ تستحلين تعذيبي..

ـ أبدًا.. أأنت غاضب مني؟!

ـ لا أبدًا..

ـ أرجوك يا آدم.. لقد انتظرت أن ألقاك طوال ثلاثة أسابيع، فلا تلقَني بوجهٍ عابس وظنٍ سيء..

تولى الغضب من ملامحي فطفا شوقي، وقلت:

ـ وأنا أيضًا.. ولكن غيابك طوال الأسبوع الماضي كان مؤلمًا..

ـ أنا آسفة.. لكنك لا تعلم أنه كان أشد ألمًا عليَّ.. بابا قرر أن نمضي أسبوعًا في أسوان بعد انتهاء العطلة، وهي عادته دائمًا، ففي الصيف لا نذهب للمصيف إلا بعد بدء الدراسة، وفي المرات القليلة التي يقرر بها السفر في الشتاء يكون بعد استئناف الدراسة، وحجته دائمًا أنه يريد أن ينعم بعطلة بلا زحام! وحين أعلن بابا أننا سنسافر كدت أجن، وحاولت بشتى الطرق أن أجد طريقة تجنّبني السفر ولكن بلا جدوى، ثم أنهكت عقلي في كيفية الوصول إليك لأخبرك، حتى هممت بأن أكلف ميسون صديقتي بأن تخبرك..

ثم أردفت في حياء:

ـ ولكني في الحقيقة لم أجرؤ على ذلك!

لم أكن أطمع أن أسمع منها أكثر من ذلك.. كان حديثها صادقًا مفعمًا بالشوق، مجيبًا عن جميع أسئلتي، مداويا لجميع آلامي وحيرتي..

اطمأن قلبي وانغرست مها فيه حتى ذابت في خلاياه.. إلى الأبد..

(٢٩)

أنا باعشقك..

أنا..

أنا كلي لك.. أنا

يا من ملك روحي بهواه

الأمر لك طول الحياة

(٣٠)

باقترابنا من نهاية الترم الثاني بدأ حبنا يأخذ جانبًا عمليًا إلى حد ما..

استغرق حديثنا عن تخرجي وخططي للعمل وخططنا المشتركة للتقدم إلى أهلها معظم وقتنا. كانت حياتي مملوءة بالأمل حتى السماء، وكان حماسي وإقبالي على الدنيا إلى الحد الذي لم أعرفه من قبل. وكان السرور لا يفارقني تمامًا كحبها، حتى العقبات المتوقعة لم تستطع أن تكدر صفو هنائي. وقالت مها:

ـ لقد ألمحتُ إلى موضوعنا أمس على العشاء

انتبهت وكنت أحاول استغلال وقتي كله في المذاكرة. فأردفت وهي تضع كتابًا كان في يدها:

ـ تحدثت باعتبار الأمر يخص زميلة لي، وطلبت رأيهما، فقال أبي: «مستقبلها أهم» ولكن ماما قالت: «هل تذهب البنات للجامعة للتعليم أم للحب؟! بلا قلة أدب».

اشتعل انتباهي، ولكني قلت:

ـ وماذا استنتجت من رد أبيك؟!

ـ لاشيء.. ولكن أبي لن يكون عقبة في الواقع..

وصمتت وهي ترفع بصرها نحو السماء المحتجبة خلف الأغصان المتشابكة لشجرة بوانسيانا ضخمة، ثم قالت:

ـ ماما.. ماما هي العقبة الحقيقية.

(٣١)

كان استعدادي للامتحانات هذا العام كمن يقبل على مهمة انتحارية لا احتمال فيها للخطأ. وكانت مها وصورتها تحضران بقوة في كل الأوقات، تشعلان روحي بالحماس وفؤادي بالأمل..

وفي كل صلاة، كنت أحمد الله على حبها وأدعوه ألا أفقدها ما حييت..

(٣٢)

لا أتخيل أن تصل بي السعادة مرة أخرى إلى تلك السماء التي لمستها يوم ظهرت النتيجة بنجاحي وتخرجي..

بكت مها يومها من السعادة، فكنت أرى دمعها لأول مرة حتى اغرورقت عيناي. أحسسنا بالانطلاق وبأننا ملكنا الدنيا، وأن القادم ـ على صعوبته ـ سيكون ممتعًا أن نحياه وأن نتحداه مادمنا معًا.. دعونا الله وبدأنا التخطيط للخطوة المقبلة ونحن نذوب في زمان ملؤه الحبور..

(٣٣)

كان عليَّ قبل أن نرتب للقاء أهلها، أن أجد وظيفة. وكان يجب

أن يتم ذلك في أسرع وقت بالطبع. كان الشوق يدفعنا، ويستحثنا أن نسعى لأن نعجل بارتباطنا رسميًا، وأن ننعم بالحب في جو من الاستقرار والطمأنينة لا قلق فيه ولا خوف ولا انتظار..

توكلت على الله.. وطرقت باب جميع معارفي حتى ذهبت لدكتور عبد العليم، فرحب بمساعدتي، ثم قال:

ـ وهل أنهيت تجنيدك؟!

فقلت:

ـ لن أُطلب للتجنيد.. والداي متوفيان، وليس لي إلا أخت كبرى متزوجة.

رقت نظرة الرجل، وقال:

ـ ومع من تعيش؟!

ـ وحدي.

ـ حقًا؟! لم أتصور ذلك، بل رأيتك دومًا طالبًا منطلقًا لا يبدو عليه قلق أو حزن.

ابتسمت وأنا أقول:

ـ وفاة والديّ كانت منذ زمن، كما أنني علمت أن الحزن لا يعيد من رحلوا، وأنه لن يعيد إلا الألم.

كنت صادقًا وكنت كاذبًا، فإن الحزن كان قد ترسخ فيّ حتى الأعماق، لكنه لم يستطع أن يثنيني عن النجاح بل والتفوق. كانت تنتابني نوبات من الحنين لوالديّ قد تستمر أيامًا، تجري دموعي ويشتاق قلبي إلى رؤيتهما، ولكن هذه النوبات أيضًا كانت الحافز للتفوق والنجاح..

وقال دكتور عبد العليم:

- رائع.. اسمع يا آدم، هذا رقم تليفوني بالمنزل، اتصل بي بعد غد، وادع الله أن نوفق في مسعانا.

(٣٤)

إن لذة النوال لا تقارن بلذة انتظار وقوعه بين لحظة وأخرىٰ..

(٣٥)

كانت تلك أجمل أيامنا..

كنا نحيا بالأمل، ونجد لذلك متعة، بل ونستلذ بالقلق والانتظار المضني لما ستسفر عنه محاولاتي في العمل وفي الحياة..

كان شعورنا بأن كل منا يريد الآخر، هو أعظم ما يستحثنا علىٰ الحياة وما يحببنا فيها. وكنا نؤمن بأن كل ما نحلم به آت لا محالة..

(٣٦)

طلب مني دكتور عبد العليم أن أزور صديقًا له يرأس قسم الدراسات الإستراتيجية بصحيفة شهيرة. فزرته، وبعد جلسة طويلة، وامتحان عسير، أبدىٰ الرجل إعجابه بمستواي، ثم هنأني وطلب مني أن أنتظر هاتفًا منه بعد اعتماد قرار تعييني من الإدارة، لكنه قال محذرًا:

- عملنا شاق ومهم، ولكن الدخل ليس علىٰ نفس المستوىٰ!

كان كل ما يهمني أن أذهب للقاء دكتور رشدي الصفتي - حماي المنتظر - وأنا موظف وليكن بعد ذلك ما يكون، فقلت:

- سيشرفني العمل مع سعادتك تحت أي ظرف.

اتسعت ابتسامة الرجل وشد علىٰ يدي، وقال بحماس:

- يشرفني أن أضم شابًا ذكيًا مثلك.

وانصرفت وأنا أحلق في سماء الحمد. رفعتني مقابلة الرجل ووعده بتعييني ثم ثناؤه عليَّ إلىٰ أعلىٰ علّيين. وازددت أملًا وثقة بجمال كل ما سوف يجيء من أيام. وتنفست نسيم سبتمبر البارد فانتعشت روحي..

وهرولت إلىٰ المنزل أنتظر مكالمة مها التي اعتادت أن تطلبني من الإسكندرية كل يوم قبيل المغرب حين تذهب للتريض وشراء الآيس كريم منذ سافرت مع أهلها لقضاء آخر أيام العطلة الصيفية..

(٣٧)

بكت مها وهي تذوب في السرور حين أخبرتها بنجاح مسعاي في الحصول علىٰ وظيفة، وقالت بين أنفاسها المتهدجة:

- لا أعرف كيف أصف فرحتي، أتمنىٰ أن أجدني معك الآن أو أن أجدك عندي.. إن قلبي سيتوقف من الفرح.. حمدًا لك يا رب.. ألف حمد..

(٣٨)

في اليوم التالي، وبينما همت مها برفع سماعة الهاتف في ذلك المحل كالعادة. أمسكت بيديها فوضعت السماعة، فالتفت في فزع ورعب لتجدني! حملقت في ذهول، ثم أنشأت تهذي:

- ما هذا؟! أين أنا؟!

ضحكت وأنا أحاول تهدئتها، حتى استوعبت الموقف وجرى الدم يخضب وجنتيها ووجهها الممتقع، فخبطتني في صدري وهي تقول في نبرات منهارة:

- منك لله.. كدت أموت! كيف أتيت؟!

- بالقطار!

- لا أمزح..

- لم أتحمل غيابك لأسبوع كامل، فسرت وراء جنوني..

- وقادك إلى هنا؟!

- بل قادني إلى هنا إحساسي بالشوق

- كيف عرفت المكان يا آدم؟! أنا جادة..

- من وصفك في مكالمة سابقة!

- بجد؟!

- نعم والله..

- أنت ذكي جدًا..

- بل أنا عاشق جدًا..

فهربت بعينيها في حياء، ثم أخذتْ نفسًا عميقًا من نسيم المغرب المحمل ببرودة البحر وقالت:

- أما أنا فلا أستطيع أن أصف حبي لك.. ببساطة هو لا مثيل له..

لم أجد رغبة في إضافة حرف بعد أن قتلتني كلمتها، كأنما خشيت أن تفسد أي كلمة هذا السحر الذي عقدت به روحي.. ورنوت إلى عينيها صامتًا بينما الشمس تذوب في البحر هناك وأذوب أنا هنا في روح الوجود..

بل إن عينيك يا مها هما مستقر عالمي كله.. ويستوي حبك في العالم أسطورة من أبدع الأساطير..

(٣٩)

ونقول.. للشمس..

تعالي تعالي..

بعد سنة..

مش قبل سنة

دي ليلة حب حلوة..

بألف ليلة وليلة

لم يستمر لقاؤنا هذا إلا لنصف ساعة حتى لا يُقلق أهلَها غيابُها..

وعادت.. وعدت إلى القاهرة.. غير أن هذه الدقائق الثلاثين بقين في عمرنا كألف ليلة..

(٤٠)

بعد أسبوع من لقائي السابق برئيس القسم، جاءني اتصال من الصحيفة بأن أذهب غدًا لشئون العاملين لاستيفاء إجراءات تعييني.. وفي المساء عادت مها إلى القاهرة وتحدثنا في الهاتف.. فحازت ليلتي تلك كمال الهناء والرضا..

(٤١)

استلمت العمل، ووجدت منذ اليوم الأول دعمًا كبيرًا من رئيس القسم الأستاذ جمال الدين هلال. حرص الأستاذ على أن يجلس معي ساعة قبل البدء في العمل، فلخص لي المهام التي ستوكل إليَّ، ولفتني

إلى المحاذير الفنية والإدارية التي يجب عليَّ تجنبها، وحمسني للعمل وحذرني من الإهمال، ثم أوكل بي إلى أحد موظفيه لأبدأ العمل تحت إشرافه. كان العمل ممتعًا، خاصة أنه لا مجال كبير فيه للتنافس، فكان التعاون والمودة هما شعارنا في القسم على عكس باقي أقسام الصحيفة. تعلمت بسرعة وأُفدت من خبرات كل الزملاء، وبدأت أستغرق في العمل لساعات أطول من المطلوب، ولم يكن يجبرني على الذهاب إلا حرصي على استقبال تليفون مها اليومي في التاسعة مساءً. وبعد شهر ذهبت لأقبض مرتبي وأنا أشعر بزهو لا مزيد عليه، وامتلأت بالثقة حتى طلبت من مها تحديد موعد لمقابلة أهلها..

(٤٢)

تلقيت مكالمة سوداء من مها في موعدنا اليومي..

كانت تنتحب بشدة وهي تبلغني رفض أهلها زيارتي، بل ولفكرة الارتباط أصلًا. ثم نقلت لي ثورتهما العارمة حين حاولت التمسك برأيها ودعوتها للنقاش، وهزيمتها المنكرة أمامهما..

سقطت السماء فوقنا، وتصدعت الأرض، فرأيناها تبتلع جبال الأحلام التي شيدناها على مدى عام كامل..

تناهت الصدمة في مرارتها إلى أكبر مما تناهى إليه الأمل في حلاوته وإغرائه.. فصارت الدنيا لا تطاق..

(٤٣)

كانت مكالماتنا التالية متشحة بالحزن والخوف..

مليئة بالدموع من جانبها، وبالذهول والغيظ من جانبي. واتفقنا على أن أزورها في الجامعة ليتسنى لنا النقاش بشكل أكثر عمقًا..

استأذنت مديري وذهبت في الصباح إلى الجامعة. تلقيتها شاحبة، يائسة، منهارة. ومن المؤكد أنني كنت كذلك. لكن اللقاء أشعل نفوسنا على غير المتوقع، فسالت عيون الأمل من جديد، كما سالت عيناها بدموع هي مزيج من الحبور ومن الرجاء. وتملكني تصميم حاد أوجده اليأس والجنون..

(٤٤)

بعد ذهاب مها، عمدت إلى مكتب دكتور عبد العليم..

جرى الترحيب المعتاد، وعبَّر عن سروره بزيارتي، وسألني عن حال العمل، وأكد لي اغتباطه بثناء أستاذ جمال الدين عليَّ في مكالمة بينهما، وشعوره بأن هذا ثناء على الكلية وعلى مستوى أساتذتها، ثم قال:

ـ ولكن الحق يا آدم أنك أكثر طلاب دفعتك تميزًا، وإن لم تهتم بأن تكون من الأوائل.

وشكرته بصدق لما قدمه لي من دعم، وإن كنت في الحقيقة ذاهلًا عن الوجود بسبب من حزني. ووجدتني أملك الشجاعة الكافية فطرقت الموضوع بلا مقدمات. شرحت له رغبتي في الارتباط بمها، ورغبتها كذلك، ثم تعنّت أهلها، وأنبأته أنني مصمم على الزواج بمها ولن أتورع عن خوض أي معركة لازمة. وسألته النصح..

كان الرجل محرجًا كما بدا لي، وإن ارتسم الابتسام على وجهه العريض، ثم قال بمنتهى الصراحة:

- أنت من أعز طلابي كما تعلم، ولكن رشدي الصفتي هو صديق العمر، ومها ابنته الوحيدة فهي أغلى عنده من الدنيا، ولن أستطيع بأي حال أن أجبره ولو قليلًا على اتخاذ قرار لا يرتاح له.

وأطرق قليلًا في تفكر، ثم ابتسم فجأة كأنما فاجأه خاطر مضحك، وقال:

- ومها؟! إنها طفلة! يا ربي ما أسرع الأيام..

ثم أردف في حماس مفاجئ:

- توكل على الله يا آدم.. سأبذل ما بوسعي وليعنّي الله على هذه المهمة الشاقة.

(٤٥)

تملك مها الرعب منذ علمت بزيارتي لدكتور عبد العليم..

ولولا أدبها واحترامها لي لانفجرت فيّ، لكنها بكت مرة أخرى وقالت:

- ليتك لم تفعل يا آدم، ماذا سيقول؟! وكيف سيفكر بي؟!

اندهشت وقلت:

- لم أطلب منه أن يساعدني لكي أصاحبك! لقد أنبأته أننا نريد الزواج..

- لا أستطيع تصور ذلك..

ثم قالت:

- وسيبعث لبابا، ويفاتحه في الموضوع، فتثور ثورة بابا، كيف أواجه ذلك كله يا ربي؟!

لولا ثقتي بحب مها، لتصورت أنها لا تريد الارتباط بي فعلًا، وأنها تتلاعب بي أو تكذب عليّ.. ولكن وضح لي منذ ذلك الوقت

أن مها تخاف بصدق كما تحب بصدق، تغمرني بالحنان وتغمر أهلها بالطاعة، تستسلم لأحلامنا معًا كما تستسلم لأوامر والديها..

لكن مخاوف مها لم تقع كما حسبت أو كما تحسبت..

(٤٦)

زارها أبوها في غرفتها مساءً، وجلس قبالتها وهي ترتجف، لكن الرجل ضحك في حنان، ثم ضمها لحضنه، فأجهشت بالبكاء، ثم رفع وجهها، وقال:

- أنا موافق على..

ثم نظر نحوها بمكر وهو يضيق عينيه وقال:

- ما اسمه؟!

مسحت دموعها وهي ذاهلة وقد تضرج وجهها بالاحمرار، وقالت بصوت خنقه الحياء:

- آدم..

- حسنًا.. فليتفضل آدم بزيارتنا الخميس المقبل..

نقلت لي مها تلك المفاجأة عقب ثوانٍ من خروج أبيها من الغرفة، حكت كل التفاصيل - رغم قلة التفاصيل - عشر مرات بسبب سعادتها الطاغية وبسبب استعادتي لها..

(٤٧)

استعدت حماسي للعمل مرة أخرى، ولم ينغّص صفوي في تلك الأيام سوى البطء الذي صارت عليه الأيام..

(٤٨)

نغص صفوي أيضًا حزن مها الذي فاجأني في مكالمة اليوم التالي، إذ إنها فوجئت أن أمها لا تكلمها، وأنها في أشد حالات غضبها مما فعلنا. وبعد إلحاح منها، صاحت بها أمها في غياب الأب:

- تلتفّون عليَّ؟! لن يكون هذا الزواج وأنا على وجه الأرض.. خلّي المحروس يشرف، وبيننا وبينه الأصول.. وبالأصول!

كادت مها تنهار لولا أن أفضَتْ بحديثها إلى أبيها، فطمأنها، وطلب منها عدم استثارة أمها، وأن كل شيء سيكون على مايرام. وفي المساء نقلت لي كل ما حدث، ثم أعادت لي في خجل ما ذكرته من قبل عن سيطرة أمها وتفوقها، فاضطرب حماسي، لكني شجعتها حتى ذهب قلقها، أو هكذا صورت لي حتى تشجعني..

(٤٩)

في مساء الخميس، ذهبت وأختي مريم طبيبة النساء والولادة، وزوجها دكتور مصطفى طبيب الجلدية والأستاذ الجامعي، ومعنا دكتور عبد العليم، أستاذي العزيز، إلى بيت رشدي الصفتي..

كنت في الواقع أحترق في فرن متنقل يفوق حرارة الشمس.. وكانت دمائي دفقات من ماءٍ حارٍ مستصفٍ من عنف الجحيم.. وكان الأمل المبهج يلوح بعيدًا متماوجًا خلف ألسنة القلق المرتفعة..

ولدى ولوجي إلى شقتهم، تملكني شعور خاطف لم يستمر إلا لبضع ثوان، لكنه ترسخ في خيالي وإحساسي بقوة نقش فرعوني لا يزول، بل إنني على ثقة من أن هذا الشعور المذهل وراء كل دمعة تتفلت من عينيّ - إلى اليوم - كلما جرت ذكرى تلك الأيام في قلبي،

ووراء كل دعوة دعاني بها الحنين إليها فزرتها في أحلامي المعذبة..

لدى ولوجي للشقة، ويقيني بأنني وصلت أخيرًا إلى بيتها، غزاني سرور سماوي مقطر من أعذب أماني العمر، ورأيت طيف مها الملهم في كل الأركان، وشعرت ببرودة منعشة تلفني في ترحيب وسكينة، وسطعت أنفي رائحة بخور ذكية ميزت زمان مها تمامًا كالأغنيات، فملأتني خيالًا وأملًا، وتمدد ضوء كسول في سلام وسكينة على مقاعد غرفة الاستقبال في طريقنا نحو الصالون، فراودني شعور راسخ بأنني أخطر إلى الفردوس، وتهت في شعوري ذلك لبضع ثوانٍ حتى دخلنا غرفة الصالون، فبدأت أعود إلى حالتي السابقة..

(٥٠)

كان ترحيب دكتور رشدي رائعًا ومشجعًا حتى أنساني قلقي.. وآنستُ إليه بل وأحببتُه بصدق..

وبعد حوار ودود، تركني الرجل أعالج مخاوفي، واندمجَ في حوارات كثيرة مع دكتور عبد العليم ومع أختي وزوجها. وارتفعت ضحكاتهم بين الحين والحين تهدهدني وتطمئنني شيئًا فشيئًا. وجعلت أرنو إليه بإمعان وأنا تائه في شعوري بأنه أبو محبوبتي الغالية، وأنه أصل سعادتي بشكل ما.. وجعلت أفتش في ملامحه، فوجدت له سمرة مها وعينيها اللامعتين وعذوبتهما إذا تبسمت. فتوكدت لي طيبته. واستنمت إليّ الطمأنينة والأحلام.. حتى دخلت نجوى الفقي..

(٥١)

نسخة أصلية من مها..

لكنها أكثر طولًا، مع بشرة بيضاء مصقولة، ونظرة حادة جامدة لم تفارق كوابيسي عمرًا طويلًا..

لا أدري هل انقبض قلبي بسبب من نظرتها، أم بسبب حكايات مها؟! ولكن في النهاية، انقبض قلبي، وسكن نشيد الأمل وتشنجت أنغام الطمأنينة.. طغى عليَّ شعور مؤذ بأنني في لحظة كشف للغيب أطّلع على مصيري المؤلم.. وأنني بحضرة الشخص الذي ستكون على يديه نهايتي بعد أعوام وأعوام..

ألقت المرأة السلام ثم خطت نحو أختي فصافحتها في حياد، ثم عادت فجلست بجوار زوجها. فرضت المرأة حضورها في لحظات، حتى انقطعت الأحاديث وعم الصمت العميق. ورفعت رأسي كالمستغيث نحو دكتور رشدي، فوجدته يستأذن للحظات ثم يخرج من الغرفة، فانتقلتُ بعيني إلى أختي فوجدتها ترمق المرأة بتركيز نسائي عميق، ونظرت نحو السيدة فإذا عيناها في عمق عينيّ حتى جفلت، وهممت بأن أطامن رأسي هربًا. ولكني قلت بجرأة:

ـ أهلًا يا طنط..

للحظات لم يبد على ملامحها الجامدة أو نظرتها الحارقة أنها سمعتني، حتى هممت بتكرار قولي. لكنها ابتسمت في تصنع ثم قالت:

ـ أهلًا وسهلًا..

ثم التفتت نحو مريم، وقالت:

ـ حضرتك دكتورة مريم؟!

فابتسمت أختي لأول مرة منذ دخول السيدة، وأومأت برأسها.

فعادت السيدة تقول:

ـ وما تخصصك؟!

ـ أنا طبيبة نساء وتوليد بمستشفى المطرية التعليمي، وفي المساء أعمل بعيادتي.

ـ كان الله في عونك. دراسة الطب صعبة جدًا.. لابد أنك بذلت مجهودًا كبيرًا حتى تحققي نجاحًا كهذا.

ـ الحمد لله. كانت فعلًا أيامًا متعبة.

ـ لابد وأنك احتجتِ لتركيز ضخم.

ـ الحقيقة لقد انفصلت عن العالم حتى أتممت دراستي ثم سنواتي الأولى في الممارسة!

رفعت المرأة حاجبيها في إعجاب، حتى توهمت أنها تخلت عن عنفها، وهممت أن أزفر في ارتياح، غير أن المرأة الذكية صوبت ضربة مفاجأة، فقالت:

ـ تُرى لو أنك ارتبطت بزواج أو حتى خطبة في أيام الكلية، هل كنت ستنهين دراستك بذات النجاح؟!

وجمنا جميعًا من المفاجأة، وبعد لحظة همت أختي بالرد، لكن السيدة الماكرة قامت فجأة وهي تقول:

ـ أنتم نورتونا.. عن إذنكم.

وخرجت. نظرتُ إلى مريم فوجدتها تبتسم في غيظ وإعجاب بدهاء السيدة. وضحك دكتور عبد العليم حتى التفتُ نحوه كالمستغيث، فربت ظهري، وقال بصوت خفيض:

ـ أم حسبت الزواج زفة وفرحا ورقصا فقط؟! كيف سيكتمل

نصف دينك إذن؟! هنيئًا لك دينك كله ومعه الجنة تنالها بصبرك على حماتك هذه!

ثم قهقه من جديد، فضحكنا جميعًا.. غير أن القلق أنشب أظافره في صدري، فعلمت أنني استهنت بالعقبات التي أنا مقبل عليها..

وأقبلت مها.. ودخلت الغرفة تخطر في هالة من أحلام النعيم الخيالي..

(٥٢)

عدت يومها عقب الزيارة مع أختي وزوجها إلى منزلهما. في الطريق أعدنا أحداث الجلسة من جديد كأننا نراجعها، وفي البيت وعقب العشاء، قالت مريم بصراحة لأول مرة:

ـ الموضوع صعب يا آدم..

زمّ زوجها شفتيه مؤكدًا مخاوفها وهو ينصرف للنوم، فزفرتُ في تسليم وأنا أستحثها بنظرة راجية أن تصرح بكل مخاوفها، فقالت وهي تطرقع أصابعها:

ـ حماتك.. ستحيل حياتك جحيمًا أبديًا.. إنها داهية ومؤذية كعقرب.. وهي أيضًا تخاف على ابنتها ولها نظريتها الخاصة التي لن تغيرها فيما يبدو تحت أي ظرف.. أرأيت إصرارها على تأجيل الفاتحة رغم ترحيب البنت وأبيها؟! ربنا يستر..

ـ وماذا أفعل؟!

استغرقت مريم في تأمل الثريا الفخمة المعلقة بغرفة المعيشة، ثم قالت بهدوء:

ـ إنه وضع شائك حقًا..

ثم ابتسمت وهي ترنو إليّ، وغمزت وهي تقول:

ـ ولكن البنت رائعة..

نسيت مخاوفي دفعة واحدة، وضحكت وأنا أهرول فأجلس بجوارها متسائلًا:

ـ حقًا أعجبتك؟!

ـ قمر ما شاء الله.. ولسانها سكر.. وأبوها كذلك..

ثم غمزت ثانية وهي تقرص فخذي قائلة:

ـ وهي تحبك..

قهقهت في سعادة طاغية وغصت في خيالاتي..

وأتاني صوت مريم وهي تهمس:

ـ لكن حماتك عقربة..

(٥٣)

ليلة..

وهانحلم كل ليلة..

ولا ألف وألف ليلة

إنتي فرحي اللي عاش يا عنيا..

وإنتي بُكره اللي غيّر فيا..

على الرغم من القلق الذي مزق أيامنا في انتظار رد أسرتها.. حلقنا بالأمل ـ رفيقنا الوفي ـ بلا أي حساب لمأزق أو ألم أو انتظار لنهاية قاصمة..

(٥٤)

اربدت السماء من جديد..

وأوشكت العاصفة أن تجتاح كل شيء، وتصلب العناد بهراوة سامة يتهيأ أن ينتصر للعدم، وأن يسود منطق السيطرة البغيض بلا أي حساب لنور العشق الذي احتل القلوب حتىٰ صار نارًا..

اتضح أن دكتور رشدىٰ ليس رقمًا في المعادلة علىٰ الإطلاق، غير أنه أمّدها بالعزم اللازم لتتمسك بالأمل، فتقبض علىٰ جمر وشوك..

(٥٥)

تدخل دكتور عبد العليم في الوقت المناسب، وأجرىٰ مفاوضات ناجحة، استخدم في بعض جولاتها أختي مريم..

كانت نجوىٰ الفقي تستقوي بوضعها كأم، وبسلطانها كامرأة قوية، فجعلت تنهال بـ «نبّوت» سيطرتها بلا حاكم ولا نظام. فاعترضتُ أولًا علىٰ ارتباط ابنتها في أثناء الدراسة، فأثنىٰ دكتور عبد العليم عليَّ كرجل واعٍ وشاب متفتح، وفوق ذلك كطالبٍ متفوق لن يعيق نجاحها بل وقد يمنحها تفوقًا، وقال:

ـ هل يريحك أن تقابلي رئيسه في العمل ليخبرك أي مستقبل باهر ينتظر هذا الولد؟!

ثم سألت عن الراتب، فلما عرفته، لوت «بوزها» كأنها علىٰ وشك الانتصار، فقالت مريم:

ـ هذا راتب شاب في مقتبل حياته، ولن يستمر طوال عمره بهذا الراتب.

لكن المرأة التي لا تعترف بالشعارات قالت:

ـ وهل ستنتظرها «طوال عمره» حتىٰ تتعدل أحواله ويتمكن من الزواج بها؟!

فقالت مريم في حرارة وعناد:

ـ ليس لي في الدنيا غير آدم.. وسأتكفل بكل ما ينقصه أو يعجز عنه..

فانتقلت المرأة إلىٰ هدف جديد وقالت:

ـ و هل ستعاونينه أيضًا علىٰ شراء شقة؟!

ـ أظن أن آدم ينتوي أن يتزوج بشقة أهله في المطرية، وأظن..

صرخت المرأة وهي تهتف:

ـ مطرية؟!

وجعلت تقلب عينيها في فزع بين الجالسين وهي تؤكد:

ـ علىٰ جثتي! لن تتزوج بها بالمطرية إلا علىٰ جثتي..

ورفضت المرأة أي مناقشة بالموضوع، ورفضت بشكل حاد أن تعتبر شقة المطرية حلًا مبدئيًا يمكن تغييره لاحقًا..

وحمي الوطيس وانعقدت جولات جديدة. كان الجميع وقتها يخفون عني وعن مها ما يدور بتلك الجلسات، حتىٰ تم الاتفاق، وهاتفتني أختي في العمل وطلبت مني أن أزورها مساءً في بيتها في مصر الجديدة..

(٥٦)

أنبأتنىٰ أختي بملخص اللقاءات وهي تخفي امتعاضها ورغبتها في عدم استكمال هذا المشروع بالعند في حماتي..

خطبة في نهاية هذا العام الدراسي، ولا مانع من قراءة الفاتحة بعد أيام. لا خطوة جديدة ولا عقد قران قبل نهاية الدراسة. شقة جديدة في منطقة معقولة تراها نجوى الفقي قبل توقيع العقد. تجهيز الشقة سيكون بالمناصفة بيني وبين أهل مها. لا مانع خلال هذه الفترة من زيارة أسبوعية لبيتهم في الجُمَع وفي الأعياد..

سمعت الاتفاق وأنا تائه، وانتبهت حين قالت مريم بأنها ستدعمني بكل ما أحتاج إليه من مساعدات. هتفت:

ـ لن يكون ذلك أبدًا.. لن أدعك تنفقين مليمًا على زواجي..

فاغرورقت عينا مريم وهي تقول:

ـ ليس لي في الدنيا سواك.. فهل تبخل عليَّ بهذا الواجب؟!

ـ حسبك ما قدمت في أثناء دراستي.

(٥٧)

جاءني صوت مها قلقًا وهي تسأل:

ـ لم أسمع رأيك في الاتفاق.

كبحت بروق غضبي عن الاشتعال، وفضلت أن تشتعل بروحي على أن أكدر بال معشوقتي الصغيرة..

وانتهت المكالمة وهي تغفو على نمارق مخملية في سماء صافية خالية من البروق والرعود..

(٥٨)

بعد قليل، بدأت هواجسي تهدأ، وقلت في ثقة: رزقنا على من لن يخيّب ظننا.. ثم قلت وأنا أستحضر روح مها السابحة في خيالي: هذا

والله أقل بكثير مما تستحق لؤلؤتي السمراء الجميلة..

وقبل أن أنام، طلبتني مها، وجرى حوار طويل لا أذكر منه إلا غنائي في نهايته:

يا ضحكة من ننى العيون متمكنة..
كل المطارح ملكنا..

وأنبأني حدسي أنها بكت، ثم قالت بصوت مختنق:

ـ أحبك.

(٥٩)

قرأنا الفاتحة فملكت بيدي مفاتح نصف الكون ونصف التاريخ ونصف المستقبل..

(٦٠)

في الجمعة التالية..

ذهبت للزيارة ومعي طبق حلويات فاخر كما يليق بعريس يزور أهل عروسه..

فتحت مها الباب، وفي صحبتها زينة الدنيا وبهجتها تامة بغير نقصان. افتر ثغرها عن الابتسامة العذبة وسط هالة من الحياء الوردي، ولمعت نظرتها الشيطانية المنتمية إلى طفلة في غاية السرور. سارت أمامي إلى الصالون، وتبعتها بعينين نصف مغمضتين، وأنا أستنشق سادرًا عرف البخور المذهل الذي يسحبني إلى الفردوس للمرة الثانية..

لدى جلوسنا تبادلنا نظرة مترعة بالحبور ذهبت إلى عمق أعماق أرواحنا، ثم حلقت إلى السماء فتاهت في سرور وفي حمد وفي دعاء..

(٦١)

خرجت مها وجاءني عمي رشدي الصفتي مرحبًا، فاكتمل بحضوره سروري، وعددته أبي بكل معنى الكلمة، بل وارتحت لذلك الشعور وتمنيت أن أجد عند طنط نجوى الفقي ما فاتني من حنان أمي. قمت فحييته بقلبي قبل يدي، واحتضنني الرجل بحنان وقال:

ـ نورتنا يا آدم..

شكرته وأنا أعود لمجلسي. وسألني عن عملي وأحواله، وناقشني في أمور كثيرة فاتضحت لي ثقافته الواسعة ولباقته وحزمه واعتداده برأيه، وأدركت أنه في عمله كامل السيطرة على عكس ما هو في بيته..

ودخلت مها وهي تحمل صينية عليها أكواب من القرفة باللبن، فاستأذن الرجل وانصرف، ثم خرجتْ مها وعادت تحمل كتبًا لنبدأ الدرس كما اتفقنا..

(٦٢)

في استراحة بين أشواط المذاكرة، قامت مها فأحضرت عودًا، وتلقت نظرتي المندهشة وهي تضحك في خيلاء، ثم جلست تصلح أوتاره، وسألتني:

ـ اختر..

فقلت بحماس:

ـ «أنا باعشقك»..

فهزّت رأسها رافضة وهي تشير للباب من طرف خفي وقالت لي همس:

ـ لن أستطيع..

فضحكت من حيائها، وقلت:

ـ إذن فالاختيار لك..

فأغمضت عينيها برهة، ثم داعبت الأوتار، وشرعت تغني:

كلموني تاني عنك..

فكروني..

(٦٣)

لم أكن أعلم وأنا أذوب في أنفاس العشق المفعم بالأنغام والصوت والبخور، بأنني ذاهب بلا رجعة إلى جحيم سيعذبني أبد الدهر..

(٦٤)

نجحت مها وانتقلت لعامها الثالث بالجامعة..

ونجحت أنا أيضًا في عملي إلى الحد الذي جعلني، على حداثة سني، أحد أعمدة القسم في الصحيفة. لكن المرتب لم ينجح في أن يدفعنا إلى أي تقدم فارق، فزيادته كانت ضئيلة إلى حد يبعث على القلق. ومضت السعادة تغرق حينًا وتطفو أحيانًا، وإن استمر الحب ينفث ناره المحفزة بلا توقف، فصارت الحياة مقبولة إلى حد كبير رغم كل شيء..

وجاءت طنط نجوىٰ ورحبت بي وكانت نادرًا ما تفعل، وباختفاء مها وأبيها المفاجئ، عرفت أن لدىٰ المرأة ما تقوله. وبلا مقدمات قالت في صراحة:

ـ أمامنا أقل من عام ونصف علىٰ تخرج مها..

لزمت الصمت وأنا تائه في مخاوفي وقلة حيلتي. فقالت:

ـ هل هناك ما تفكر فيه أم أنك تفضل أن تضعنا أمام الأمر الواقع؟! أنا شخصيًا أفضل المصارحة.. فربما استطعنا المساعدة والبحث عن حلول..

تنحنحتُ ثم قلت:

ـ الحق أنني مازلت أبحث و..

فقاطعتني في صرامة:

ـ البحث ليس له أهمية. الفلوس.. كم معك الآن؟!

ـ ليس معي الكثير ولكن..

ـ يا آدم.. مازال هناك وقت.. فكر جيدًا ودبر أمورك.. ها أنا أحذرك في وقت مناسب.. ربنا معك..

(٦٥)

بلاش نتعب..

تعالي نحب ونسلم بأمر الحب..

(٦٦)

صارحت أستاذ جمال الدين، رئيس القسم، بكل متاعبي، فأطرق الرجل ثم قال:

ـ ليتني أستطيع أن أفعل شيئًا.

وانتهىٰ الحوار..

وجعلت أدفع بالدعاء وبالبكاء وبالفكر الممزق حائطًا صلبًا أحاول بكل قوة أن يهشم عظامي..

(٦٧)

جاءتني نجوىٰ الفقي في شقتي مبشرة، تجاوزَتْ دهشتي لزيارتها المفاجئة، وقالت:

ـ هاك حل جميع مشاكلك..

حملقت فيها بسرور، وكُلي شوق لمعرفة الحل. فسارت نحو غرفة نومي وفتحت بابها. وبغتة اندفع أسد ضخم جائع، لم يلبث أن قفز نحوي، فاحتميت بها وأنا أتخبط في فزعي، فأشارت بثقة وبرود إلىٰ باب الشقة المفتوح، ثم غرست نظرتها الحادة في قلبيٰ المرتجف وقالت في حسم:

ـ اهرب ولن يتبعك..

استيقظت في فزع وأنا أرتعد..

وظلت عينا نجوىٰ الفقي تؤرقاني في كل مكان وزمان..

(٦٨)

في أواخر يناير، انفرد بي أستاذ جمال الدين، وقال:

ـ عندي حل لمشكلتك، هو في الواقع حل براجماتي لا أفضله شخصيًا، لكنه مناسب لحالتك. سأعرضه عليك وأترك لك حرية القرار..

ـ خيرا..

ـ وجدت لك ـ بالتوصية ـ مكانًا في قسم الإعلانات بالجريدة، سيبعدك هذا بالطبع عن مجال عملك ودراستك، لكنه سيقربك سريعًا إلى عروسك. فكر بتأن، ومتى اتخذت قرارك بلغني، لأُنه الموضوع مع الإدارة.

نقلتُ الموضوع إلى مها وأهلها وإلى أختي وزوجها. مزقتنا جميعًا الحيرة، وقضينا أيامًا مرتبكة نحاول الاطمئنان إلى رأي أو البحث عن حل بديل يضمن لي ألا أترك عملي الواعد في مقابل الربح السريع الذي كان في البداية يساوي ثلاثة أمثال مرتبي الحالي قابلة للزيادة، حتى إن مريم عرضت عليَّ جميع مدخراتها حتى لا أقع فريسة للابتزاز، ولكني رفضت بحدة. وحدها نجوى الفقي لم تتردد وقالت وهي تضعني في وجه الواقع والزمن المندفع كالقطار:

ـ ترى هل يستطيع مرتبك الجديد أن يعوض الأيام التي ضيعتها من المهلة؟!

(٦٩)

شاء الله أن أحب عملي الجديد، وأن أنجح مرة ثانية فأجذب الأنظار.. والأحقاد أيضًا..

(٧٠)

مرة أخرى استطعتُ أن أتسامى في صفاء، فأذوب من جديد في خيوط البخور المتماوجة وعطره الأخاذ وأنا أمسح بفؤادي وعينيّ شعر مها الناعم، بينما تدندن وهي مغمضة العينين:

بعد حين يبدل الحب دارا
والعصافير تهجر الأوكارا
وديار.. كانت قديمًا ديارا
سترانا كما نراها قفارا
فتعالى..
أحبك الآن..
أكثر.

(٧١)

بعد عام كامل، وفي أواخر يناير، اصطحبتُ مها وأمها، ليعاينا شقة رأيتها مناسبة. حازت الشقة رضا طنط نجوى لحسن الحظ، لكنها أبدتْ تحذيرًا على شكل ملحوظة عابرة، فقالت:

ـ سيتطلب تشطيب الشقة وفرشها مبلغًا يساوي ثمنها..

(٧٢)

وجدتني في حديقة واسعة أتبادل ضحكًا صاخبًا مع نجوى الفقي، وفتحت حقيبة يدها لتخرج منديلًا تمسح به دموعها التي تساقطت من الضحك، فاستطعت أن ألمح الأسد بداخل حقيبتها! لكني استنمت إلى سرور الجلسة غير العادية وأنا أطرد هواجسي. لكن، لم تمض دقيقة حتى هجم الأسد فجأة، ووجدتني في صالة بيتنا محاصرًا في فزع، وأشارت نجوى وهي تغرز نظرتها الحادة في قلبي إلى باب الشقة مرة أخرى..

(٧٣)

تخرجت مها وأنهت دراستها الجامعية..

وأقمتُ احتفالًا كبيرًا في بيتها دعوت فيه صديقاتها وعلىٰ رأسهن ميسون أقرب صديقاتها، وأختي وزوجها ودكتور عبد العليم. وشملتني نجوىٰ الفقي بالرضا في ذلك اليوم كإجراء استثنائي..

(٧٤)

تنقلّنا في الحياة من سعادة إلىٰ سعادة..

يزداد ارتباطنا مع الأيام نضوجًا وعمقًا، ويزداد عشقنا كل يوم حرارة ويقينًا، وتزداد العلاقات مع عمي رشدي احترامًا ومودة صادقة..

وتستمر علاقتي مع طنط نجوىٰ فوق حد الخنجر، لا سلام ولا حرب..

كان القلق من استمرار تدفق المال اللازم لتشطيب الشقة، وإلحاح نجوىٰ الفقي الذي لا يتوقف، وكذا شقاء العمل وضغوطه غير العادية، وبداية ظهور مشاكل جديدة سببها سفور العداء بيني وبين بعض الأعمدة القديمة بالقسم بسبب تألقي، كل ذلك كان يذوب حينما تستقبلني برودة صالة منزل مها في طريقي للصالون، وحين تفعم صدري رائحة البخور، ثم تهدهدني الأوتار، وأنا أسكر بمشهد شفتي مها المكتنزتين وهما تصدحان بأنغام فريدة..

أنت يا جنة حبي واشتياقي وجنوني
أنت يا قبلة روحي وانطلاقي وشجوني
أغدًا تشرق أضواؤك في ليل عيوني

آه من فرحة أحلامي..
ومن خوف ظنوني..

(٧٥)

انتهىٰ تشطيب الشقة الأولىٰ..

وبدأنا اختيار ألوان الحوائط ونوعيات الأثاث. كانت طنط نجوىٰ تقبل مرحة حين أذهب إليهم بالكتالوجات لننتقي قطعة أو غرفة لنبدأ تنفيذها. وكانت لا تكتفي بالمشاركة، بل تتدخل وبعنف أحيانًا، وكنت أتعامىٰ عن ذلك من أجل أن يسود الهناء علاقتنا، وأحتفظ بمها للأبد..

أما مها فكانت لا تتدخل بأكثر من مشاركتنا الجلسة! فهي تشاركنا تقليب الكتالوجات و «الفرجة»، ولا تنطق قبل أن تسمع رأي أمها..

حاولت مرارًا أن أستحثّها لإبداء رأيها أو إعجابها بأي شيء، لكنها كانت تروغ، وعلىٰ الفور، تتدخل طنط نجوىٰ لتملأ الفراغ، وكأنها ترحب بانسحاب ابنتها. ملأني ذلك حنقًا مرات كثيرة، وكلمتها بصراحة فقالت:

ـ ماما تفهم في هذه الأمور وغيرها أفضل مني مائة مرة.

ـ ولكنه بيتك ويجب عليك اختيار ما يعجبك.

فتقول في وله عاشق:

ـ لقد اخترت أهم ما في هذا البيت..

فأسكِنُ حنقي وأُسكِتُ مخاوفي وقلقي..

(٧٦)

نجحت نجوىٰ الفقي في إقناع زوجها وابنتها بأنها الأكثر علمًا وحصافة وتسديدًا، فاقتنعا بذلك وسلّماها زمام كل ما يخصّ البيت وإدارته، رغم أنني كنت أرىٰ أنهما يتفوقان عليها ذكاءً وحصافة وعلمًا في كل ما هو خارج المنزل، لكنهما رفضا أن يجرّبا آراءهما أو مهارتهما داخل المنزل..

(٧٧)

وقع حادثان لم يمرا بالحسبان..

لكنهما تسببا في تغيير كل الحسابات في أقل من ثلاثة أشهر..

ذات صباح، جاءتني مكالمة من مها علىٰ الموبايل وأنا في طريقي للجريدة، قالت بصوت ملتاع:

ـ لقد أغمي علىٰ ماما، وجاء الطبيب وطلب نقلها للمستشفىٰ، ونحن في انتظار الإسعاف.

طرت إلىٰ المستشفىٰ لأجد مها في حالة انهيار، بينما كان عمي رشدي شاحبًا كالموتىٰ. سألتهم عن الحالة، فقال:

ـ يقول الأطباء إن قلبها متعب للغاية، ويجب أن تحتجز بالعناية المركزة حتىٰ تسمح حالتها بإجراء قسطرة.

مزّقني قلقهما وملأني كمدًا، حتىٰ تصورت أنني قد أصفح عن نجوىٰ الفقي، وأتحمل غطرستها وحماقاتها في مقابل ألا تتعذب مها أو يشقىٰ والدها..

(٧٨)

مرت الأيام العصيبة..

وتعافت طنط نجوىٰ إلىٰ حد ما، وإن تغيّر نظام حياتها تمامًا.

وحين قررنا أن نبدأ تجهيز الشقة، كان ذلك يستلزم أن أخرج مع مها يوميًا. ومع مرض طنط نجوىٰ لم يكن ممكنًا أن تصاحبنا كثيرًا، ولذلك تم طرح فكرة عقد القران كحل مناسب، وتم القبول بلا عوائق كمعجزة..

(٧٩)

عُقد قراني علىٰ محبوبتي السمراء..

ولكني لم أمنح نفسي ـ رغم ذلك ـ حقًا، أكثر من احتضان يديّ مها بين راحتي..

كان في أعماقي شيء قدسي يخص مها.. فأجّلت أي شعور أو رغبة حتىٰ يضمنا عشنا الهانئ.. وأظن أيضًا أن احترامي لعمي رشدي الصفتي وثقته فيّ، كانا أحد الأسباب..

(٨٠)

وقع الحادث الثاني كعاصفة سوداء هبّت علىٰ غير انتظار..

مشكلة عابرة في العمل، أو هكذا تصوّرتها بسبب من حسن ظني، تصاعدت وتفاقمت بشكل غير عادي لأفاجأ ذات صباح بأنني محال للتحقيق. وعبثًا ذهبتُ كل محاولاتي للاعتراض أو للحل. وخضعت للتحقيق لأكتشف بأن مؤامرة عميقة قد نُسِجَت للإيقاع بي..

(٨١)

عدت إلى البيت وأنا في شبه غيبوبة..

ورحت في نوم عميق، حتى استيقظت على مكالمة من مها. كلمتها بشكل طبيعي وأنا أحاذر أن أنهار فتعرف أي شيء قبل أن أفكر في حل. وبعد دقائق من مكالمة مها، تلقيت اتصالًا من أستاذ جمال الدين، واساني الرجل وعزاني وقال في صدق:

ـ يعرف الجميع أنك بريء، لكن المحقق لا ينظر لغير الورق والأدلة، كما أن حفظ التحقيق سيجعل سمعتك مصونة من أي تجريح، حتى وإن صار من الصعب أن تستكمل عملك ونجاحك في الإدارة.

كنت أسمع وأنا ذاهل عن كل شيء، وقال الرجل:

ـ هل توافق أن تعود للعمل معي؟!

لا أدري هل كان مبعث قوله هو رغبة حقيقية أو أنها كلمة مواساة واجبة، لكني قلت بحزم:

ـ لن أضع قدمي في الصحيفة بعد اليوم..

ـ هل عندك بديل؟!

ـ لا..

ـ وماذا ستفعل وأنت تتهيأ للزواج خلال أشهر؟!

ـ لا أدري!

(٨٢)

بعد أسبوع لم أتحمّل ثقل الحمل على عاتقي..

وكنت خلال الأسبوع أتهرب من التزاماتي ومقابلاتي مع مها

بحجة ضغط العمل.. كنت أخشى أن أراها.. بل كنت مشفقًا على فرحتها.. ومشفقًا أكثر أن أكون السبب في صدمتها أو همّها..

ولكن بعد أسبوع، ذهبت لعمي رشدي في مكتبه بالجامعة، أنشد راحة لضميري المثقل بالسر. تلقاني الرجل منزعجًا من حضوري المفاجئ، وإن حاول الترحيب بي. نقلت إليه الكارثة بلا تمهيد. فوجم لدقائق، وهو يستعيدني ويستفسر ويقلّب الأمور في رأسه، ثم قال:

ـ قدّر الله وما شاء فعل.

ثم أردف في اهتمام:

ـ لا داعي لأن تخبر مها، فعلمها لن يقدم ولن يؤخر، كما أني أخشى أن تلحظ نجوى أي شيء وأنت تعلم نصائح الأطباء بخصوص قلبها.

أحنيت رأسي وقد أراحني هذا الحل إلى حد ما..

(٨٣)

شهران كاملان وأنا في دوامة البحث عن عمل..

كنت أحترق بحثًا عن حلّ للأزمة التي ستنفجر عاجلًا أو آجلًا، حين تعلم نجوى الفقي بالحقيقة أو حين تنفد مدخراتي..

ولولا إيماني بأن الله سيدبّر أمري، لما تحمّلت أن أنظر في عينيّ مها..

أحسست فجأة بأنني ضئيل.. وبأنني غير جدير بآمالها العريضة ولا أحلامها السماوية.. وراودني إحساس جديد بأنني أسيطر عليها الآن بقوة الحب فقط، بينما أنا في الواقع لا أليق بها، ولن أستطيع أن أضمن لها حياة كريمة.. فشعرت بأنني خائن نذل أيضًا..

(٨٤)

شهران كاملان.. هاجمني خلالها الأسد الهائج خمس مرات..
وطعنتني نظرة نجوى الفقي خمس مرات، وهي ترشدني إلى باب الشقة لأهرب..

(٨٥)

تلقيت عصر يوم ما اتصالًا من رئيسي السابق بإدارة الإعلانات..
كنت في غاية العجب وأنا أجيب اتصاله المفاجئ. طلب مني مقابلته مساءً في منزله لأمر مهم. كان صوته مرحّبًا كالعادة، فشعرت أن الله قد استجاب دعواتي الحارة، وإن تحيّرت مما ستخبئه الزيارة..

(٨٦)

لشيء ما يشبه القضاء النافذ، وافقت على الفور على عرض رئيسي السابق الذي حمله إليّ صديقه «محمود العزيزي» الذي التقيته يومها للمرة الأولى..
ساعتها لم أدر أنني أسلّم نفسي لقدر جديد.. ولعمر يبدأ الآن..
ولأيام لن تحتفظ من الماضي إلا بملامح باهتة وندوب عميقة..

مها العزيزي

سيدة التناقضات.. مها العزيزي..
ليس عجيبًا أن تكوني أحلى أقداري
وأكثرها مرارة..

(١)

مقدورك أن تمضي أبدًا..
في بحر الحب بغير قلوع
وتحبّ ملايين المرات..
وترجع كالملك المخلوع

(٢)

عام كامل..

تكرّر توفيقي ونجاحي في الكويت كما حدث في القاهرة..

وقرّبني أستاذ «..مود العزيزي» ـ مديري المباشر ـ إليه، حتى صرت أختلف إليه في البيت في أثناء راحة الظهيرة، بين دوامي الصباح والمساء..

شخص لطيف المعشر، ضحوك، لا يحمل للدنيا همًا ولا لأحدٍ ضغينة. قدّم لي خدمات ونصائح في أول عهدي بالغربة بشكل أثار دهشتي وتساؤلي عن سر اهتمامه البالغ بي..

ولم أعرف عن حياة الرجل الشخصية سوى أنه يعيش مع زوجته، السيدة الفاضلة التي تلقاني بترحاب حار طوال فترة زيارتي على الغداء، والتي قد تتكرر ثلاث مرات أسبوعيًا. وأعرف أيضًا أن له ثلاث بنات يُقمن بالقاهرة، أصغرهن لم تتزوج بعد، وتعد الماجستير في إدارة الأعمال..

(٣)

أما فيما يخص روحي..

فكنت في الواقع أحيا بنصف روح ونصف أمل.. وبقلبٍ قد لقي حتفه..

لم أعد ألتفت لشيء خارج نطاق عملي، ورغبت في الانغماس في العمل والانشغال به حتى الانتحار..

كانت معجزتي الحقيقية، بعد قراري الخارق بالسفر إلى الكويت وما خلّفه من كوارث ماحقة، أنني استطعت التغلّب على ذكرياتي المذهلة وعبق البخور والأنغام والسحر الأسمر وصور الماضي المطبوعة على جدران القلب والروح، كما داويت بالصبر وبالتسلي جرحي الذي كان ينزف دمًا ودموعًا..

واستغرقت في العمل حتى نسيت كل ما حدث بمصر خلال السنوات الأربعة الأخيرة..

(٤)

وفي الصحيفة، كانت زميلات من مختلف الجنسيات يمنحن

قدرتي على النسيان عزمًا ويسرًا، فكنت كمن يضيّع باللهو وقته، حتى لا يصطدم بجدار الزمن الأصم الجامد، أو كمن يتشاغل بالنظر إلى الأشياء من حوله حتى لا ينتبه إلى ألم يسيل ببطء في داخله..

نجح ذلك فعلًا في مداواتي من جراحي النازفة، وفي نجاتي من براثن الذكريات البارزة كالنصال الحادة.. ولكن لم يفلح فيما هو أهم..

فلقد حاولت الاستغراق في علاقة جديدة، علّي أسترد قلبي الميت، لكني كنت أفقده أكثر كلما أوغلت في طلبه. وحاولت الغوص - ولو بغير قلب - في قصص يعد ظاهرها بالنجاح والكمال حتى الزواج، ولكن سرعان ما كنت أجدني ملقىً على الشاطئ مرة أخرى!..

حاولت بإخلاص الاستغراق في كل من هذه العلاقات، لكني لم أستطع التغلب على يقيني الداخلي بأنها لن تصل بي إلى النهاية السعيدة..

فبذرة الإعجاب لن تنبت إلا إعجابا مهما أوليتها من رعاية وصدق وإخلاص، ولن تتحول حبًا مهما أردت..

فالحب يكون حبًا منذ اللحظة الأولى، ويستمر حبًا حتى النهاية..

لن يصير الإعجاب حبًا.. كما لن يتحوّل الحب إلى صداقة..

عام كامل وأنا أحاول بلا يأس من جانبي.. أو من جانبهن..

(٥)

اتصلت بأستاذ محمود العزيزي لأطمئن عليه، وأستفسر عن سبب غيابه اليوم عن العمل. طمأنني الرجل وأخبرني أنه كان في مشوار سيخبرني به عندما أذهب إليهم عصرًا..

ذهبت إليه، فوجدته أكثر مرحًا وحيوية، وأخبرني أنه ذهب صباح اليوم إلى المطار ليستقبل ابنته القادمة من مصر، وأخذ يسرد تفاصيل كثيرة ومتشعبة تسبّبت في شرودي كالعادة. أخذت أهزّ رأسي ليتوهم أنني أتابعه، بينما غرقت في تفاصيل خاصة بالعمل، وجعل ذهني بالكاد يلتقط صوته. وبغتة قام الرجل فوقف على باب الغرفة وناداى بصوت مرتفع:

- يا مها..

مادت بي الأرض لدى سماعي الاسم الموجع.. مها..

هاج القلب في صدري، حتى أوشك أن يقفز، وثارت جميع جراحي وذكرياتي وصور الماضي في لحظة كالبركان، فإذا جميعها ماثلة أمامي، فوقفت من فوري في فزع..

(٦)

أسخف الحيل التي تمارسها نفوسنا، أن توهمنا أننا قد شفينا من جراحنا، وأننا قد تغلبنا على ذكرياتنا، وأننا قد نجحنا في النسيان، بينما كل ما فعلته، أنها حجبت الأشخاص والأحداث والجراح بعيدًا عن أعيننا، وراحت تغرسها تحت قشرة القلب، فإذا هبت نسائم رقيقة، أو صدحت أنغام شجية، أو انبعث الحزن الكامن فينا، وجدنا أنفسنا وجهًا لوجه مع الخبيئة التي لا تموت ولا تفنى..

(٧)

عام كامل وأنا أتيه بأوهام البطولة والانتصار على الذكريات، ولكن لحظة واحدة فقط، فصلت بين نداء محمود العزيزي لابنته

واكتشافي حقيقة وضعي المزري، وحقيقة انتصاراتي الزائفة..

عاد الرجل لمجلسه، ثم نظر نحوي وهو يقول:

- مالك؟ اجلس..

جلستُ. لكن حتى حيائي من الرجل، لم يستطع أن يصرف بصري الشاخص إلى الباب في انتظار قدوم ابنته..

ماذا كنت أنتظر؟! هل كنت أنتظر أن تكون مها رشدي مثلًا؟! أو أن تكون صورة مطابقة لها كما تصادف أن تطابق اسماهما؟! هل كنت في شوق لرؤية عينيّ مها رشدي السوداوين؟! أم كنت أحنّ إلى ملامحها الأثيرة وصوتها المميز؟! أكنت في شوق عارم للشعور بها مجددًا؟! أم الشعور بسكينة وبهجة قربها وحضورها؟! لا أدري ما الذي اعتراني، وما الذي تمنيته، وما الذي فكرت به، حتى أقبلت مها العزيزي..

(٨)

مها العزيزي..

ليس عجيبًا أبدًا أن تكوني أحلى أقداري.. وأكثرها مرارة أيضًا..

(٩)

يا امرأة قلبت تاريخي
إني مذبوح فيكِ من الشريان إلى الشريان
علّمني حبك كيف الحب يغير خارطة الأزمان
علّمني أني حين أحب تكف الأرض عن الدوران
علّمني حبك أشياء ما كانت أبدا في الحسبان

(١٠)

ملكة جمال بلا أدنى مبالغة..

نجمة سينمائية مشرقة، باهرة، موجعة، ضلّت طريقها إلى الأضواء لتصل إلى حيث أنتظر تائهًا محترقًا بلظى صحراء الخليج العربي..

مدت يدها تسلم عليّ، فتلقيتها وسط عواصف هائجة من الأفكار والذكريات وارتفاع طائش من الأمواج المترعة بالدمع والأشواق الغامضة..

ثانيتان.. لمستُ فيهما مخمل بشرتها البيضاء، وغصت في الابتسامة التي أشرقت على محياها وعينيها..

ثانيتان.. كانتا كافيتين لأن تستيقظ روحي وينتفض قلبي من جديد..

(١١)

من هذا الذي تحدث عن الحب من أول نظرة؟!..

إنه إنسان وليس الإنسان إلا هو!..

(١٢)

كان مما يفوق قدرتي على ضبط النفس أن أتمهل، قبل أن أغرق في الحب..

لم أنتظر حتى أتعرف إلى مها العزيزي، فأعرف ظروفها وحالتها الاجتماعية. بل إنني قررت، وأبلغت نفسي بأنني سأحبّها مهما كانت ظروفها.. وأنني لن أندم أبدًا على وقتي ومشاعري التي سأضحّي بها عن طيب خاطر فداءً لملكة جمال الكون..

(١٣)

هل عندك شك أني حين لمست يديك..
تغيّر تكوين الدنيا؟!
هل عندك شك أن دخولك في قلبي..
هو أعظم يوم في التاريخ..
وأجل خبرٍ في الدنيا؟!

(١٤)

أي شيء يكون هذا الحسن؟!..

شفتاها قطعتا كرز زيّنتا وجهًا أبيض لوّحته الشمس قليلًا، فأكسبتْه لونًا خمريًا مثيرًا، وأسنانها من خلف الشفاه، قطع من اللؤلؤ شاهق البياض منحوتة ببراعة. ومن التقاء أحمر الشفتين وبياض اللؤلؤ، مع حديثها الجريء غير المتكلف، وبُعدها عن الثقل المميز لمثيلاتها من الجميلات، ذابت الحدود بيننا سريعًا، واستغرقنا في نقاشات كثيرة، بعضها جاد وأغلبها ضاحك..

فبدأت أخطط لما هو أكثر من اللقاء على الغداء يومًا بعد يوم..

(١٥)

جريئة جدًا مها، وبسيطة، ومندفعة..

ولكنها في أغلب الأحوال ذكية، تعرف كيف توجه اندفاعها..

(١٦)

قلت لنجوى الفقي وأنا أنفجر من الغضب:

- إذن أعطني حلًا مناسبًا..

- ليست مهمتي أن أعطيك حلولًا. مشكلتك تحلها ثم تخبرني ماذا قررت.

- لكن..

- ولا لكن! تأخذ وحيدتي وتسافر وتقول لكن؟!

وانتحبت مها رشدي بشدة، وقال دكتور رشدي وهو ينتحي بي جانبًا بعيدًا عن المرأة المسيطرة:

- لا داعي لاستكمال الحوار الآن، إن قلبها لن يحتمل الشد والجذب.

وهل يحتمل قلبي أنا؟!..

(١٧)

على طاولة السفرة، قالت مها العزيزي:

- الحق أنني يجب أن أعود للقاهرة في أقرب وقت. لم أنفق كل ما أنفقت للحصول على الـ MBA كي أجلس في البيت.

فقال أبوها:

- وما المانع أن تعملي هنا؟! لو وافقت الآن لوظّفتك من الغد في أي مكان تختارينه.

- يا بابا، سأعود لمصر عاجلًا أو آجلًا، فما معنى أن أضيع وقتي في سوق مختلفة تمامًا عن السوق في مصر، ثم أعود لأبدأ من جديد؟!

تدخلت والدتها في الحوار فقالت:

- لا داعي لمناقشة كل مشكلاتنا على الأكل. وراعوا أيضًا أن آدم لا دخل له بمشاكلكما المزمنة. الرجل يريد أن يستريح قليلًا.

ضحكنا جميعًا، لكني قلت:

- لا تحسبوا حسابًا لوجودي، بل تستطيعون أن تعدوني متحمسًا لمعرفة ما ستسفر عنه المعركة!

ونظرت نحو مها لأختبر أثر قولي، فوجدتها تبتسم. فعرفت أنها لا تستثقل تدخلي، بل وربما رحّبت به، وهي إشارة جيدة تعني أني أستطيع أن أمد بيننا طريقًا ممهدة بلا عوائق صلبة..

(١٨)

بعد الغداء اختفى محمود العزيزي وزوجه!..

جلست أتابع برنامجًا في التلفزيون، وأنا أتحيّن فرصة للانقضاض. وجلست مها تقلّب في مجلة وإن وضح عدم استغراقها في القراءة، وكأنها تفكر في موضوع آخر، ثم قالت:

- يخيل لي أنك حكاية كبيرة!

رحّبت بكل حواسي بالمناقشة، لكني رفعت حاجبيّ متسائلًا عن سبب قولها، فرمت بنظرها بعيدًا في خجل وهي تفكر، ثم قالت في اندفاع:

- عرفت أنك خريج اقتصاد وعلوم سياسية، فلم تعمل في الإعلانات؟!

(١٩)

لا تطلبي مني حساب حياتي

إن الحديث يطول يا مولاتي..

(٢٠)

كان من الواضح أن محمود العزيزي قد نقل لها كل حكاياتي..

ولم يستطع فضول الفتاة الحسناء أن يخفي معرفتها بما سألت عنه، ففضحها مرة ومرة وهي تطرح أسئلة تشي بمعرفتها لأجوبتها. لكني تغابيت فأكملت سرد قصتي الحزينة، لأتجنب إحراجها ولأشبع فضولها، ولأمضي كذلك أطول وقت ممكن في رحاب صاحبة السحر الجميل..

وفي نهاية القصة، خبّأت نظرتها بين صفحات المجلة وهي تفرها بسرعة من اليمين للشمال ومن الشمال لليمين، ثم قالت وهي تتجنب النظر نحوي:

- أنا آسفة.. لابدَّ أنك حزين.

دغدغني مكرها الذي أفسده سؤالها المكشوف، فافتر ثغري عن بسمة أخفيتها وأنا أقول:

- كنت..

ثم أردفتُ:

- أعني كنت حزينًا ثم نسيت..

- وهل ينسى الإنسان حبًا بهذه السهولة؟!

- الحب لا يُنسى.. فقط نسيت حزني..

- ألا تفكر بها من حين لحين؟!

- جرح الكرامة مؤذٍ فوق ما تتصورين..

عندئذ رفعت عينيها فثبتتهما في عيني وهي تبتسم في إغراء وارتياح..

(٢١)

حديثك سجادةٌ فارسية..
وعيناك عصفورتان دمشقيتان..
تطيران بين الجدار وبين الجدار..
وقلبي يسافر مثل الحمامة فوق مياه يديك
ويأخذ قيلولةً تحت ظل السوار..

(٢٢)

تنبهت لدبيب النشوة الذي صار يصاحبني في العمل..

ذكرني بأيام الحماس والأمل في العهد الأول. وشعرت به يدفعني من جديد لمزيد من الإبداع والمثابرة..

صارت صورة مها العزيزي تلازمني في كل الأوقات، وأصابتني من جديد حالة الزهد الصوفية الرائعة، فأنهيت قصصا كانت في بدايتها، وأقفلت الباب أمام أي محاولة لفتحها مجددًا، وأحرقت الجسور..

(٢٣)

أحبك جدًا..
وأعرف أني تورطت جدًا
وأحرقت خلفي جميع المراكب
وأعرف أني سأهزم جدًا..
برغم الدموع ورغم الجراح..
ورغم التجارب

(٢٤)

صرتُ أتناول الغداء بصورة يومية في بيت أستاذ محمود العزيزي، الذي طالبني بأن أناديه «عمي».. وصارت حكاية عودة مها لمصر تتكرر مرتين أو ثلاثا أسبوعيًا..

صار الضغط مكشوفًا! لكن كان عليَّ أن أتأكد أولًا أن حماس مها بنفس درجة حماس أبيها وأمها.. وقلبي..

استغللت اختفاء محمود العزيزي وزوجته بعد الغداء، لأقول وأنا أنتقل لكرسي قريب من مها:

- تعرفين أنني افتقدت الأصدقاء منذ وصولي للكويت؟!

- كيف؟!

كذبت قليلًا وأنا أقول:

- منذ وصولي وأنا لا أجالس إلا عمي محمود، وفي المساء أعود لسكني وحيدًا..

- ثم..

- أشتاق لنزهة شبابية!

- ثم..

غمزت وأنا أقول:

- ما رأيك؟!

فقذفتني بريموت التلفاز في مداعبة، وهي مغرقة في الضحك..

(٢٥)

لا يريد الشعر كي يسقط كالدرويش..
في الغيبوبة الكبرى..

سوى خمس دقائق
لا يريد الشعر كي يثقب لحم الورق العاري..
سوى خمس دقائق
فاعشقيني لدقائق..
واختفي عن ناظري بعد دقائق
لست أحتاج إلى أكثر من علبة كبريتٍ..
لإشعال ملايين الحرائق

(٢٦)

قبل موعدي كنت هناك..

في ذلك الكافيه بالمول الشهير، جلست في انتظارها وأنا أحترق.. من الشوق إليها ومن التلهف لبدء هذه القصة المثيرة بكل المقاييس.. ولاختبار قدرة قلبي على الحياة من جديد..

لم تغب مها رشدي تمامًا كما كنت أتخيل.. بل رأيتها تقبل بجسدها الصغير فيتأرجح ذيل الحصان الناعم خلفها، ثم تضع كتبها وهي ترنو إليّ بشوق تخبئه في ابتسامة وفي استفسار جديد وشكوى أخرى..

ثم انتبهت..

فإذا مها العزيزي قد أقبلت.. بهامتها المديدة، وجسدها البض الوافي، وإشراقتها البيضاء الفاتنة، وابتسامتها الناضجة، ونظرتها الواعدة وإن لم تجز الأدب..

(٢٧)

قالت وقد أحاطت وجهها هالة من سنا الابتسام المشرق:

- كل يوم أتأكد أنك فعلًا حكاية!

- أنا؟! لِمَ؟!

- أسلوبك عجيب، ولك طريقة خاصة في..

- فيم؟!

تفكرت قليلًا ثم قالت:

- في الإقناع..

- هذا عملي لو تعلمين..

- أنت ذكي جدًا..

- هذه شهادة تسعدني فوق ما تتصورين..

- ما الذي يسعدك؟!

- أن تشهدي لي بأي شيء..

- وما يسعدك في ذلك؟!

- أن تفكري ثم تقرري ثم تشهدي..

- ثم..

- ألا يعني ذلك أني في بالك كل هذا الوقت؟!

قهقهت فرنّت ضحكتها المميزة، وهي تقول:

- دعني أُضف لشهادتي إذن أنك مغرور جدًا!

- بعد قبولك الجلوس معي.. سيصير غروري مرضًا مزمنًا..

(٢٨)

هل عندك شكٌّ أنك أحلى امرأةٍ في الدنيا؟!

وأهم امرأةٍ في الدنيا؟!

هل عندك شك أني حين عثرت عليك..

ملكت مفاتيح الدنيا؟!

هل عندك شك أني حين لمست يديك

تغيّر تكوين الدنيا؟!

هل عندك شك أن دخولك في قلبي

هو أعظم يومٍ في التاريخ..

وأجل خبرٍ في الدنيا؟!

(٢٩)

تعددت لقاءاتنا..

وتعددت كذلك الأسباب التي تدعوني للفناء في حب مها العزيزي..

(٣٠)

قلت لها في حسم:

- سأمنعك من العودة للقاهرة!

- يا جامد..

- أنا لا أمزح..

قهقهت، فرنّت ضحكتها المميزة لتداري توترها البادي، وقالت بمكر:

ـ تخشى أن تعود لجلساتك المملة مع بابا؟!

ضحكت بدوري وأنا أستجمع شجاعتي لإلقاء القنبلة، لكنها قالت:

ـ لقد قطعت التذكرة فعلًا يا آدم..

ـ ....

ـ مالك يا بني؟!

ـ مها..

ـ نعم..

ـ أنا أحبك..

(٣١)

سقط الصمت بيننا حتى أحدث جلبة وطنينًا..

وتراجعت مها خطوات للخلف، ثم ألقت بنفسها على الكنبة، فجلست وهي تقول بوجه ممتقع وأنفاس متهدجة وثغر باسم:

ـ يخرب بيتك!

لكم أعشق أسلوبها الفريد في التعبير..

عرفت أنها أيضًا أحبتني.. فيا لروعة الأقدار..

(٣٢)

أحبك.. حتى يتم انطفائي..
بعينين، مثل اتساع السماء
إلى أن أغيب وريدًا.. وريدًا

بأعماق منجدلٍ كستنائي..
إلى أن أحس بأنك بعضي..
وبعض ظنوني.. وبعض دمائي..

(٣٣)

فترة خطبة قصيرة لكن كاشفة لأمور كثيرة..

أهمها في الواقع اكتشافي أن مها، يمكن أن تصنّف، بلا مبالغة، لأن تكون ملخصًا وافيًا لتاريخ النساء ولحسن النساء ولجنون النساء..

حنانها الغامر، وحبها المتفاني، ذكّراني بالصورة التي طالما رسمتها للنساء في الأيام الأولى للإنسانية. وعلى الرغم من الاختلاف الكلي والجزئي بينها وبين مها رشدي، شعرت أن حنانها وحبها لا يقل بأي درجة عما غمرتني به مها رشدي..

حسن تدبيرها للأمور، وتخطيطها، وإدارتها للشئون الاقتصادية والإنسانية، ذكرني بما كانت عليه ملكات أجبرن الرجال والجيوش والأمم على الانضواء تحت سلطان حكمهن..

أما حسنها.. فقد وضعته في خانة لا تقبل مقارنة..

ولكن..

أرقني في الواقع جنونها، واندفاعها في كثير من الأحيان في التعبير عن رأيها. ففي علاقتها بالبشر لا تلقي مها العزيزي بالًا للمجاملات اللازمة، ولا تهتم كثيرًا أو قليلًا بحسابات المكسب والخسارة، هناك فقط ما يصح ومالا يصح، فلم تؤمن بما نسميه نحن «الذوق» أو المجاملة، وتسمّيه هي النفاق!

لا تضطر مها للنفاق أو المداهنة أو الصمت عما لا يرضيها مهما

تكن الظروف، فترفض ما لا تقبل بمنتهى العنف، وبمنطق يستند إلى أنه لا يصح إلا الصحيح، ولو دكت الأرض دكا. وقد تندفع في العراك ـ حتى معي ـ بلا هوادة وبلا حساب للحب أو للعقل أو لردة فعلي المزمجرة في أحيان كثيرة..

لكن ذلك كله ـ في الواقع ـ لم يتمكن من تعكير صفو حبنا، ولا دفعني ولو للحظة لإعادة حساباتي بشأن ارتباطنا..

(٣٤)

اقتحمتني مها العزيزي..

غزتني..

ولم تتسرب إلى قلبي، كما تسربت مها رشدي كذرات الضوء الناعمة عند الفجر حتى تتكامل فتشرق شمسًا..

ولا كما أتت نيكول كرذاذ ناعم يلفتك إلى الموجة العاتية ثم يجذبك مسحورًا لتغرق تحتها..

مها العزيزي كانت منذ اللحظة الأولى ذات نفوذ واسع.. وسيطرة محكمة على مراكز حيوية كالقلب والدم والأعصاب..

(٣٥)

كتبت أحبك فوق جدار القمر..

أحبك جدًا..

كما لم يحبك يوما بشر

ألم تقرئيها بخط يدي؟!

فوق سور القمر..

وفوق كراسي الحديقة..

فوق جذوع الشجر..

وفوق السنابل فوق الجداول فوق الثمر..

وفوق الكواكب تمسح عنها غبار السفر..

(٣٦)

أمتع الأوقات حين تركب مها بجواري فأطير بالسيارة إلى غير وجهة..

وفتحت مها تابلوه السيارة بغتة، وقلبّت فيه، ثم استخرجت زجاجة عطر ثمينة، ورفعتها أمام عينيها، ثم قالت وهي تقلبها في يديها:

ـ أنت من اشترى هذه الزجاجة؟!

اصطنعت التردد، وأنا أبحث في مكر عن جواب يستفزها ردًا على حركة الاقتحام. حدقت مها في ترددي للحظات وهي تبتسم كمحقق استطاع دفع المتهم لركن خانق، ثم فتحت الشباك وألقت الزجاجة بسرعة خاطفة! فاجأني تصرفها فشهقت، فأعادت النظر إلى عينيّ تنتظر أن أعترض، فلما قلت:

ـ ما هذا؟!

قالت في حزم:

ـ حزين على الزجاجة أم على ذكرى صاحبتها «السنكوحة»؟!

كان من رابع المستحيلات إقناع مها بغير ما تتوصّل إليه عن طريق حاستها، فهي بحاسة مخبر تربط الأحداث، وبحزم وكيل نيابة تكيل الاتهامات، ثم تصدر الحكم براحة ضمير قاضٍ محنك! وستنقلب

الدنيا قبل أن تستطيع أن تفتح فمك لتنطق.. ولو كنت مظلومًا فعلًا..

- أي سنكوحة؟!

- أفضّل ألا نتكلم في هذا الموضوع، حتى لا تفسد الخروجة!

- وما الذي سيفسدها؟!

- إصرارك على الدفاع وكذبك المتوقع.

أغرقتُ في الضحك على ثقتها التي لا ترتكز على شيء..

ولم أكن أدري أنني أقدم نفسي ضحية لمشاكل لن تنتهي..

(٣٧)

أخذت أزفر وأنا أحدج مها رشدي بينما انخرطت هي في بكائها الذي لا ينقطع، وقلت وأنا أحاول ألا أفقد أعصابي:

- ألا ترين يا مها ما حدث؟! ألم تكوني معي منذ البداية؟! كيف ستستمر حياتنا وأنا بلا عمل؟! إن غيري يترك عمله في مقابل عرض كهذا، فما بالك وأنا عاطل؟!

انتحبت، ثم قالت:

- أنا تعبت.. قل لي من أختار؟! هل أسافر معك وأقتل أمي؟!

(٣٨)

تم عقد قراني على مها العزيزي حتى ننتهي من تجهيز شقتنا..

كنت أنا في الواقع من طلب عقد القران بإلحاح.. لكن سحر مها العزيزي القاتل كان هو المحرض الخفي..

(٣٩)

ذبنا في قبلة حارقة أشعلت فينا النار..

وسرت الكهرباء في جسدينا فتلاصقنا بلا إرادة..

دقيقة كاملة وأنا أسير بشفتيّ من شفتيها إلى خديها إلى ذقنها ثم رقبتها، قبل أن تدفعني ثم تتراجع للوراء فتستند إلى الحائط، ثم تسير مترنحة إلى جريدة وُضعت فوق طاولة على بُعد أمتار، فتمسك بها، وتروّح في عصبية على وجهها، بينما استندت بذراعها الأخرى على حافة المائدة. راقبت امتقاعها وهبوطها فزعًا، ثم قلت بصوت مبحوح:

- مالك يا مها؟!

تمالكت نفسها قليلًا، ثم افتر ثغرها عن بسمة راضية مُطَمْئنة، وهي تقول بصوت متهدج وأنفاس مبهورة:

- يخرب بيتك!

أغرقنا في الضحك، ونحن نحاول السيطرة على الرعدة التي شملت جسدينا..

(٤٠)

بين سلوكي بعد عقد قراني على مها رشدي وسلوكي بعد عقد قراني على مها العزيزي.. لا تجوز المقارنة أصلًا..

فلم أكن في مها رشدي أقل رغبة عن رغبتي في التهام مها العزيزي..

ولا كانت مها العزيزي بالنسبة لي أقل قدسية من مها رشدي..

لكن ما دفعني لكسر قاعدتي الأولى، هو براعة مها العزيزي في علم الأنوثة..

(٤١)

كثيرات هن الإناث..

ولكن قليلات جدًا من اهتدين إلى موضع الصندوق الصغير الذي يحوي علم الأنوثة المخبوء في أرواحهن..

مها العزيزي كانت من القليلات جدًا اللائي اطّلعن بإدراك على المخبوء في هذا الصندوق..

(٤٢)

.. لم يحدث أبدًا
أن أحببت بهذا العمق
.. لم يحدث.. لم يحدث أبدًا
.. أني سافرت مع امرأة
.. لبلاد الشوق
.. وضربت شواطئ نهديها
كالرعد الغاضب، أو كالبرق

(٤٣)

قلت لمريم أختي وأنا في تمام الانهيار:

ـ لا أصدق أنني أُدفع لطلاق مها!

ـ هل أتدخل؟!

ـ للأسف لا داعي.. أغلقت نجوى الفقي كل الأبواب.

ـ لكن لن نخسر إذا حاولنا مرة أخرى..

ـ أنا الذي أرفض المحاولة.. لا أملك بعد شتيمة نجوى الفقي أي نية أو قدرة على الصفح.

ـ لكن ما ذنب مها؟!

ـ مها ستدفع ثمن تخليها عن القتال في سبيل حلمنا.. إنني في الواقع أتمزق من أجلها، لكني لا أشعر أنها تدرك فداحة ما تضيّعه بسلبيتها وطاعتها العمياء لهذه المرأة..

ـ هي أمها يا آدم..

ـ وأنا حبيبها وزوجها..

ـ أعط نفسك فرصة أخيرة..

ـ ليس بعد جرح الكرامة أي فرصة..

(٤٤)

أنهيت تجهيز الشقة بأسرع ما أمكنني..

كان تحمّل غياب مها، ولو لليلة واحدة، لا يحتمل..

كانت مها العزيزي مبدعة في خلق الرغبة المغرية وإثارة العواصف الحمراء المبهجة والقاتلة.. وهي مع ذلك لا تتخلى عن احترامها وهيبتها الرقيقة..

كانت فتنتها ملتصقة بها تمامًا، كما التصقت بها رغبتها الدائمة في العراك لأدنى سبب، وقدرتها على نسيان أي حسنة أو ذكرى في مقابل انتصارها في المعركة التي تخوضها في ذلك الوقت..

(٤٥)

كان حفل الزفاف رائعًا..

وكان أغلب الحضور من أهل مها وأصدقائي في العمل. ولم تتمكن مريم أختي من الحضور، وكانت قد هاجرت منذ أشهر إلى كندا..

(٤٦)

حين نضت مها العزيزي ثيابها عرفت أنني قد ارتبطت بها إلى الأبد..

هذه المعجزة الأنثوية غير قابلة للتكرار..

ولن أصادف في عمري هذه اللحظة مرتين..

تمثال من الشمع الأبيض يشعّ حرارة وجنونًا.. ولا يلبث مجاله المغناطيسي أن يحتويك من الرأس حتى أخمص القدمين، فلا يترك لك فرصة القرار أو الاختيار..

(٤٧)

رغم كل شيء لم تعرف مها العزيزي حتى اليوم أنني أتقن الغناء، بل أكاد أشعر بأن قنوات وغدد الغناء قد تيبست فكأنها لم تكن..

(٤٨)

انبهاري السرمدي بمها العزيزي ليس له سبب واحد..

فليس السبب مطلقًا، أنها أول امرأة تشاركني رحلات الليل المتأرجحة، وترافقني ركوب الزورق المبحر وسط العواصف المهتاجة

إلى شواطئ الخيال الفردوسية، وتشاركني الانبهار والصياح ونحن نتزلج من فوق قمة الموجة البيضاء العالية التي لا تدوم إلا لثوان..

وليس السبب أيضًا أنها كانت دائمة الفتنة.. فكانت لفتاتها العادية نداءات مغرية، وضحكتها ذات الرنة المنفجرة رسالة نداء خفية، ونظرتها - ولو في أثناء العراك - فتنة تدعو إلى ركوب زورقنا بلا تأجيل!..

ولكن سعت مها العزيزي بعلمها الواسع في الأنوثة، إلى أن تكون في المضمار بلا منافسة على الإطلاق، فانفردت بوصفها امرأة يضوع منها دومًا الإغراء المبدع، وتشع نشوة تمتد حتى القتل، وسحرًا مسيطرًا حتى الفناء، وحرقًا فاتنًا حتى الخلق من جديد..

وبسبب ذلك كله، انبهرت بمها. وبسبب ذلك كله تحملت هنّاتها المميتة من عصبية مفاجئة أو شجار أهوج، وسوء ظن مستمر بي وبالناس من حولنا..

تشاجرنا كثيرًا ونسينا أكثر.. احتدت أصواتنا وارتفعت.. لكن شهوتنا كانت أكثر حدة وأعلى صوتًا.. وفي ذروة الصدام المزمجر كنا نتلقى من الرغبة دعوات لا تلبث أن تحتوينا فتتغلب على الغضب الذي ترتجف له أعصابنا..

(٤٩)

وكما ترسخ شذا البخور ونغمات الوتر في بيت مها رشدي، حتى كمنا في دروب روحي.. وكما استولى حزن نيكول على قلبي.. ملأت مها العزيزي كل ذلك، وما تبقى بعد ذلك من حواسي وأحشائي ودمي وعقلي إلى الأبد..

هل يعود ذلك لافتتاني الأزلي بالمرأة «الأنثى»؟!

(٥٠)

امتلكت مها إلى جانب أنوثتها الطاغية روحًا مشاكسة شرسة متوثبة للتفوق والنجاح. فجعلت نهارنا كما ليلنا مليئًا بالطموح والعمل..

رتبت لي مها حياتي العملية، ووجهتني بخبرتها في إدارة الأعمال إلى حيل وخطط أفدت منها، وأضافت إلى سيرتي المميزة ونجاحي المعروف. وبارك الله جميع خطواتنا. ونمت مها ـ بتدبيرها ـ مدخراتي بشكل لم أعرفه يومًا، ودفعتني بجانب عملي للاستثمار الحر في مشاريع ناجحة، فتتضاعف رصيدي في البنك ـ أو رصيدنا ـ عدة مرات..

تعلقت بمها بكل جوارحي، فغرقنا في سعادة بدا أنها لن تعرف نهاية..

وفي نهاية عامنا الأول معًا، وضعت مها العزيزي ابنتي الجميلة «ميسون» فتوّجت حبنا..

حبنا الذي يبدو أنه كان قد وصل لتمامه الذي يبدأ بعده النقصان..

(٥١)

لم تخلق امرأة تستطيع أن تحل محل باقي النساء مهما امتلكت من سيطرة وحنان وأنوثة.. كما لم يخلق الملل ونفاد الصبر إلا ليميز الرجال..

(٥٢)

ما الذي جد؟!..

كيف اندفعت حياتنا المستقرة إلى تلك الحافة الخطرة؟!..

من اقتحم عشنا، وسرق الصبر، فكأننا نرى بعضنا وعيوبنا للمرة الأولى؟!..

كيف نبت الشقاق والنكد من تحت تربة الأرض التي طالما شهدت رقصاتنا وسكرنا اليومي بخمر العشق السرمدي.. ذات الأرض التي حفرتها أقدامنا اللاهثة خلف قمة الموجة البيضاء؟!..

من بذر بذور الغضب والخلاف، وغرس نبتة الزهور التي لا تفوح بعبير، بل بغازات توتر الأعصاب وتشحذ سوء الظن وتشجّع على الجنون والهدم والقتل؟!..

ترى مها أن دخولنا ذلك المنعطف الأسود كان بسببي..

وكان ـ كما ترى ـ نتيجة طبيعية، أعقبت تلك النظرة العميقة التي استطاعت التقاطها في حفل للجريدة، بيني وبين «فيكتوريا» الموظفة السمراء التي انضمت إلى فريقنا مؤخرًا!..

لا أنكر أن ذلك حدث، لكن أرفض اعتباره البداية، بل أرى أنه كان نتيجة لذلك التغير المذهل الذي أصاب مها بسبب الاكتئاب الذي ضربها بعد إنجاب ميسون..

فإلى جانب حدتها القديمة في التعامل مع البشر، وصلت هذه الحدة بشكل أو بآخر إلى تعاملها معي، وأضيف إليها تسلطها وغرورها فيما يختص بالقرارات المهمة، خصوصًا ما ارتبط بشئونها وشئون البيت. فوجدتني أنأى بنفسي عن النقاش في هذه الأمور، تاركًا لها حرية اتخاذ القرار لأتجنب خلافًا لا طائل من ورائه ولا مكان له ـ في الحقيقة ـ إلى جوار مشاكلنا الكثيرة. ثم أضيف إلى ذلك مشكلاتها النفسية التي أعقبت الولادة. كنت أؤمن أن مها لا ترى نفسها إلا ملكة، فكيف

تتحول لمربية وخادمة؟! وهدمها ذلك الشعور حتى تسرب إليها الاكتئاب فسكن روحها..

ورغم ذلك وبسبب إصرارها وشعورها بالمسئولية، لم تقصر مها في واجباتها ولا فسد جمالها، ولم تهمل رشاقتها، بل إنها استعادتها بسرعة مذهلة. ولم يتغير كذلك ظاهر حياتنا، لكن شيئًا جوهريًا كان قد ضاع من علاقتنا..

ترفض مها الاعتراف بذلك.. كما أرفض أنا أيضًا الاعتراف بذنب فيكتوريا الجميلة في خراب بيتنا..

(٥٣)

بسبب من الجحيم المستمر - ورغم لحظات الهدنة التي تردنا إلى زماننا الرغيد - كثر غيابي خارج البيت..

ورأت مها أنني لا أستحق نعيمها، ولا رحلاتها الخرافية، فقلت رحلاتنا على متن الزورق..

ودفعني الموج، بعد مشاجرة في ليلة عاصفة، حتى رسوت على شاطئ «كلموني تاني عنك.. فكروني»..

(٥٤)

فكروني ازاي..
هو أنا نسيتك؟!
ده أنت أقرب مني ليا..
يا هنايا..
حتى وإنت بعيد عليا
أو معايا!

هزّني اللحن وسالت دموعي، وظهرت مها رشدي للمرة الأولى في خيالي، بعد ثلاثة أعوام كاملة من صمت الأنغام للمرة الأخيرة..

كلموني تاني عنك..
بعد طول حرماني منك
جرّحوا الجرح اللي قرّب..
يبقى ذكرى
رجعوني أعيش ف بكره..
وبعد بكره

(٥٥)

رأيتني في الجامعة أهرول لأدرك امتحانًا. ثم رأيتني واقفًا في سرور أتحدث مع مها رشدي وصديقتها الأثيرة ميسون..

(٥٦)

استيقظت معتدل المزاج بسبب الحلم..

لكنني تنبهت إلى أنها ليست المرة الأولى التي أرى فيها ذلك الحلم. ثم تساءلت في ضيق: هل رأيته قبل مولد ابنتي، ثم اخترت لها اسم ميسون ليصير معي في البيت «مها وميسون»؟!

لشدّ ماتسخر منا نفوسنا؟!..

(٥٧)

هل نضب حبي وإعجابي بمها العزيزي، أو جف اشتياقي لها؟!..

الحق أن ذلك لم يحدث.. ولم تحرمنا خلافاتنا من لحظات نتصارح فيها ببعض أخطائنا «الثانوية». فنتسامح، ونتعاهد، ونغرق لأيام في أنهار العسل، قبل أن ننقض عهودنا من جديد لسبب غير معلوم، وإن أصر كل منا أن الآخر هو السبب..

غير أن حبها ظل فوق قمة، تستعصي على المقارنة..

ولكن، حتى ذلك لم يمنعني من الخيال ومن المحاولات البريئة لخلق حب مواز مع صديقات في العمل..

لكن حب مها العزيزي - بعيدًا عن علاقتنا شبه المنهارة - بقي حيًا وقويًا..

(٥٨)

كرجل يقدر المسئولية، وكمحب صادق، عرفت لمها جميلها وواظبت على تذكير نفسي بفضائلها على حياتي لأتناسى خلافاتنا..

بل إنني في أعقاب مشاجرات قوية، كنت أهم بهدم البيت، فلا يثنيني إلا أن أذكر أنها أعطتني يومًا حبًا لا يوصف، وأنها كانت ذات يوم ملكة متوجة أتمنى فقط أن أجالسها لدقائق، وأعزي خلافاتنا للضغوط الواقعة عليها، فأصبر بذلك نفسي وأتخلص من أي قرار بالهدم..

(٥٩)

قلبي المحب الصابر لم يكن وحده السبب في معجزة استمرار حياتنا، ولا لحظات الهدنة الناعمة..

لكن خوفنا المشترك على مستقبل ابنتنا ميسون الجميلة، ملأ شروخًا كثيرة كانت كفيلة بانهيار الجدار فوق رأسي ورأس مها العنيد..

(٦٠)

كنت أستغرق لأيام في علاقتي بميسون، فلا أشعر لمها بأي وجود أو حضور. كانت ميسون ببراءتها ورقتها، أو بعنفها وطيش طفولتها، تعوضني بسخاء عن آلام من جراح كانت، ومخاوف مما سيكون، حتى لأشعر أن حبها هو الحقيقة الوحيدة، وأن أي حب سواها ليس إلا رفاهية، أو أنه لا يصل إلى هذا العمق من القلب.. لا حب مها العزيزي ولا حب مها رشدي..

(٦١)

حين أتمت ميسون عامها الثالث، كنا قد حسمنا قرارنا بالعودة النهائية إلى القاهرة..

كنت ومها منذ البداية غير محبّذين للإقامة في الكويت، لكن سرقتنا الأيام، وسرقتنا حياتنا بكل نعيمها وجحيمها. كنا في الواقع مرهقين من الغربة وإن لم نملك شجاعة القرار النهائي بالعودة، ولذلك اتخذنا من حاجة ميسون لبدء الدراسة حجة لنعود..

كنا نأمل أن تضخ حياتنا الجديدة في مصر دماءً طازجة في علاقتنا الزوجية، وأن تضعنا على طريق نبدأه من أوله فنُسقِط أخطاء الماضي المؤسفة..

(٦٢)

أقمنا في الشقة التي خصصها محمود العزيزي لمها في البيت الكبير الذي بناه له ولبناته، وأصررتُ وقت زواجنا ـ رغم عدم إقامتنا في مصر ـ على سداد ثمن الشقة كاملًا مع احتفاظ مها بملكيتها. وكان وجود الشقة وتجهيزها الذي كنا نواظب عليه في كل عطلة، من الأمور التي سهّلت علينا الانتقال لمصر دون كثير تفكير..

(٦٣)

التحقت ميسون بالحضانة، وراقبتها وأنا نمتلىء سرورا وأملا..

ولكن.. بدأت مرحلة جديدة من حياتنا، أبرز ما فيها هو ذلك الفراغ الذي أحسته مها..

واستنزفتنا خلافات جديدة، وتساؤلات كونية حول الهدف من حياتها، ودورها في المجتمع، وعمرها الذي أطفأته حين قررت الاستغناء عن العمل. وأخبرتها أنني لم أجبرها على شيء وأن حياتنا جرت باتفاقات مشتركة، فلا يجوز أن تحمّلني الآن جريرة قرارات اتخذناها سويًا..

لكن الحقيقة أن مها ـ فيما يخصّ حياتها ـ لم تسمح لبشر بأن يفرض عليها رأيًا ولو كنت أنا، معتزة برأيها وبرجاحة عقلها، ومخدوعة بغرورها المتناهي..

قالت في تقرير حاسم كالعادة:

ـ كنت مخطئة ولم ترشدني أنت إلى خطئي لأنه وافق هواك.

ولا تعترف مها بخطئها إلا إذا أرادت أن تلقي به في وجهي!

وقلت ثائرًا:

ـ أي هوى؟! أنا لم أقرر لك.. أنت في الواقع لست في حاجة لرأي أو لمشورة! هل منعتك من العمل أو هل سبق أن تناقشنا في ذلك؟!

ـ وهل تفكر سوى في نفسك وفي حياتك؟!

ـ هل تسمعين رأيي النهائي؟!

ـ أتمنى والله..

ـ أنا موافق على أي قرار تتخذينه.. هل يكفي هذا؟!

ـ طبعًا.. وما الجديد؟! على الخادمة أن تدبّر كل شئونها، وألا تشغل بال سيدها بمشاكلها التافهة..

ـ إذن سأشاركك التفكير بعد إذنك..

ـ كرم كبير من سعادتك أن تتفضّل على خادمتك المسكينة! لماذا أشعر بأنني غير ملزمة منك؟!

الواقع أن كلامها لا يخلو من الحقيقة، لكن على وجه آخر تمامًا، فأنا أيضًا أشعر بأنها غير ملزمة مني، ليس لأنني راغب عن ذلك، بل لكونها كالفرس الجامح فيما يخص التفكير والتدبير وصناعة القرار. فكلما حاولت الإمساك بها ومساعدتها هربت بعنف، إلا أنها مع ذلك لا تني تتشكي من عدم إمساكك بها!..

احتضنتها وحاولت تقبيل رأسها، لكنها دفعتني وهي تزمجر قائلة:

ـ كف عن هذا الاستفزاز.

فضحكت لأخفف من حدة العنف المعربد في الحجرة:

ـ أي استفزاز؟! وما يمنع أحدهم من احتضان خادمته المسكينة؟!

ـ تعلم أني أكره أن تحضنني بينما نتناقش..

ـ وما يمنع أن نجلس بهدوء لنتناقش ونحسب ظروفنا جيدًا

فنصل لحل مريح.. إلى جانب أنني أثق في تفكيرك ولن أمنعك من العمل أصلًا!

هنا تعجز عن العراك مجددًا، فتقول:

ـ سأفكر وأبلغك بقراري..

ـ حقًا؟! لن تحتاجي مشورتي إذن؟! كما ترين.. سأنتظر قرارك على أحر من الجمر!

(٦٤)

لسبب ما، تنبهت ذات ليلة أنني أتحول لما يشبه «رشدي الصفتي»!..

لا أدري لِمَ تصورت أنني أكاد أطابقه! وأنني سأتسبب يومًا في ضياع مستقبل وحب ميسون ابنتي حين تحب، بسبب تسليمي المطلق للمرأة المسيطرة..

كنت في البداية أستسلم لسيطرة مها بدافع من انشغالي الدائم بالعمل، متصورًا أننا نتقاسم الأدوار في حياتنا المشتركة. وحين أنجبنا ميسون، كانت مها بالطبع أقدر مني وأكثر خبرة في إدارة حياتها. ولكن ها هي ميسون تكبر، ويجب أن يبدأ دوري في التوجيه والإرشاد. وهنا اكتشفت أن الأدوار ليست مقسمة كما تصورت، بل إنني ألعب الدور الذي تتصور مها أنه يناسبني! فإذا رغبت في تجاوزه، اصطدمت بحائط صلب من العند والشجار والبكاء. وبعد ليلة عاصفة، وبينما كنت أخلد للنوم تراءى لي رشدي الصفتي بنظرته المهزومة الحزينة لحظة أعلنته بطلاقي لابنته الحبيبة..

دفعني ذلك الشعور إلى شفا هاوية سحيقة، فشعرت بأنه قد حان

الوقت لأن أنقذ نفسي وابنتي وإلا ضاع كل شيء..

كان ذلك منحنىً آخر في علاقتنا تسبب في دخولها إلى نفق مظلم جديد..

(٦٥)

في سرية تامة، اشتريت شقة صغيرة في الزمالك ومضيت أؤثثها على مهل..

وكثيرًا ما كنت أتساءل عن الهدف من تجهيزي لهذه الشقة؟!..

هل هو شعور بالإرهاق؟! أو رغبة في سرقة لحظات من الهدوء بعيدًا عن حياتي الزوجية وبمنأىً من عواصفها المدمرة بل وحتى المثيرة أيضًا؟!..

(٦٦)

عثرت مها على وظيفة بشركة كبيرة وبدأت العمل من جديد..

كانت سعيدة كما كانت متوترة وقلقة. وتناسيتُ خلافاتنا وساعدتها ما استطعت كي تتغلب على صعوبات البداية. ومنحتها لاب توب غالي الثمن كهدية، فاغرورقت عيناها بالدمع وقالت وهي تحتضنني في حبور وشكر:

ـ كم أود أن أشعر بحنانك مثل أيام زمان!

من العجيب أن خلافتنا تنتهي تمامًا في لحظة، حتى نوشك ألا نجد لها أثرًا، كما تولد أيضًا في لحظة كالبرق المدمر..

قلت وأنا أضمها بقوة وعشق:

ـ اطردي الشيطان الكائن برأسك حتى يعودنا الصفاء مثل زمان.

فاصطنعت الغضب وهي تلوي شفتيها قائلة:

- كف أنت عن تحضير الشياطين حتى لا تسكن رأسي..

- أنا؟!

- لشد ما تغيرت يا آدم.

- لم أتغير.. ولكني تعبت من الخلاف.

- وهل علاقتك بفيكتوريا كانت بسبب الخلاف؟!

- أوه.. فيكتوريا من جديد؟! هل أقسم لك للمرة المائة أنه لم يكن بيننا سوى الزمالة؟!

- لا داعي للكذب مجددًا، ولا حاجة للقسم، فلا أريد أن أخسرك في الآخرة كما خسرتك في الدنيا!

تضمن قولها مع الاتهام الصريح، تصريحًا خفيًا بأن حبها لا يزال يريدني. فقهقهت، ثم قلت وأنا أجلس على طرف السرير:

- حتى لو كنت قد أحببت فيكتوريا السمراء، فإن ذلك لا يعني أنني لا أحبك أو أنني قد تخليت عن حبك!

فجلست بجواري، ثم أمسكت بتلابيبي ورفعت أظافر يمناها كقطة متوحشة وقالت في لهجة تمثيلية:

- لو تجرأت على حب غيري لقتلتك وقتلتها!

فضممتها وأنا أرتمي على السرير، والتقطت شفتيها الشهيتين كالكرز، فهمست بنبرتها المحببة حين الاستسلام:

- يخرب بيتك!

ثم استسلم زورقنا لرحلة هادئة ممتعة أعادت شيئًا من نشوات الماضي. وبعد أن هبطنا قالت ونحن في تلك الغيبوبة بين الواقع والخيال:

- لن تجد من يحبك مثلي يا آدم.. صدقني لن تجد!

(٦٧)

استنام كلانا لشعور الهدنة المريح مرة أخرى..

مضت الحياة تحاكي أيام هنائنا القديم..

وطويت رغباتي في خلق عالم مواز، وكبحت هي رغبتها في العراك..

كنا في الواقع نمثل ونتصنع ونتعامى، آملين أن تدب الروح من جديد في البيت المنهار، وأن تذهب الأرواح الشريرة بعيدًا، فتخضر أرضنا من جديد، ثم تنبت أزهار المودة والرحمة والحب المترع بالجنون والشوق الصادق مرة أخرى..

ولكننا لم نحرم أيضًا لحظات حقيقية من العشق المذهل والأمل المسكر.. مع مناوشات خفيفة وكبيرة من حين لحين..

(٦٨)

ذات يوم، وبينما كانت ميسون تستعد لتودّع KG2، أخبرتني ونحن في طريقنا للمنزل بأن معلمتها في الحضانة قد وبختها لأنها تشاجرت مع تلميذة من زميلاتها. فاستفسرت منها عن السبب، فاتضح لي مبدئيًا أن ميسون مظلومة، فوعدتها أن أذهب غدًا إلى الحضانة لمعاتبة المعلمة. ولكني أيضًا نبهتها إلى أهمية احترام الزملاء والمعلمين، فإن الناس لا تحب سيء الأدب..

(٦٩)

في اليوم التالي، فاجأني اجتماع طارئ في العمل..

فاعتذرت لميسون عن الذهاب معها لمقابلة معلمتها، ووعدتها بأن أذهب معها غدًا. والتقطت مها طرف الحديث فتساءلت عما حدث، فأخبرتها ميسون مضيفة بعض الأحداث ربما من خيالها، عندئذ تميزت مها من الغيظ، وانفجرت معلنة معركة شاملة على المدرسة. وبسبب اجتماعي المهم الذي أزف موعده لم أجد الوقت الكافي للعراك، فذهبت..

لم أكن أدري أي عاصفة تختبئ خلف هذا الصباح..

(٧٠)

أشعلت مها معركة في الحضانة إلى الحد الذي دفع مديرة المدرسة للاتصال بي، وكنت في منتصف الاجتماع، وطلبت مني الحضور فورًا!..

تركت كل شيء وهرولت إلى الحضانة. فأخبروني أن مها وميسون قد ذهبا منذ دقائق، وطلبت مني مديرة المدرسة مرافقتها إلى مكتبها، وهناك تلقيت محاضرة سخيفة في الأدب وفي أهمية احترام قدسية المدرسة، واستدعت المديرة معلمة ميسون، فأقبلت فتاة حسناء محمرة العينين والأنف، تتهدج أنفاسها ولا تستطيع أن تتم جملة من البكاء. وسمعت الأحداث مرة أخرى، متدخلًا بين الحين والحين لتهدئة بكاء الآنسة المنهارة. وفي نهاية الاجتماع وعدتها باتخاذ إجراء حاسم، واعتذرت نيابة عن مها وأنا ألعنها في سري بكل ما أحرقني من غضب..

(٧١)

كانت المعركة في البيت أبشع من الوصف..

كانت أكبر معاركنا وأحقرها على السواء..

لدى دخولي إلى البيت، كنت أغلي من الغضب وأستعد لحرق كل شيء. ويبدو أن هذه أيضًا كانت رغبة مها. وعلى الرغم من أننا لسنا طرفًا في المشكلة من الأساس، وخلافنا كان مع المعلمة الصغيرة الطائشة، فلسبب مجهول، اتخذنا من هذه المعركة وقودًا وذخيرة لنقتل أنفسنا وعلاقتنا إلى الأبد وبلا رحمة أو عقل..

وجدت مها تنتظر في تحفز كنمر، وقبل أن أفتح فمي قالت:

ـ هل ذهبت إلى المدرسة؟!

هتفت:

ـ طبعًا.. وتركت اجتماعي المهم بعد أن استجار الناس بي من غبائك وقلة أدبك.

ـ قلة أدبي؟! قطع لسانك.

ـ ماذا فعلت؟! أأنت مجنونة؟! ما الداعي للعراك مع أناس محترمين وقلة الأدب كأولاد الشوارع.

ـ أولاد الشوارع؟! أولاد الشوارع هم أهلك أيها الحيوان!

هنالك لم أملك إلا أن أصفعها لأول مرة في حياتنا. صفعتها في عنف مروّع، فارتمت على بعد أمتار، ثم حدجتني ذاهلة للحظات قبل أن تصرخ:

ـ ألا تشعر أنني أحتقرك؟! أنا أكرهك كما أكره خنزيرا..

ـ إني أبذل جهدًا خرافيًا لتحملك فلا تزيدي حرفًا..

ـ أنت تغصب على نفسك لتتحملني؟! هل تظن أنك تكون شيئًا من غيري؟!

اندفعت نحوها، وأنا أجهل ماذا أنتوي أن أفعل، لكن الحقيقة أنني لم أكن أمانع في إلقاء نفسي في الجحيم..

وفجأة..

سمعنا صوت سقوط جسم على الأرض. التفتنا لنجد ميسون ملقاة بالقرب منا..

(٧٢)

قضينا أيامًا مرعبة حتى تجاوزت ميسون أزمتها..

أما علاقتنا فقد لفظت آخر أنفاسها..

لم تعد مها تنتظر أن أعود فأعتذر إليها. ولم تعد حيلتي القديمة لمراوغة أحاسيسي - باجترار حسنات مها العزيزي وخيرها السابق - ذات نفع على الإطلاق. وطلبت مها الطلاق كالعادة عقب كل خلاف. وقلت لها وأنا سادر، أركز بصري بلا سبب على زجاجة عطرها المفضل لدي، وهي فوق التسريحة غارقة في ذلك الظلام المطبق، لولا ضوء الأباجورة الخافت:

- سيقع الطلاق شئنا أم أبينا.. وما أجمل أن نفترق صديقين!
- ما معنى ذلك؟! متى ستطلقني؟!
- حين أرغب في ذلك.
- لن أستمر في الحياة معك..
- وأنا أحرص على ذلك منك..
- طلقني إذن..
- سنذهب في رحلة لشرم الشيخ لمدة أسبوع حتى أطمئن أن

ميسون قد تجاوزت أزمتها تمامًا، وبعدها سأدبر الأمر بالطريقة التي تروقني ولا تؤذي ابنتي..

- ابنتك التي تدمر مستقبلها من أجل مدرسة حقيرة أعجبتك وسلبت عقلك بدمعتين..
- لا فائدة من الحديث معك.. وسيكون ألم حياتي أن تحوز ميسون خصلة من خصالك..
- لو سمحت احترم نفسك..
- سأحترم فقط صداقتنا القديمة وكونك أم ابنتي.. تصبحين على خير..

(٧٣)

في شرم الشيخ، تحررت ميسون تمامًا من خوفها وحزنها كما بدا لي..

مضت تمرح كما لم تفعل من قبل في أي من أسفارنا الكثيرة. ربما كانت تهرب من مخاوفها، وربما كانت تنشد اليقين بأن هذا الذي يعتمل في عقلها الصغير ليس حقيقيًا، وأن بيتنا المحبوب مازال قائمًا يتحدى هذه العاصفة العاتية البغيضة التي ضربتنا..

واشتركت معها في المرح بكل قوتي، كأنما أعتذر لها عن قراري الذي لا يعلمه أحد سواي. أو كأني أحاول في هذه الأيام القليلة أن أعوضها عن الحياة الطبيعية التي ستفتقدها بقية عمرها..

وجعل قلبي يتنزى كلما راقبتها فوجدتها تغرق في السعادة البيضاء، بينما هي في الحقيقة تتردى في ظلمة الجهل بما يختبئ خلف

هذه النزهة البديعة.. وترتاح في الاطمئنان إليّ وأنا أحمل في طيات حناني مدية مسمومة توشك أن تنقض عليها فتنتزعها من هدأة الحلم انتزاعًا إلى جحيم لم تتصوره يومًا..

كيف سأتمكن من ذلك القتل يا ربي؟!..

آية في الجمال هي ميسون، كأنها نسخة من أمها..

(٧٤)

مها العزيزي..

جعلت أطيل النظر من طرف خفي، إلى هذه المرأة الساحرة التي يقاوم عشقها في القلب حتمية الموت بكل قوة..

مازال حضورها المسكر قادرًا على إثارة الحب ودعوته لرقصة تختلط فيها نغمات السماء ودقات الجحيم.. ومازالت صورتها البهية أجمل ما تبحث عنه عيني لترتاح.. ومازال شهد ريقها الطيب يجري في دمائي حتى أكاد أتذوقه على طرف لساني.. ومازالت ذات سيطرة على كل المراكز الحيوية في الروح والجسد..

ولكن هل من الممكن أن يلتئم جرح الكرامة؟! وهل يمكنني أن أنسى - أو أتناسى - تفاصيل اليوم المروع، حتى تبهت بفعل الزمن؟! فيمكن حينئذ أن نعود لسابق حياتنا، ولو كانت حياتنا الأخيرة لا الأولى؟!..

وهل كانت الأزمة أن مها قد سبتني صراحة لأول مرة؟!..

الواقع أن ذلك نصف المشكلة.. ونصفها الثاني أنني قد ضربتها..

فلم يدر بخلدي يومًا أن أضرب امرأة، ناهيك أن تكون هذه المرأة هي زوجتي وعشيقتي وأم ابنتي..

فكيف ترديت إلى ذلك الجحيم وتلك الحقارة؟! وكيف أخرجتني مها العزيزي عن تقاليدي وعقائدي الثابتة لأصير زوجًا شريرًا يضرب زوجته ويتسبب في عقدة نفسية لابنته؟!..

كل ذلك صرته أنا؟!..

ومادامت الأزمة قد نشأت أساسًا بسبب جنون مها ونزقها، فما الذي يمكن أن يحملني عليه جنونها في أيامنا المقبلة؟! هل تدفعني لضربها ثانية حتى يصير ذلك سلوكي المعتاد؟! أو أن أبادلها سبابًا بسباب وأن تبادلني صفعة بصفعة؟! محال محال أن أسمح بأن يحدث هذا..

وهل من الخير لميسون أن تنشأ في هذا الـ «مارستان» وهذا البيت عديم القيم؟! أم بين والدين منفصلين انتهى كل ما بينهما حتى أسباب الخلاف والغضب، فتنعم بسلام لم يستطيعا تحقيقه وهما تحت سقف واحد، فتصير خسارتها أقل؟!..

وهنا تبزغ أزمة أكبر..

كيف سأترك ميسون خالصة لمها، فتغذّيها باندفاعها وتعاليها وسيطرتها حتى تصير نسخة مطابقة لها؟! وقد لا تكتسب ميسون ميزات مها غير العادية، والتي تغطي على مساوئها، فتصير كائنًا لا يحتمل، عاطلًا من أي ميزة، فتعاني في الحياة أشد المعاناة؟!..

ولكني أعود فأؤكد لنفسي أن ميسون ملاك رقيق غير مؤهل لاكتساب تلك النقائص كلها، كما أنني - من المؤكد - سيكون لي دور ما في تنشئتها وتقويمها إن لزم الأمر..

تبقى فقط أن أسأل نفسي وأن أجيب بصدق.. هل سأتحمل الحياة بغير أن أحتضن ميسون كل لية قبل أن أنام، وأن أرى ابتسامتها في الصباح فأستبشر بيوم جميل؟!..

وهل سأتحمل الحياة دون مها العزيزي؟!..

(٧٥)

في سهرة على العشاء في الفندق..

وبينما كنت أراقب ميسون على البوفيه، وهي تحاول أن توفّق طبقًا بنفسها، انتبهت أن مها ترمقني بتركيز، فتحولت إليها متسائلًا بنظرة حادة، فقالت وهي تحاول دفع الكلمات إلى لسانها دفعًا:

ـ أعتذر عن إهانتك..

هممت أن أقول إن الاعتذار يجب أن يشمل أشياء كثيرة في حياتنا، وإن الشتيمة الأخيرة والإهانة ليستا سوى كشف غطاء حاولَت عمرًا طويلًا أن تبقيه فوق علاقتنا. ولكن نفسي عافت الكلام فقلت بدافع الواجب:

ـ وتقبلي أيضًا اعتذاري.

ربما انتظرت أن نبدأ حوارًا جديدًا ولكني فاجأتها بصمتي..

كنت في الواقع تائها تمامًا.. أتأمل حالي حانقًا..

مازالت مها تملك مفتاح الدخول، فتقتحم غرفتها بالقلب في أي وقت، ومهما كانت الظروف..

لشد ما تُعذبُنا قلوبُنا.. أفٍ لها..

(٧٦)

وقديمًا جلست منهارًا في غرفتي، وصورة كبيرة لمها رشدي تطل عليّ من داخل إطارها الذي ثبّته أمام سريري مباشرة. جلست منهارًا

تطن في فضاء جمجمتي أحداث يوم مرعب آخر. ردد الفضاء على مسامعي شتيمة نجوى الفقي:

ـ بصراحة.. أنت كائن متخلف!

ثم تردد ما أعقب ذلك من صياحي، وصياح عمي رشدي، ونحيب مها يتردد وسط جميع هذه الأحداث كخلفية موسيقية حزينة تهدر كنهاية مأساوية لحب سماوي امتلأ بالعشق والأمل والنغم والغرام المستصفى من أعذب الأحلام والحكايات..

وأصرت أختي أن أقيم عندها وأن أستريح قبل أن أصل لقرار، وقضينا أمسيات كثيرة نتحاور ونتجادل. وتعرض مريم التدخل تارة، وتبكي تارة أخرى، وتسألني:

ـ ما ذنب مها؟!

فأثور في غضب محمّلًا سلبية مها كل الوزر..

وتدخل دكتور عبدالعليم، لكني قلت بحسم:

ـ لن أستطيع أن أعيش مع مها وهذه الإهانة محفورة في قلبي.

وبعد أسبوع زرت البيت، فتلقاني عمي رشدي وحده. وكان ـ ولابد ـ قد بلغه قراري من خلال دكتور عبدالعليم، وفي دقيقة واحدة أطلقت كلمتي القاتلة، فبهت الرجل واصفرّ وجهه وظهرت الخيبة على ملامحه حتى قاوم البكاء وهو يحني جبهته حتى لا أرى عينه المترقرقة بالدمع. عندئذ لم أحتمل البقاء، فانصرفت فورًا، وأنا أشعر أن روحي تتساقط في طريقي إلى الباب، وأن رائحة البخور تقف مشدوهة تتساءل كيف أنقض العهد المعقود بسحر لا ينفك؟!..

كنت أحث الخطو نحو الباب لأئد رغبتي المشتعلة في رؤية مها رشدي لآخر مرة..

من المؤكد أنني لم أكن لأحتمل تلك الرؤيا الأخيرة ولكني كنت أريدها ولو تسببت في قتلي..

(٧٧)

طارت أنباء الخلاف والطلاق المنتظر إلى الكويت..

وجاءني اتصال من عمي محمود العزيزي يطلب مني أن اذهب لاستقباله في المطار عند المساء..

كان محتدًا وكان رقيقًا أيضًا، كأنه لا يصدق ما يحدث ولا يدري كيف يتعامل مع الموقف. فهو أدرى مني بطباع ابنته، وإن لم يكن يعلم بكل ما دار في الأعوام السبعة الماضية من معارك طاحنة ومشاحنات عابرة. فقط علم من ابنته بأننا بصدد الطلاق. أما زوجته فلقيتني بتحفظ شديد فكأني أعرفها للمرة الأولى، حتى إنها لم تصافحني ولم تنطق بحرف حتى وصلنا البيت. وحال وصولنا نزلت من السيارة كالهاربة فدخلت شقتها، وصافحني الرجل وهو مضطرب لا يتغلب على قلقه، ثم قال:

ـ الصباح رباح.. سأنتظرك في الثامنة لنفطر سويًا.

همهمت:

ـ إن شاء الله يا عمي.

وصعدت إلى شقتنا في الدور الرابع، فقابلت مها على السلم تهرول هابطة إلى أهلها..

(٧٨)

في الثامنة صباحًا، كنت أمام عمي محمود في جلسة لا تضم سوانا.

ذكرت للحظة جلسات الظهيرة بالكويت فانقبض قلبي، وتحسرت على غرابة ما صرنا إليه...

قال الرجل بعد رشفة من فنجان قهوته:

ـ تعلم يا آدم أنك ابني، وأنك أعز عندي وأقرب من زوجيّ ابنتيّ سها وميادة. ولذلك لا أجد ما أقوله، فما عهدتك إلا رجلًا مسئولًا تعرف الأصول ولا تحتاج لمن يذكرك بالمعروف. كما أني أثق في رجاحة عقلك، لذلك سأكتفي بالاستماع إليك.

الحق أنني مازلت أحب هذه الأسرة، ولم لا، إذا كنت لا أزال أحب مها نفسها؟! ولكني أحاذر الولوج إلى باب الحنان والذكريات الذي لن يجعل من مهمتي شيئًا يسيرًا. حاولت الهروب من ذلك الحنان الذي يطوقني، فقد كان قراري محسومًا تقريبًا، ولذلك وضعت محمود العزيزي أمام الحقيقة الصادمة والقبيحة دفعة واحدة. وجم الرجل وهو يسمع الحكاية ولم يكن قد علم بالتفاصيل أكثر من أن خلافًا كبيرًا وقع بيني وبين مها، وأننا اعتزمنا الطلاق، فلما سمع بما حدث أصابه وجوم وجعل يهمهم وهو في حيرة من أمره. ثم ذهب وعاد ومعه زوجه التي جلست وهي على حال أهدأ كثيرًا من حالها أمس. جلسنا نتبادل النظر في حيرة وحرج، حتى قالت السيدة الرقيقة:

ـ إنني أعتذر لك نيابة عن ابنتي. لم أتصور أن يحدث ذلك منها..

ثم أردفت بعد لحظة وهي تشير نحوي بسبابتها:

ـ ولا منك!

ثم قالت وقد تحررت من حرجها فيما يبدو:

ـ كيف تسمحون لأنفسكم أن تصلوا إلى تلك الحال؟! هه؟! أبعد

سبع أعوام كاملة وهذا الحب الذي يربطكم، وبينكم بنت جميلة، تتصرفون بهذه الرعونة؟!

كانت السيدة الذكية تحاول أن تعود لأصل الخلاف، رغم علمها أنني هنا الآن من أجل الطلاق لا من أجل العتاب. ولكني لم أحمل لها إلا الاحترام والمودة التي تمنعني من مقاطعتها، لذلك التزمت الصمت بينما استمرت في الحديث، وقالت وهي تحل عقدة الإيشارب عن رقبتها في انفعال:

ـ يا آدم.. إن الله جعل الرجل أمينًا على الزواج ولم يجعل ذلك للمرأة، لأن الرجل يتحمل ويتفهم ويصبر، بينما المرأة قد تهدم في انفعالها كل شيء ثم تندم بعد ثانية واحدة.

ثم سألت كأنما لتؤكد كلامها:

ـ ألم تعتذر لك مها عن خطئها؟! هه؟!

أحنيت رأسي موافقًا، فانفرجت أسارير محمود العزيزي كأنما وجد أملًا لأول مرة منذ جلس. وقالت زوجه:

ـ لا تعتقد أنني في صف ابنتي. أنت ابني أيضًا، وبيننا عيش وملح قبل أن تكون خطيبها ثم زوجها. كنا نحبك منذ البداية ثم ازداد حبنا لك بالعشرة الطيبة.

أخذت الحلقة تضيق حولي إلى حد غير محتمل..

حاولت الرجوع إلى صلب الموضوع دون جدوى. أبت المرأة وزوجها إلا التذكير بما كان من ذكريات حلوة، والترهيب بمستقبل ميسون الغامض. ساعات طوال حتى مللت الجدل، فأنبأتهم أنني سأصرف النظر عن الطلاق على أن يضمنا لي سلوك مها في المقبل فيما يخص تعاملها معي، ثم فيما يخص علاقتي وتدخلي بشئون ميسون.

واشترطت أيضًا أن نفترق لبعض الوقت حتى أتمكن من تناسي ما حدث. ووافقت المرأة بحماس وكذلك محمود العزيزي، وقالت المرأة في سرور لنجاح مسعاها:

ـ لن تتحمل البعد عن ابنتك وزوجك المحبوبة أكثر من أسبوع أو أسبوعين!

فهززت رأسي مجاملًا في حيرة..

(٧٩)

حين عرضت أختي مريم ذات يوم التدخل للصلح بيني وبين مها رشدي رفضت بعنف، لأني رأيت أن إهانة نجوى الفقي أكبر حتى من الحب ومن الزواج، فلم قبلت الصلح اليوم؟! هل دفعني لذلك خوفي على ميسون أم حبي لمها العزيزي؟!..

في كل الأحوال، غمرني شعور مقيت بالذنب والألم.. وشعرت للمرة الأولى بأنني ظلمت مها رشدي..

قتلني هذا الشعور وحاصرني داخل نفسي في عنف حتى وددت أن أهدم العالم كله..

(٨٠)

استشاطت مها غضبًا حين علمت بالاتفاق، وطلبتني وهي تقول:

ـ هل كرهت عيشتنا حتى تهجرنا؟!

كبحت غضبي وأنا أقول:

ـ تستطيعين الجلوس مع والديك، فقد وافقا معي على هذا الاتفاق.

- ليس لي محامون ولا أولياء أمور.. تستطيع أن تنهي الموضوع معي أنا.

- لا أستطيع النقاش معك في الواقع.. وكل الطرق وصلت إلى «حارة سد».. حددي موعدا مع والديك وسأكون حاضرًا، وسألبّي جميع طلباتك.

(٨١)

عقد اجتماعنا مجددًا ولكن بحضور مها هذه المرة..

كانت حماتي متوترة جدًا، وكان عمي محمود متبرمًا ساخطًا لا ينطق، بينما غطت مها وجهها الجميل بقناع العراك المفضل لديها، واشتعلت نظرتها بالعناد البغيض..

بدأت أنا الحديث بدافع من نفاد صبري وغضبي من المهانة التي تتواصل بلا مبرر:

- اتفقنا منذ يومين، ولكن لدى مها ماتضيفه بشأن الاتفاق.. تفضلي..

- أنا لن أضيف.. أنا أرفض الاتفاق كله..

رفع محمود العزيزي رأسه بغتة في غضب، لكن مها واجهته بنظرة متحفزة في جنون، فصاح الرجل:

- هل جننت يا مها؟! ألا تحسبين حسابًا لي أو لوالدتك؟!

- هي حياتي يا بابا.. وكرامتي..

- حياتك هي كل همنا وكرامتك نصونها برقابنا.

- غير صحيح يا بابا.. أنا وحدي التي تتعذب بحياتي.. وبخصوص كرامتي، فقد عقدتم صلحًا مع من أهدرها!

هنا تدخلت في الحوار صائحًا:

- لا جدوى من النقاش معك كما قلت..

وهتفت حماتي:

- اذهبوا جميعًا للجحيم ولكن ما ذنب ميسون الصغيرة؟!

زمت مها شفتيها كالمغيظة وصمتت، بينما جلست أنا وقد اسودت الدنيا في عيني..

في لحظةٍ، حاصرني الماضي والحاضر والمستقبل..

حاصرتني دموع مها رشدي وأحزان مها العزيزي وابتسامة ميسون المشرقة في آن واحد.. ورأيت صعوبة قراري في هيئة جبل لا منفذ فيه للنور..

زفرت يائسًا في تسليمِ مَن اكتشف فراغ خزانة سلاحه، وقلت:

- تحت أمرك يا مها..

صمتت لبرهة وهي تحدجني بنظرة لم أفهمها. كانت قوية بغيضة متحدية.. ومنكسرة!

و قالت بصوت واضح:

- طلقني.. كن رجلًا وطلقني..

(٨٢)

وقع الطلاق كقدر محتوم..

تألمت في الواقع كما لم أتخيل. ومزقني فراق ميسون حتى الموت..

رأيت الدنيا بهيئة جديدة لم يسبق لي رؤيتها..

سوداء كالجحيم وباردة كجزر الثلج..

وفي أوقات جنوني أقول: هذا ذنب مها رشدي..

(٨٣)

كنت أتلقى في المساء مكالمات موجعة من ميسون التي تظنني في مهمة عمل خارج البلاد..

ترجوني في لهفة أن أريح حيرتها المتعبة، وسؤالها الذي لا أجيب عنه سوى بكلمة «قريبًا إن شاء الله»، فتعيد سؤالها في ضجر:

- يعني هل أنتظرك غدًا؟!

- لا يا حبيبتي..

فتتساءل في فزع وذهول:

- ألن تحتفل معي بعيد ميلادي؟!

فأكتم بكاءً يوشك أن يمزقني، وألعن مها العزيزي بكل ما أوتيت من غضب.. وألعن نفسي أيضًا..

وتعود فتقول:

- إذا كانت غيبتك ستطول فلم لا تأخذني أنا وماما معك كما كنا سويًا في الكويت؟!

- ميسون.. إنك تتعبين بابا.. سأشرح لك كل شيء ولكن ليس الآن..

- يا بابا أنا..

- ميسون.. بابا متعب ويريد أن ينام قليلًا.

- أما أنا فلا أنام.. لم أعد أنام.. أريد أن أنام في حضنك كما تعودنا..

وفي الليل تطوحني الكوابيس، وتزورني نجوى الفقي ومها رشدي ومها العزيزي وبكاء ميسون، فأستيقظ مفزوعًا ويلازمني كدر وحزن طوال اليوم التالي، ثم تغزوني كآبة لا تنمحي من يوم ليوم..

(٨٤)

بعد أشهر، تراجعت حدة الصدمة قليلًا قليلًا..

وبعد أن تعافى عقلي المذهول من هول ما يحدث، أخذت الروابط بيني وبين ميسون تتوطد على عكس ما خشيت. صرت بالنسبة لها المنقذ من غضب أمها المتقد دومًا، ومن حزنها وقلقها المزمن. وكانت مها تراقب ذلك التقارب بيننا بشك. واتهمتني يومًا بأنني أسعى لإفساد مابينها وبين ابنتها لأصير أنا الفائز الوحيد. ولكن الحقيقة أنني كنت أعد نفسي مسئولًا عن مآزق ميسون، مرة بسبب طلاقي لأمها، ومرة أخرى بكوني اخترت مها لتكون أمها! ولذلك فقد سعيت لأقلل من حدة آلامها وآلام ضميري..

(٨٥)

كنت أيضًا أتألم لعذاب مها..

فهي، بسبب شكّها وسوء ظنها المفرط الذي لا تملك معه قوة، تتردى في عذابات لا نهاية لها. لذلك قلت لها في حسم، أثناء اتصال تليفوني:

- أنت أمها.. ولن أستطيع أن أكون مسئولًا عن بنت في سن ميسون ولا أكبر منها. كما أن ما يحدث الآن لن يمحو ما كان يومًا بيننا..

فصمتت، وقد صورت لي خبرتي وذكرياتي أن وجهها تضرج بحمرة النشوة والحبور..

(٨٦)

بعد ذلك صرت أتلقى مكالمات ميسون المسائية بلا تعنت من مها كالسابق..

صارت هذه المكالمات مسكّنًا لي ولميسون، ومصدرًا من مصادر البهجة، قبل أن توافق مها بإلحاح أبويها على أن أصطحب ميسون معي إلى المصيف..

(٨٧)

في الإسكندرية قضينا أسبوعًا كاملًا..

طرنا إلى السماء كثيرًا، وأذبنا أطنانًا من مخاوفنا في البحر. وأيضًا سقطت فوقنا السماء مرات ومرات، ودهمتنا أمواج عاتية من الدمع والحزن..

تحاول ميسون طوال الوقت أن تفهم ما حدث، وتبتدرجني لشرح ملابسات الكارثة، ثم تصورت أنها تستطيع، بأصابعها الصغيرة الرقيقة، أن تجمع لوح البلور الذي تناثرت شظاياه..

(٨٨)

راودني طوال الرحلة خاطر خائن..

جعلت أفتش في ميسون عن مها العزيزي..

وجعلت بلا سبب واضح أتصور أنني أجالس مها من جديد..

وأمتعني كثيرًا أن أشعر بأن هذه الفتاة الصغيرة هي حاصل شراكتي مع المرأة البراقة الفاتنة التي لا تُمتَلَك ولا تروّض..

ولكن تفد ذكرى الطلاق على خيالاتي، كما تهجم الموجة الشرسة على أثر الخطوات المحفور برقة على الشاطئ، فيذوب بلا مقاومة..

(٨٩)

عدنا من الرحلة ونحن على مقربة من السرور، لكن الحزن كان بداخل دمائنا..

(٩٠)

لم تُطَمئن رحلتنا مخاوف ميسون تمامًا..

صارت مكالماتها المغسولة بالدمع أكثر حزنًا وأعمق شجنًا..

وروت لي كثيرًا عن أمسياتها المؤرقة والنوم الذي صار عذابًا.

وطلبت مني كل مرة أن أجد حلًا يعيدها إلى حضني ولا يبعدني عن البيت. وتسألني متحدية تحذيراتي:

ـ لم تسرعت وطلقت ماما؟!

(٩١)

انقلبت مكالمات ميسون من مُسكّن إلى جلسة لتحضير أشباح الجنون والغضب واللعنة..

ما إن تنتهي المكالمة حتى أضعني ومها في أعمق دركات جهنم..

وكثيرًا ما عفوت عني، وبقيت مها وحدها تعاني العذاب الأليم..

ثم أعفو عنها، إذا ما زارتني في منامي لائمة، أو وهبتني رحلة إلى فراديسنا السرمدية!

(٩٢)

صارت مها العزيزي في حياتي، كلقمة لذيذة وقفت في الحلق حتى أشرفتُ على الموت، ومازال في النفس ريحها الشهي ومذاقها اللذيذ..

(٩٣)

رجتني ميسون أن أحضر حفل عيد ميلادها، فوعدتها بالحضور.. وحذرتني أن أتخلّف عنه كالعام الماضي، فأكدت لها أنني سأكون أول الحاضرين..

كنت مبتهجًا لأول مرة منذ أعوام. وكان ابتهاجي بلا سبب مقنع إلا التعرف على نيكول رشيدوف بالمعرض صباح اليوم.. ضخت ابتسامة نيكول المشرقة دمًا حارًا في عروقي الباردة.. وربت لقاؤها قلبي الحزين حتى انقشعت أحزانه..

ولكني أيضًا كنت أنتظر يوم عيد ميلاد ميسون.. فمن ناحية، كنت أود أن يكون حضوري اعتذارًا لها عن غيابي الذي لا يغتفر العام الماضي. ومن ناحية أخرى، كنت أود الحضور ولو لساعات في هذا العش الذي جمعنا ذات يوم..

وربما كنت أود أشياء أخرى تمامًا.. كأن أنعم ولو لساعات بجوار مها العزيزي التي ألعنها صباحَ مساء!..

وذكرتني ميسون في نهاية مكالمتها بعذاباتها وأرقها المستمر.. فتراءت لي مها العزيزي بهيئة شيطان عنيد..

(٩٤)

ونمت والغم يحدق بسريري..

ورأيت مها العزيزي محل نيكول في لقائنا بالكافيتريا، وأخبرتني أنها روسية من أم مصرية، وقدمت لي وردة جميلة تقت إلى أخذها كذكرى من هذه المرأة الفاتنة، لكن الوردة انقلبت خنجرًا جرح يدي وأسال دمي..

(٩٥)

بقي خيط رفيع يعلقني بمها ويعلقها بي..

كان خيطًا روحيًا.. لا أعلم أهو مستمد من الحب الذي كان يومًا من أعظم ما شعرت به؟! أم أنه ذاته الذي كان سببًا في الماضي لانجذابنا السريع ووقوعنا في الحب، فلما ضمرت كل الوشائج وسكنت الانفعالات، برز مسفرًا عن وجوده الأصلي بغير ستار من حب أو عاطفة أو شهوة مغناطيسية؟!..

شعرت مها بمبتدأ قصة نيكول قبل أن تشعر نيكول نفسها بعاطفتي الوليدة، بل وقبل حتى أن أصارح نفسي بحب نيكول..

وأتاني منها يومًا اتصال عجيب، فاجأتني بقولها:

ـ ألا تلحظ أنك لم تعد تهتم بمتابعة ابنتك؟!

فاجأني سؤالها ولم تنطل عليَّ حجتها..

فهو أبعد ما يكون عن أفكار مها بخصوص تربية ميسون. ولكني أدركت في لحظة أنها تريد فقط أن تفتح بابًا للحديث المشترك، أو أن تجد منفثًا لغضبها الذي شعرت به نتيجة لتجاهلي لها يوم عيد ميلاد ميسون..

أحنقني غضبها كالعادة، ولكن شعورًا مخدرًا لذيذ المذاق كان يسيل بداخلي مبتهجًا باستمرار رابطة بيني وبين هذه المرأة الخرافية..

كما أبهجني أن مركز متابعة حياتي الشخصية في عقلها مازال نشطًا!..

(٩٦)

جذبتني مغامرتي مع نيكول إلى مدارات وأفلاك مذهلة وبعيدة..

في تلك الأيام، كانت مها العزيزي هي أداة الاستدعاء الوحيدة التي تعيدني للأرض..

فكلما غبت فاجأتني باتصال حانق يردني إلى وعيي وإلى الحقائق التي أحاول تجاهلها وأنا أحلق إلى مدن الأحلام الجديدة..

وحين غابت نيكول بسبب وفاة والدتها ثم اتصلت بي بعد أسبوع من الغياب، لم أكبح حماسي ولهفتي فيما يبدو. واستطاعت ميسون أن تلتقط خيوطًا مهمة، لم أدركها إلا لاحقًا..

(٩٧)

رأيت أن مها العزيزي قد علمت بنبأ قصتي مع نيكول - وكانت تشترك مع مها رشدي في روح وجسد واحد - واستدرجتني بحنان وإغراء، حتى مددت فمي لأقبلها، فصفعتني في عنف، فلما هممت بأن أرد صفعتها، لم أجد غير ميسون وهي تضحك وتداعبني..

(٩٨)

أصابني الحلم بالحيرة.. وتبين لي أنني قد أمزق نفسي وأنا أحاول أن أنزع مها العزيزي من حياتي..

(٩٩)

كنت مع ميسون على الغداء الذي دعوتها إليه اعتذارًا عن غيابي فترة طويلة عن لقاءاتنا المحببة.. فاجأتني بسؤالها عن نيكول بالاسم.. وجمت للمفاجأة، ولما سوف يقع كتوابع لهذه الهزة العميقة. لم أكن بحاجة للفراسة لأوقن أن كل شيء قد صار تحت سيطرة مها منذ هذه اللحظة! وأن علاقتي بميسون لن تعود أبدًا كما كانت. فقد أزكتها مها ولابدّ بقبس من نيران غيرتها وغضبها المتقد. وهربت ميسون من الإجابة عندما سألتها هل مازالت تثق بي؟! وقبل أن تنام سألتني في قلق:

- بابا.. ألا زلت تحب ميسون؟!

(١٠٠)

ميسون أم نيكول؟!..

الصراع الذي كان يخلفه السؤال لن أجد ما أصفه به..

إذا كان للحيرة معنى واحدًا، فهو في الواقع محاولة إيجاد جوابٍ شافٍ لهذا السؤال..

كيف تصير علاقتي بميسون؟! كيف سيستمر دعمي - القليل - لها؟! وكيف ستتلقى، وهي الغضة الخضراء، هذا التطور المذهل في حياتنا؟! وما تداعيات ذلك القرار في بيت آل مها؟! من المؤكد أن ذلك يدفع علاقتي بميسون إلى شفا جحيم قد لا ننجو منه..

(١٠١)

رغم استدعاءات مها العزيزي، فإنني قد انجذبت بقوة كالقدر إلى نيكول..

وفي اللحظة الحاسمة.. فزعت نيكول حين علمت بزواجي السابق وطلاقي..

وبعد عذاب وإلحاح، قبلت أن تجلس معي مرة أخرى، ورويت لها قصص زواجي وطلاقي. حكيت عن مها رشدي ومها العزيزي.. وأخبرتها بأنني ندمت قريبًا على طلاق مها رشدي، ولكنني مطمئن الضمير تمامًا لطلاق مها العزيزي التي لم تخلق للزواج..

لكن نيكول كانت قد أحبتني كما أحببتها، فلم تحتكم إلى عقلها كثيرًا، واتفقنا على الزواج..

(١٠٢)

انشغل بالي طويلًا - رغم غرقي في بحور نيكول - في تصوّر ردة فعل مها، وتوقع شعورها تجاهي وتجاه هذه العلاقة التي ضربتها في الصميم..

هل كنت أنتقم؟! أم تراني كنت أتمنى أن تعلن غضبًا حارقًا يفضح أشواقها ويرضي أشواقي المستترة إليها؟!..

(١٠٣)

بعد اتفاقي ونيكول على الزواج، لم أجد بدًا من أن أصارح عمي محمود بأمر زواجي من نيكول..

وجم الرجل كأنه تلقى صفعة مؤلمة. وقال بصوت مختنق:

- طالما انتظرت أن تجيئني طالبًا أن تعيد مها..

وحين عدت إلى بيتي، دمعت عيناي حزنًا لصدمة محمود العزيزي،

وتذكرت صدمة رشدي الصفتي قديمًا، فلعنت نفسي وأنا أتساءل أي حزن يلازمني؟!..

(١٠٤)

بعد يومين اتصلت بي ميسون، وقالت في فزع:

- هل ستتزوج حقًا يا بابا؟!

أغمضت عيني على ألم يتراقص كاللهب وسط سماء سوداء.

وقلت وأنا أتحسس موضع كلماتي:

- نعم يا ميس..

صمتت كثيرًا، حتى قلت:

- ميسون..

- نعم يا بابا..

- مالك؟!

- هذا يعني أنني لن أراك بعد الآن؟!

هتفت مكذبًا ظنها:

- من قال ذلك؟!

- ماما..

- أنت ابنتي الوحيدة، فكيف أنقطع عنك؟!

- سيصير لك أبناء آخرون..

- ستكونين إذن أكبر أبنائي..

- وها أنت تحرمني حتى من المبيت معك في الويك إند..

- لن يحدث.. ستأتين للمبيت معي كما تعودنا..

- ولكن زوجتك ستغضب.. وربما عذبتني!

ـ من قال ذلك؟!

صمتت مرة أخرى، فلما حثثتها على الحديث، قالت بنفاد صبر وهي تبكي من حملها الثقيل:

ـ ماما قالت ذلك..

فقلت بقوة:

ـ لا تصدقي إلا ما يقوله بابا..

وتمزقت وأنا أتصور حزنها. وددت ساعتها لو انمحى الكون فلا يبقى إلا أنا وهي، بلا أي وجود للحيرة ولا للحزن..

ردّني خوفها وترقبها لسؤالي المضني المؤلم.. ميسون أم نيكول؟! فغرقت فيه حينًا قبل أن تجذبني الموجة إلى نيكول من جديد فأجد مائة عذر ومائة مسكّن ومائة تبرير لكل ما أفعل..

(١٠٥)

أدركت مها أن تلك هي الطعنة الأخيرة لحبنا وأن ما بيننا قد ضاع للأبد..

واستيقظت حواس ظنها السيء، فأوحت لها بأنني أخطط للاستيلاء على ميسون بعد أن وجدت امرأة تستطيع أن تربّيها، ومن العجيب أن السبب الأخير كان أحد المسكنات التي بررت بها لنفسي زواجي من نيكول، لأسكت ألمي!

واتصلت بي يومًا، وكنت ـ طوال الفترة التي سبقت زواجي ـ أتمنى أن أستمع لصوتها، تحقيقًا للرغبة الملحة غير المفهومة.. هل كنت ألتمس في حديثها معي ما يطمئنني أن ما بيننا لم يحترق كله؟!..

قالت مها بصرامة:

ـ إني أحذرك من نقض عهودنا بشأن حضانة ميسون.

فقلت بصدق وأنا أتحرر من خداعي لنفسي:

ـ لن تكون ميسون يومًا سببًا لنزاعنا..

واستطعت أن أقنع نفسي أن وجود ميسون إلى جوار أمها هو الأفضل لها!

ما أعمق تلك السراديب الملتفة التي تتوه فيها نفوسنا وقراراتنا..

(١٠٦)

طوال شهر كامل..

كنت أعدّ فيه حياتي وشقتي لاستقبال نيكول، كانت تزورني غصة مؤلمة، مترعة حينًا بالشوق إلى مها العزيزي، وحينًا بالغضب منها، وحينًا بالخوف من أن ينبت الشقاق والنكد في بيتي الجديد وحياتي مع نيكول..

وكم قاومت شعورًا عجيبًا بأنني أخون مها! ولكني أسترجع ذكريات خلافاتنا المرعبة، فأطمئن إلى صحة قراري وأعيد تأكيدي بأن طلاق مها كان الحل الوحيد للحفاظ على الجميع..

(١٠٧)

ارتفعت أمواج نيكول حتى حجبت عن ناظري كل امرأة سواها..

استغرقتني حياتي الجديدة بنعيمها المختلف، ولذتها البكر، وحسنها المثير..

ولولا ميسون، لانمحتْ من نفسي ذكرى عمري السابق جميعه..

(١٠٨)

بعد شهر من زواجي، ذهبت لزيارة ميسون لأول مرة..

رحتُ مترددًا أتخبط في قلقي، مشفقًا من عواصف لا أجد لها موقعًا في حياتي بعد الآن، لكن بيت آل العزيزي فاجأني بهدوء مريب ومقابلة تتجاهل كل ما حدث..

أقبلت حماتي فسلّمت عليَّ مرحّبة، وقد أنابت نظراتها تبُثني تأنيبها وانتظارها لما أقدم عليه من تصحيح لخطئي الأول والثاني..

وجاءت ميسون تتعثر مثلي في الترقب، وطالعتني بنظرة كأنها تراني لأول مرة. هببت واقفًا واحتضنتها بقوة، حتىٰ ذاب تحفظها، ثم جلسنا نتبادل الحكايا والضحك. وانصرفت وقد أوشك ما خلّفه زواجي من أسوار أن ينقض..

لكن مها العزيزي قد احتجبت عني وإلىٰ الأبد..

لا أدري أكان ذلك حزنًا أم أنها تعاقبني ؟!..

(١٠٩)

عقب ليلة حميمة ورحلة ممتعة في غرفة النوم مع نيكول..

جذبتني مها العزيزي بغتة وبلا مقدمات. خلعت قميصي وقبلت صدري، فاستجبتُ بعد تمنع قصير، وذبنا في قبلة طويلة صعدتْ بنا درجات في الفردوس، تنبهت إلىٰ أنني لم أتسام إليها منذ طلاقنا..

(١١٠)

واستيقظت فزعًا مبهورًا لا أعلم أين أنا؟!..

ومرّت لحظة عجيبة، كنت أهبط فيها من علياء النشوة إلىٰ أرض

الواقع.. حتىٰ فغم أنفي عطر نيكول فاهتديت إلىٰ موضعي.. واحتضنتها أنشد الحماية من خوف لا أعلم مدىٰ خطره.. ومازالتْ رعدة تسري في بدني، ثم تنسحب هاربة كالحية حتىٰ اختفت.. داخل قلبي ولا شك..

(١١١)

سيطر عليَّ هاجسٌ خائن..

جعلني أقارن بين نشوات نيكول ونشوات مها العزيزي!..

وزاد من قوته انحسار مد نيكول، وسفور الملل والشقاق عن وجهيهما القبيح..

(١١٢)

حين ذهبت لعيد ميلاد ميسون هذا العام، كانت كل الأمور مختلفة عن حفل العام الماضي..

استمرت مها في الاختفاء البغيض، ولامتني حماتي كالعادة، بالكلمة تارة وبالنظرة تارة أخرىٰ...

وفي بيتىٰ كانت نيكول غير سعيدة، وإنْ لم تمنعني من الذهاب. لكن سعادة ميسون كانت وحدها كافية لأن أشعر بأن كل شيء محتمل..

ولكن شعوري هذا بالطمأنينة لم يستمر إلا لأيام قلائل..

فحين دعوتُ ميسون للغداء وللتعارف علىٰ نيكول، كنت أتوقع رفضًا من مها وأتوقع خلافًا، وربما شجارًا جديدًا. بل وربما تمنيت

حدوث ذلك لأستعيد قوة اعتقادي بأن مها لا تطاق، وأن طلاقها رغم كونه قد عرّض ميسون للخطر، كان قرارًا صائبًا! لكن المدهش أن شيئًا من ذلك لم يحدث، حتىٰ ارتبت وتساءلت: أي خطة تحاك في الخفاء؟!..

وعلىٰ الغداء، تبارزت ميسون ونيكول بالنظرات الحارقة، حتىٰ شعرت أن مها العزيزي حاضرة بيننا. تألمت لسقوط ميسون في هذه البئر الآسنة من الغيرة العمياء، وحدثتني مخاوفي بأنها قد تشربت أسوأ ما في مها، وكان ذلك أكثر ما خشيته حين قررت الطلاق وتركها وحيدة معها، فيا لشقائي!

وفي طريق عودتنا قلت:

ـ هل هناك ما يضايقك يا ميس؟!

فقالت في برود:

ـ أبدًا..

ـ هل تتخيلين أنني قد أنساكِ؟!

ـ ستكون أنت الخاسر..

وبثقة أكدت:

ـ لو فعلتَ لخسِرتَ أكثر مُجاباتِك صِدقًا!

ثم قالت في حزن:

ـ يومًا ما ستطلق نيكول كما طلقت ماما، ولكنك لن تستطيع أن تطلقني أبدًا..

(١١٣)

كانت علاقتي بنيكول تتآكل بسبب غيرتها التي اكتشفتها فجأة..

حينئذٍ بدأ حنقي علىٰ مها يتآكل أيضًا..

واستمرت في زيارة مناماتي..

(١١٤)

قبل أن أتم عامًا علىٰ زواجي بنيكول، قررت أن أصطحب ميسون لتبيت معي كما تعودنا..

أوشكت معركة أن تقع بيني وبين نيكول بسبب ذلك، ولكني كنت حاسمًا تمامًا. وحاولت نيكول بكل قوة أن تعكر مزاجي طوال مدة إقامة ميسون في بيتنا، حتىٰ إنها كانت تنام طوال اليوم كي لا تلتقي بها. ولكني نجحت في ألا تشعر ميسون بأي شيء من ذلك، وخرجنا في نزهات طويلة واقتربنا مجددًا حتىٰ عادت علاقتنا كما كانت أو كادت..

وفي ذهابي لاصطحاب ميسون وفي ذهابي لإعادتها، لم تخرج مها عن احتجابها..

(١١٥)

كما صار اجترار ذكريات وأغنيات وبخور مها رشدي عادة يومية، أمارسها في صحوي..

واظبت مها العزيزي علىٰ زيارتي في الأحلام، وكيّ خيالي بتفوقها النادر في فن الأنوثة، حتىٰ شعرت بوخز الضمير لاستسلامي أمام سحرها..

وأحنقني اختفاؤها الدائم عن عيني كلما زرتهم..

(١١٦)

دارت الأيام دورتها المرعبة..

ووجدتني وجهًا لوجه مع النهاية المقيتة التي تتكرر للمرة الثالثة..

فتتّ نيكول بغيرتها وافتعالها أزمات بلا داع، أساسًا كان متينًا..

ثم هوتْ على البناء بضربة قاصمة، وأشعلت فضيحة على سلم العمارة، لتعيد إلى ذاكرتي فضيحة الحضانة على يد مها العزيزي، ولتستدعي أيضًا صورة نجوى الفقي في اليوم الأخير..

(١١٧)

عقب الحادث المروع..

علمت أن مها العزيزي لم ترتكب جرمًا نادرًا يوم معركتنا القاصمة!

عرَفت أن الجنون سمة مشتركة أساسية في هذا الجنس العجيب..

وحين عجزت عن التفكير في طلاق نيكول، قررتُ بعد تفكير محموم أن أنقذ ميسون وأن أعود لمها العزيزي، علّي أعالج أخطاءً لم أحسب لها حسابًا منطقيًا وقت حدوثها..

وأخبرت نيكول بنيتي في اقتضاب.. وكانت لم تتعافَ من صدمتها الأخيرة فلم تنطق..

(١١٨)

هاتفتُ ميسون في سرور..

أخبرتها أنني أعد لها مفاجأة كبيرة ستسعد لها سعادة لا مزيد عليها..

واصطحبتها إلى حفل في الأوبرا لتسمع معي أغاني أم كلثوم، على أن أنهي إليها مفاجأتي بعد الحفل مباشرة..

كانت ميسون مسرورة تتمنى أن ينتهي الحفل سريعًا لتعرف المفاجأة المذهلة التي شوقتها إليها..

وكنت أنا أيضًا أتمنى أن أنهيَ إليها الخبر السعيد، لأرى التماع السرور في عينيها الجميلتين باستجابتي لأعظم آمالها..

كنت أعدّ الدقائق مثلها، وأنا أتخيل كيف سيكون رد الفعل في بيت آل العزيزي حين تخبرهم ميسون وتنقل إليهم نيتي..

(١١٩)

سار الترتيب كما خططت..

حتى وقعت المفاجأة المذهلة التي قلبت حياتنا رأسًا على عقب..

الثالثة والأولى

«هل كان الخطأ وقوعي أولًا في
الحب، أم استجابتي للكرامة بعد
أن أحببت، أم عودتي من جديد
لأصلح أخطائي؟!»

(١)

على المسرح الكبير بدار الأوبرا..
كانت المطربة ترتقى بنا إلى سماوات السحر وهي تشدو:

لو عدت لي..
ردّ الزمان إليّ سالف بهجتي

كنت منتشيًا بالطرب.. وطارت روحي محلقة في سماوات الذكرى وعهود الأمل والحب الأول..
ثم..
انقلبت حياتي رأسًا على عقب..

(٢)

اصطدم وعيي بكيان راسخ كالقدر..
صدمة مروعة اخترقت جدران قلبي ثم امتدت في سرعة كالموجة المزمجرة إلى أحشائي ثم كياني جميعًا..

توقّف عمري في لحظة عجيبة.. شَخَصَ بصري وصمَّ سمعي إلا عن صوت العود المنبعث من بقعة خيالية كائنة في عمق الزمان والمكان..

ولم تلبث هالة من نور أن بزغت من ذات البقعة.. ثم جعلت تتداح فتشمل تاريخي وحاضري.. ثم رأيت مستقبلي خلف ضباب مائج..

رأيت مها رشدي تجفّف دموعًا انسابت على خديها!..

كانت تنظر نحوي ثم التفتت مذعورة لمّا وقع بصري عليها..

أي قوة تلك التي تلزمني لأتماسك، أو ليستطيع جسدي أن يحبس الرعدة التي تضربه فلا تهتز القاعة بالجالسين؟!..

تركز بصري عليها بقوة كالمجذوب وقد انمحى الكون من حساباتي..

حتى وجود ميسون بجواري لم أشعر به!..

وقامت فجأة، فانسلتّ من الصف إلى خارج القاعة..

هببتُ في إثرها بسرعة. هرولت لأدركها، فإذا هي تجري بسرعة في تحدٍ غامض. لم أعبأ لغرابة منظرنا ولا لتطلّع الناس من حولنا في دهشة وفضول..

تملّكني تصميمُ من يطارد آخر خيط يربطه بالحياة، وجرت مها بتصميم من يهرب من الموت، ودلفت إلى موقف السيارات، لكنها عدلتّ فجأة عن خط سيرها، لتسرع إلى خارج الأوبرا ثم تندفع إلى تاكسي لم يلبث أن انطلق بها..

(٣)

وقفت مبهوتًا لا أصدق كل ما جرى في الخمس دقائق الأخيرة..

أي جنون يضرب الكون؟!..

(٤)

عدت إلى القاعة فوجدت ميسون أمام مدخلها بصحبة سيدتين يهدآن من روعها وقد انهارت من البكاء.. هرولتُ نحوها فاحتضنتُها في ندم قاتل..

سألتني في رعب وحدة:

ـ أين ذهبت يا بابا؟!

ـ لا يهم يا حبيبتي..

ـ من هذه السيدة التي قمت تجري وراءها؟! هل سرقت منك شيئًا؟!

(٥)

في السيارة، سألتني ميسون وقد هدأت قليلًا:

ـ ما المفاجأة التي وعدتني بها؟!

أيقظتني ميسون بكل معنى الكلمة..

جذبتني ميسون من رحلتي المفاجئة لزمانٍ، عرفت مؤخرًا أنني من هدمه فوق رؤوس الجميع بينما أبكي على ضياعه.. وردّتني إلى حاضرٍ لم أتصور أنني أملك كل هذه الرغبة في الفرار منه.. الرغبة التي تجلّت في ركضي المجنون خلف شبح لاح للحظات.. شبح قد لا يكون إلا وليد أفكاري المتخبطة وحزن روحي وندمي الذي استيقظ بغتة..

ـ يا بابا!

- فلنؤجل هذا الحديث يا ميسون..
- كيف؟! هل ألغيت المفاجأة؟!
- لا بل سنؤجلها قليلًا..
- لماذا؟!..
- أنا متعب الآن يا ميسون..

تولّت بعينيها في يأس إلى خارج السيارة المندفعة في غضب. وبعد قليل سألتني:

- من هذه السيدة التي جريت وراءها؟!

(٦)

على السرير، في غرفة ميسون بشقتي..

قضينا الليل مسهديّن قد شرد كلٌّ منا في حزنه..

لكنني في الواقع لم أكن بحزني بعيدًا عما أحزَنَ ميسون، بل كان حزنها وإحباطها هُمَا الحادي لقافلة أحزاني الغنية بالقلق والفكر التائه والخوف والرغبة في الخلاص والتكفير عن أخطاء قاتلة انتبهت لها فجأة..

راقبت ميسون وأرقها المهموم، فتساءلتُ: لم لا أنحاز إليها وأترك بقية الضحايا لمصائرهنّ اللائي كُنَّ - مهما كان ما حدث - أحد صنّاعها، على عكس ميسون المسكينة التي جنى عليها الجميع..

ولكن ألم يجنِ الجميع أيضًا على مها رشدي؟!..

(٧)

صار السؤال.. ميسون أم مها رشدي؟!

(٨)

حاولت ألا أطيل التفكير في هذا السؤال المصيري المرعب..

ولكنه كان راسخًا كالوجود ومُلحًا كالألم..

إذا كانت ميسون غير مسئولة عما جرى، فهل كانت مها رشدي مسئولة؟!

ألم تحمّل - أنت نفسك - جبنها وسلبيتها السبب فيما أصابها؟! فلم نفتح الآن التحقيق من جديد؟! ولمَ تعيد الحساب في تلك المعادلة الشائكة التي كادت تقتلك قبل أن تمنح نفسك حكم البراءة، رغم توسلات مريم وذهول رشدي الصفتي وانهيار مها نفسها؟!..

كنتُ مطمئنَّ الضمير قبل أن توقظك نيكول على الحقائق المفزعة..

(٩)

لا أدري ماذا حدث..

وجدتني أستيقظ بغتة في ظلام دامس، فعرفت أنني نمت وسط أفكاري المهتاجة..

ولكنني استيقظت، وأنا ممتلئ بالخطط وكأنني كنت أتلقى وحيًا..

(١٠)

قبل أن تستيقظ ميسون أو نيكول، وبعد صلاة الفجر مباشرة، خرجتُ من البيت إلى الأوبرا، أنفّذ الخطة التي أُمليَتْ على في منامي..

وقفت بالسيارة أمام الباب الكبير المفضي إلى موقف السيارات.

كان لا يزال مقفلًا، ولكني اقتربت فرأيت هناك نحو أربع سيارات.

فاطمأننتُ قليلًا..

جلست على السور أراقب الصباح الجميل الذي يلوح بكسل خلف الأشجار في هذا الفضاء الذي تناثرت به المباني الرقيقة المليئة بروح الفن، والمنطوية على سحر الأوتار الذي حرمتني منه حياتي المفزعة الطاحنة في الغربة والعمل والمال..

كانت نجوى الفقي أول من نفاك، وأول من قتلك، ولكنك تلتمس لها العذر الآن.. فكيف كنتَ تتخيل حياتك بغير هذه التجربة المريرة؟!..

كنت ستتحول لباحث أكاديمي رفيع القيمة، ضئيل القدرة على امتلاك أي شيء..

كنت ستضيّع عمرك في سطور الكتب والصحف وبين أخبار وكالات الأنباء، تحلل وتناقش وتقرر بثقة ويقين، ثم تندفع الحتمية التاريخية ومقررات القوى العظمى، فتهزأ من كل تحليلاتك ومناقشاتك وقراراتك، مرة بعد مرة!..

لولا نجوى الفقي إذن، لما عرفت تلك الحياة البراقة، وذلك الطموح المبهج، وتلك النساء الجميلات وهذه القصص من العشق..

ضحكتُ في نفسي من هذا التحليل، ومن قدرتي أخيرًا على التسامح مع عنف نجوى الفقي وقتلها غير الرحيم لحبي ولحياتي..

تُرى أما زالت نجوى الفقي على قيد الحياة؟!..

(١١)

ملأت صدري بعطر الصباح المضمخ بعرف الزهور والندى..

وامتلأتُ تصميمًا على استعادة براءة الزمان الأول..

(١٢)

صدق وحيي تمامًا!..

ها هي مها تنزل من التاكسي لاستعادة سيارتها..

(١٣)

أي مشاعر انتابت مها رشدي حتى تتغير ملامحها نحو خمس مرات في ربع دقيقة؟!

بلا سبب منطقي، توقعت أن أرى امتقاعها المرح كيوم فاجأتها بقدومي إلى الإسكندرية، ثم ابتسامتها وضحكها الجزل، ولكني لم أتصور أن أرى تلك الملامح الجامدة، والرعب الذي انفجر في نظرتها كأنها تطالع ميتًا..

توقّفتْ للحظة وهي تصارع مشاعر متضاربة، كما قرأتُ من ملامحها، ثم عدلتْ في قوة عن طريقها - إلى الباب حيث أقف - لتعود من حيث أتت، ثم هرولت مبتعدة..

تبعتها في سرعة حتى أدركتها، فإذا هي منهارة في بكاء صامت، لم تلبث أن انفجرت به حين ناديت باسمها..

- مها..

(١٤)

أدهشني أن أرى وجهها من هذا القرب مرة أخرى، فكأنني أرنو إلى وجه تاريخي لم أرَه إلا في الحكايات..

انقسم وعيي.. بين الماضي الذي انشق عن ملامحها المحفورة في القلب.. واللحظة الحاضرة المشحونة بمقدمات العواصف الضارية..

وتعثر كلامي.. فلم أدر من أي زمن أتحدث، وبأي لغة أعبّر، وأي المشاعر أستخدم؟!

هل أتحدث مستكملًا الجملة التي بترت في منتصفها منذ ما يقرب من خمسة عشر عامًا؟!..

وهل أعبر بلغة العشاق الذين طال غيابهم؟! أم بلغة الغرماء الذين جمعهم الزمان ليواصلوا مبارزة قديمة؟!..

وهل أستخدم شعور محب نادم على ما بدر منه؟! أم شعور مظلوم مجنيّ عليه؟!..

لم أكن قد حسمتُ هذه النقاط فيما يبدو في أثناء جلسات حزني ومراجعاتي.. فوجدتني تائهًا أرنو إلى عينيها السوداوين الغارقتين في دموع ساخنة، ومحاولتها كفريسة ضعيفة واهنة، الهروب من الفخ في هدوء لا يلفت إلينا أنظار المتربّصين بالجزيرة، في هذا الصباح الباكر.

ومرة أخرى هتفتُ بلا هدف:

- مها..

هذه المرة وقفت وهي تغمض عينيها في انهيار وتسليم. فقلت في حرارة:

- رغم كل شيء، هناك ما يجب أن يقال..

توقفت عن البكاء ولم تتوقف دموعها عن التألق تحت ضوء الشمس. قالت:

- إنني لم أطلب منك البقاء حين قررت الرحيل.. لم أتوسل إليك ألا تضيّعني وتضيع كل شيء.. ولكني أتوسل إليك اليوم بحق كل ما كان.. دعني وشأني..

لم تنتظر جوابي وهرولتْ مرة أخرى إلى بوابات الأوبرا..

(١٥)

طمرتني أمواج من اليأس، والحزن المفعم بالندم، حتى امتلأ حلقي بالألم..

(١٦)

لا أذكر كيف عدت إلى البيت..

ولكني فوجئت لدى دخولي بميسون وقد انخرطت في البكاء كليلة أمس، بينما احتضنتها نيكول بحنان. رمقتُ ما يحدث بتعجب وأنا ذاهل عما حولي. رفعت ميسون رأسها في غضب وهي ترمقني، بينما صاحت نيكول:

- آدم.. ماذا يحدث؟!

- لا شيء.. أنا متعب وأريد أن أرتاح قليلًا.

- تتركنا للجنون وتريد أن ترتاح! ! أين كنت؟!

وقالت ميسون:

- طلبناك كثيرًا على الموبايل فلمَ لم ترد؟!

تركتهما، وذهبت إلى غرفتي، وأنا لا أقوى على مواجهتهما، ولا أرغب فيها، رغم شفقتي عليهما. وخلدت للنوم وأنا تائه في مجرة بأكملها..

(١٧)

رأيت نيكول تحمل ميسون على حجرها، بينما راحت ميسون تتعجب من لون شعرها ونعومته وتحاول أن تصنع منه ضفيرة، ونيكول تضحك وتقبّلها. وراحت مها العزيزي وجاءت تعد سفرة

الغداء بثوب قصير، يعرض سيقانها البيضاء المثيرة، وهي ترقب لهو ميسون ونيكول باسمة. وفي ركن بعيد انتبذت مها رشدي جانبًا وهي تبكي في صمت..

ثم رأيت مها رشدي تجلس بذات الحال من الحزن والبكاء في صالة شقتي القديمة بالمطرية، ونجوى الفقي تدور حول رأسها بمبخرة. ناديتها طويلًا ولكنها كانت مغمضة العينين، تائهة في حركة رتيبة تهتز بها في ألم بين ستائر البخور ودوران أمها المستمر..

(١٨)

استيقظتُ فإذا بظلام دامس يغشى الحجرة، فتعجبت من نومي إلى المساء..

حتى صلاة الجمعة فاتتني. وقمت أترنح متخبطًا في كآبتي وحزني، فوجدت نيكول وميسون مندمجتين في حوار ضاحك. وفاجأتني نيكول وقد ضمت شعرها في ضفيرة كبيرة بدت كأنها سنبلة ذهبية! لبرهة تأملتُ ما يحدث بتشكك حتى تأكدت من استيقاظي، ثم ابتسمتُ رغم أحزاني. فأقبلت ميسون نحوي مبتهجة وهي تقول:

ـ أنا عملت ضفيرة لنيكول!

وقالت نيكول:

ـ سأعدّ العشاء..

أضأتُ التلفزيون وجلست وميسون في حضني..

غزاني ارتياح عارم للمفاجأة المبهجة بتعارف ميسون ونيكول وصداقتهما الناشئة، بل إن تلك المفاجأة قد تعادلت مع المفاجأة المدوية المليئة بالحزن واليأس التي أعيشها منذ أمس، فعدت لحالة من

الاستقرار كانت تحتاج لمعجزة كتلك التي حدثت..

(١٩)

قضيت الليل وحدي بعد نوم نيكول وميسون..

نحيت الأحزان وخلصت للذكرى، وللسرور الخفي..

مهما يكن فأنا سعيد..

من يصدق أنني في أربع وعشرين ساعة، أستيقظ فأجد بيدي عمري الماضي كله؟! كيف أرى مها رشدي في الصباح، وأجالس ميسون ونيكول في المساء، ثم تحادثني مها العزيزي في الموبايل؟! من يتصوّر أن يجري كل ذلك في يوم واحد؟! وكيف تنشأ بين ميسون ونيكول هذه المحبة الصادقة التي أستطيع بيقين معرفتها في عينيّ كل منهما؟!..

والأعظم من ذلك.. كيف كنت تقف على بعد ذراع من مها رشدي الموغلة في عمق الزمان وأروقة الأساطير؟!..

ما أمتع أن يمسح بصرك من جديد أركان وجودها الآسر، وأن يرتعش سمعك لوقع صوتها الأثير، وأن يذوب كلامك فوق حرارة بشرتها السمراء الناعمة..

مهما يكن ما قالته، فأنا سعيد..

(٢٠)

قلبي يحيا من جديد..

لا تلك الحياة التي وهبته إياها مها العزيزي فأنقذته من موته الأول.. ولكن حياته الأولى بكل تفاصيلها.. وهذه الخفقة العميقة

كانت لها وحدها، لمها رشدي، ولقد ظننت زمنًا طويلًا أن تلك الخفقة النادرة قد ذهبت لغير رجعة، وعددتُ ذلك ضمن خسائري التي قبلت بها راضيًا، ولكني أكتشف الآن أن تلك الخفقة العميقة كانت مخصصة لها وحدها، وهذا التهدج الذي يصيبك فتشهق، لتحتوي الكون بصدرك، لا يُصبك إلا أمامها.. وهذه الراحة التي تهدهدك لم يحدث أن غاصت في حناياك إلى هذا العمق، منذ ودّعتها للمرة الأخيرة..

مها رشدي.. ما أجمل اسمك! وما أعمق ما يشير إليه! لكأنه رمز مختصر لكل حيوات الكون.. والأهم أنه يحييني من جديد..

آدم حيّ.. والزمن لم يهرب كما توهمت..

لشدّ ما أسعدني هذا الاكتشاف..

(٢١)

ناديت باسمها كثيرًا كثيرًا، وهي منهمكة في حركة دائبة كالدراويش، متسترة خلف غلالات البخور، ونواح نجوى الفقي يدوّي كالطبل تاليًا رُقية مدغمة الحروف..

(٢٢)

انسحبتْ دنياي المعاصرة إلى الهامش كالستار..

وانفتح الأفق عن أمل وحيد لا ثاني له، أن تعود إليّ مها رشدي، وأن نستأنف حركة الزمن التي توقّفت قسرًا، وأن نغادر غرفة الإنعاش التي التهمت ما يقرب من عشرين عامًا من أعمارنا..

(٢٣)

على العشاء، سألتني نيكول في توجس:

ـ هل تراجعت عن قرارك بالعودة إلى مها العزيزي؟!

ـ تقريبًا..

لمعت عيناها للحظة، قبل أن تخفضهما نحو طبقها. وقالت وهي لا تنظر نحوي:

ـ لماذا؟!

ـ جدّت أمور..

ـ ما هي؟!

ـ لكل شيء وقته..

بدلال تنكّر بالإشفاق، سألتني في تودد:

ـ أما زلتَ غاضبًا مني؟!

ـ سيزول كل شيء بالزمن..

ـ ما معنى هذا؟!

ـ هل نؤجّل حديثنا من فضلك؟!

ـ لم؟!

ـ بالي مشغول..

ـ وهل هناك أهم من بيتنا ليشغل بالك؟!

ـ لا.. ولكن بعض المشاكل تفرض نفسها..

ـ أستطيع أن أجعل مشكلتنا شغلك الشاغل ولكني لا أريد..

ـ من الأفضل أن نؤجل الحديث..

ـ من الأفضل فيما يبدو أن أترك لك البيت..

ثم انسحبت من أمامي في إحباط وغضب..

(٢٤)

في عالمي الجديد، لم يهزّني تهديد نيكول إلا كما يحتك بكتفك أحد المشاة..

قضيت ليلة مؤرقة ثم نسيته مع الصباح..

كيف أصل لمها رشدي من جديد؟!..

(٢٥)

وأنا أسبحُ في دنيا تراءت لعيوني..
قصة أقرأ فيها صفحات من شجوني..
بين ماضٍ لم يدع لي..
غير ذكرى عن خيالي لا تغيب
وأمانٍ صورتْ لي في غدٍ..
رؤيا حبيبٍ لحبيب

(٢٦)

كيف أصل لرقم تليفون بيتهم الذي ضاع مني؟!..

وماذا أفيد إن توصلت إليه؟! هل سأتصل بها لأعتذر ثم أطلب مقابلتها؟!..

أما بيتهم فكم مررت أمامه صباحًا ومساءً منذ مقابلة الأوبرا، ولكني لم أمتلك شجاعة ولا خطة الدخول إليه. هل مازال البيت كما هو؟! هل مازالت نجوى الفقي تمارس سيطرتها على أهل البيت وأثاثه؟! هل مازال رشدي الصفتي يذهب كل صباح إلى الجامعة؟! وكيف تقضي مها أوقاتها؟! وهل تزوجت؟!..

انفجر السؤال في رأسي فترنحت..

لم يرد هذا الظن ببالي قبل اليوم؟! وكيف أغفل طوال عشرة أيام عن هذا الفرض القاتل؟! لم تقع عيناي على أصابعها ولم يخطر ببالي أن أفعل.. كنتُ أتحدث مع مها رشدي التي لا يملكها غيري.. فما أشد حماقتي..

حتى الفيسبوك لم يسعفني في العثور عليها..

فهل تزوجت مها رشدي؟!..

(٢٧)

في مكالمة نادرة ومفاجئة، طلبت مني مها العزيزي زيارتها لأمر مهم..

ولكن..

هل تزوجت مها رشدي؟!..

(٢٨)

كنت أشاهد التلفزيون، وأقبلت نيكول فجلستْ جواري، ثم التصقتْ بي واحتضنتْ ذراعي وأراحتْ رأسها على كتفي، ومدت نحوي ثغرها، فقبّلتها في شوق، ولكني لم أستطع أن أنتزع نفسي تمامًا من ذلك الفكر الذي استعبد عقلي وروحي..

هل تزوجت مها رشدي؟!..

(٢٩)

عند ذهابي للعمل، قفز إلى ذهني أن أزور دكتور عبد العليم!..

غصّ حلقي للذكرى وللألم، ولكني صمّمت على تلك الزيارة، ولم أصبر للغد، بل قدمت إذنًا وانصرفت من الشركة إلى الجامعة..

دار رأسي حتى ذهلت عن كل ما يدور حولي. هنا دارت كل الأحداث التي بنيت عليها عمرك. هنا كانت مها رشدي، وكانت السماء وكانت الأرض وكان الفرح وكان الأمل. ها أنت تعود إلى دارك ولكن مبتور الفؤاد..

وتلقيت صدمة طبيعية لم أحسب لها حسابًا. أحيل دكتور عبد العليم إلى المعاش. ولم أستطع أن أحصل على رقم هاتفه، فتوليتُ أجرُّ الخيبةَ ومزيدًا من الجراح القديمة التي نُكئَت بعنف..

وألّح عليَّ إحساس التيهِ فكأنني لا أعرف دنياي..

(٣٠)

لو عُدتَ لي.. رد الزمانُ إليّ سالف بهجتي
ونسيتُ ما لاقيت منه في ليالي وحدتي
يا هُدَى الحيران في ليلِ الضنى
أين أنت الآن؟! بل أين أنا؟!
تاه فكري بين أوهامي وأطياف المنى
لست أدري يا حبيبي من أنا!
أين أنا؟!

(٣١)

وفي المساء، عدتُ إلى البيت فوجدتُ نيكول قد أعدت لي السفرة كأيام شهر العسل..

أيقنتُ أنها تحاول استعادتي بإصرار، رغم جفائي وانشغالي..

وآلمني أن أوقن أيضًا أن سعيها سيبوء بالفشل.. إنك تحاورين جسدًا بلا روح يا نيكول.. لن أعود حتى تظهر مها رشدي مرة أخرى.. وقتها سينحلّ السحر الأسود الذي يشدني إلى هوة الصمت والحزن والوحدة والماضي..

لم تبال نيكول بشرودي، بل جعلتْ تحدثني بأحاديث كثيرة، استمعت إلى أجزاء منها بصعوبة، ثم قامت إلى غرفتنا، وعادت وهي تغني وقد أمسكت بيديها دمية خشبية بيضاوية الشكل قد لوّنت على هيئة امرأة في زي فلكلوري غريب. وضعتها نيكول على المنضدة أمامي، وقالت في مرح:

ـ سلم على ماريوشكا!

ـ ماريوشكا؟!

ضحكت نيكول وانحنتْ، فأمسكتْ بها في استعراض كالحواة. ثم أدارتها فانشقت نصفين، وأخرجت منها دمية أخرى أصغر حجمًا، ثم فتحت الدمية الصغيرة فأخرجت ثالثة أصغر، ثم رابعة وخامسة وسادسة. وأنا أرقب ذلك بصبر نافد، فلما انتهت قالت:

ـ هذه دمية روسية معروفة.. ولكني سأسميها من اليوم نيكول.. وسأسمي بناتها بنات نيكول!

ـ حقًا..

وفجأة خطر لي خاطر عجيب.. لم لا أستعرض الجروبات الخاصة بخرّيجي كليتنا على الفيسبوك؟! لابدّ أن أجد مها أو أحد معارفنا على واحد من هذه الجروبات. وبالتالي أكون قد اقتربت خطوة مهمة..

هببت فجأة، وقلت لنيكول:

ـ سأعود حالًا..

وذهبت إلى مكتبي وشرعت في البحث، ولم أنتبه إلا وقد تجاوزت الساعة الثانية صباحًا.. دخلت غرفتي فوجدت نيكول نائمة، فقبلتها معتذرًا..

ولكني كنت أكثر حزنًا لعدم عثوري على شيء ذي بال على الفيسبوك..

(٣٢)

في أوقات الفكر والتخطيط للبحث عن مها، كانت تعترض سبيلي خيالات معذبة..

نيكول..

النسمة الحارة الرقيقة التي أيقظتني بحنان من التجمّد في جزر الثلج.. أنت حب غير قابل للتكرار.. أنت هذه الآلة العجيبة التي تقودني في دروب الزمان المقبل والمنصرم.. دونك سيصير وجودي عبثًا وتنهار الأسباب التي تمدني بالقوة وبالعزيمة للحياة.. بل وبالعزيمة للبحث عن مها العزيزي ومها رشدي!..

لكأنك ميسون ابنتي.. خوفي عليك، وارتياحي حين أطمئن عليك، وقلقي حين أتصورك متعبة، واستحالة انفصالنا ولو انفرط نظام الكون..

(٣٣)

ورغم كل ما يحدث.. لم أستطع انتزاع كياني من الدوامة التي اقتحمت تيار حياتي الذي كان قد تهيأ للاستقرار..

لم لا تستمر حياتي دون مها رشدي؟! ولم سيطر عليَّ هذا الهاجس الحاكم بإعادتها إلى الحياة؟!..

ولم لا تعوضني حياتي السابقة بما أترعت من كنوز ومسرات، بقي بعضها كميسون ونيكول، ورحل بعضها لكن خلّف آثارة من بهجة لا تزول كما فعلت بك حياة مها العزيزي؟!..

لم لا تتسلى بكل ذلك عن حياة ماضية كنت واعيًا وأنت تنهيها؟!..

لم لا تنتفض فتقوّض هذا البناء الخيالي الذي يوشك أن يبتلع ما بنيته لعمرك المقبل؟!..

ولكني أعود فأقول إنني سأكتفي بالعثور على مها رشدي.. فقط أجدها.. لأراجع معها حساب عمر مؤلم مضى.. ثم أتركها..

ولكن.. هل تزوّجت مها رشدي؟!..

الآن.. بعدما عاينت من مرارة اليأس.. أتمنى أن تكون مها زوجة.. تحيا في اطمئنان، وفي أمان من غزو الذكريات المهلكة.. ولكنَّ أنهار الدموع التي سالت فوق خديها وحرقة الزفرات التي اهتز بها صدرها، لا يدلان إلا على كونها أسيرة لدى الذكريات..

(٣٤)

قالت نيكول في حزن:

ـ حتّام نؤجل حديثنا.. حتّام أهمل كقطعة أثاث من مقتنياتك؟! لقد أخطأت واعتذرت.. كما أن الذي دفعني للخطأ في الأصل هو أنني لا أتصور أن أفقدك.. فكيف أفقدك الآن؟!

أشفقت عليها.. وهممت أن أقوم إليها.. ولكنها ذهبت إلى غرفتها، ثم انخرطت في بكائها المعتاد..

(٣٥)

مضت حياتي من سيء لأسوأ..

سيطر عليَّ الشعور بافتقاد مها رشدي كوسواس قهري. وسد الحزن منافذ الهواء كأنه ولد لتوه. أهملت كل شيء وكل تفكير وكل عمل، وكأن لعنة أصابت حياتي، وكأن لقاءنا يوم الأوبرا كان مقصودًا، ومحسوبًا بدقة، لتضرب ضربة قاضية كانت تنتظر وقتها الحاسم..

(٣٦)

كانت نيكول تعاني متاعب لم أهتم - بل لم أتمكن بفعل الحيرة والفكر - من أن أعرف تفاصيلها..

صرتُ أمكثُ بالبيت كضيفٍ خفيف غير فضوليّ!..

أقضي الوقت كله مستمعًا لأم كلثوم، أو لبقية الأغاني التي ميّزت عصر الأغاني والبخور، أو أجلس بالساعات على الإنترنت، أحاول الوصول لطرف خيط يصلني بمها..

(٣٧)

واستجابة لطلب مها العزيزي، زرت بيت آل العزيزي..

استقبلتني حماتي في جدية، وقالت:

- ألا نضع حدًا لهذه المهزلة؟!

كنت مشتتًا ومهزومًا إلى الحد الذي جعلني أحني رأسي، رغبة في الفرار من نقاش لم يعد بيدي أن أتخذ أي قرار بشأنه..

ثم أقبلت مها العزيزي بملامح جامدة، لم تختلج ولو قليلًا، ردًا على بسمتي التي انفلتت فور رؤيتها.. كانت المرة الأولى التي أراها منذ احتجابها بعد زواجي من نيكول..

رباه..

ما هذا الشحوب والضمور الذي امتص روحك أيتها المرأة المخلوقة من أنهار الجنة وحرارة الجحيم..

وخرجت أمها، فقالت مها بلا تمهيد:

- من تكون السيدة التي طاردتها في الأوبرا؟!

باغتني السؤال كآخر ما ورد ببالي أن يكون محورًا لحديثنا، وأيقظني من حزني لشحوبها العجيب. تملكني حنق بالغ من تصرف ميسون، ثم من سؤال مها. وللحظة همّت كرامتي بالثورة، ولكني لدهشتي لم أفعل، بل التمس عقلي العذر لميسون. فهي بلا شك تروي لأمها كل ما يحدث ببراءة، وبلا إدراك لمعنى ما ترويه. والتمس قلبي العذر لها أيضًا..

جعلتُ أتأمل غيرتها للمرة الأولى كما لو كانت منحة من منح الحب اللذيذة!.. ولدهشتي أيضًا، وجدت أن ذلك - الحب - هو التبرير الوحيد لما يحدث الآن، وليس رغبتها في النكد كما تصورت دومًا..

دهشت لهذا الهدوء الذي احتواني، ولهذا التبرير الذي يعتمل بعقلي. سأتفكر لاحقًا في أسباب ذلك التغيير، ولكن بعيدًا عن حرارة هذه النظرات الحارقة التي شوتني بسؤالها المباغت. قلت:

- ليست إلا صديقة قديمة

- من تكون؟!

ـ هل أنا في تحقيق؟!

كبحتُ من سرعة حماسها الذي أوشك على الانفجار، وبدت وكأنها نسيت أننا سنحتفل بعد أشهر بمرور ثلاثة أعوام على طلاقنا!

ـ لا تحقيق ولا غيره.. لا سلطة لي عليك كما تعلم.. ولكن من حقي أن أحمي ابنتي من نزوات أبيها.. خاصة إذا كانت بصحبته..

تلقيت تقريعها بهدوء، وقلت:

ـ لا خطر على ابنتك ولا نزوة..

لم تستطع مها استئناف الأسئلة، ولكنها قالت:

ـ لستُ في حاجة لتحذيرك ولا لتنبيهك بأن ميسون هي كل ما تبقى لي في حياتي..

ثم انصرفت، وأقبلت ميسون فاصطحبتها إلى بيتي..

(٣٨)

أي أرض تلك التي رقّت قشرتها فصارت حقلًا للبراكين الحارقة؟!..

كيف اطمأننت يومًا لصلابة الأرض تحت قدميك؟!..

وكيف وثقتَ بسلامة مواقفك وقراراتك؟! وكيف استحالت الأيام ـ من وقت معركة نيكول ـ قنابل موقوتة وألغامًا؟! كيف يضطرب مجرى الحياة حتى لا أتمكن من تنفيذ قرار واحد أصلح به عذاب ضميري؟! وكلما يممت شطر وجهة، جذبني انفجار مدوٍ وصرخة استغاثة جديدة، نحو وجهة أخرى..

مها رشدي تظهر من جديد، وتنشأ المودة بين نيكول وميسون بلا تمهيد، والآن تنشب مها العزيزي سهامًا متمكنة في القلب المتهرئ..

(٣٩)

اليوم أنعمت النظر في وجه مها العزيزي لأول مرة منذ طلاقنا..

هل كنت مشتاقًا إلى استحلاب ملامحها المذهلة؟! أم أنني سعيت لتكرار تجربة الشهر الماضي حين تمكّنت من القفز فوق أسوار الزمان حتى طالعت ملامح مها رشدي بتمعن؟! هل كنت أقارن بينهما أم كنت مشتاقًا إليهما معًا؟!..

مهما يكن.. فإن شيئًا من السعادة يرفرف داخل حاشية من المخمل، في معزل عن كل ما يمت للواقع ولحسابات العقل بصلة..

أما فيما يتصل بالواقع، فقد آلمني أن ألمح ذلك الشحوب الذي أطفأ تألق محيّاها المشوب دومًا بحرارة وحمرة الحياة. كانت أنحف من أي مرة، وكانت حزينة حقًا. لم تكن مها في أي يوم على هذه الحال من الحزن والتسليم.. وما أصعب قولها في انكسار: «لم يبق لي في الحياة غير ميسون»..

(٤٠)

ما أكثر ما أتلفتُ من تحف نادرة تحت دعاوى الكرامة..

(٤١)

ليس عجيبًا يا مها أن تكوني أحلى أقداري وأكثرها مرارة..

فأنت الحب وأنت عذاباته كلها..

مها العزيزي.. آن لي أن أعترف أنني أحبك.. كنت وما زلت.. وأنني أرى الآن كل حماقاتك بتلك البساطة التي كنت أراها بها أيام خطبتنا.. وأنني أوشك على أن أضع نفسي إلى جوارك في قفص

الاتهام، إذا نادىٰ القاضي علىٰ المتهمين بخراب عشنا الجميل..

كنتِ مستفزةً وكنتُ سهل الاستفزاز..

كنتِ خائفةً وكنتُ مشغولًا..

كنتِ تشكين وكنت مريبًا..

كنتِ تصرخين لأعود فأجفل من صراخك وأوغل مبتعدًا..

أي ألم، وأي جنون هذا الذي يفتح لي دفتر الإجابات لأقرأ إجاباتي البائسة الخاطئة مصحوبة بالتعديلات النموذجية؟!..

كيف غابت عن عيني هذه الحلول اليسيرة؟!..

ولم ظننت دائمًا أن الخطأ هناك وأنني لا أخطئ؟!..

ولم كان الصبر يتوارىٰ في هذه اللحظات الحاسمة ويبرز الغضب؟! مرة ومرة ومرة والأخطاء تتكرر بلا أمل في صلاح الأحوال..

وأي قوة تلك التي تعيدني الآن لنقطة البدء، وتأمرني بلا إبطاء أن أعيد السير في هذا الطريق الوعر المسمىٰ بالعمر.. ولكني أسير هذه المرة محملًا بحمول مرهقة من الذكريات والأحزان والمصائر المتشابكة والقرارات العسيرة..

(٤٢)

لست سفاحًا ولا مجرمًا.. ولا وددت أن أكون ذلك الرجل..

ولكن كيف وصلت لهذه النهايات الدامية؟!..

هل كان بإمكاني التغاضي عن سبّة نجوىٰ الفقي وسلبية مها رشدي؟!..

هل كان بإمكاني الصبر قليلًا حتىٰ أتمكن من التوفيق بين رغبة أم ـ ترىٰ أن قلبها لن يسعفها لتعيش طويلًا وترغب في قضاء هذه الأيام

قرب ثمرة فؤادها الوحيدة ـ وعملي الذي كنت ولابدّ سأجد غيره وغيره ولو طال الوقت؟!..

لم لم أفكر في السفر وترك زوجتي مع أمها عامًا أو عامين؟!..

لم أصررتُ أن أحوز كل شيء أو أن أشعل النار في الجميع؟!..

ثم هل كان بإمكاني العودة للقاهرة بعد سفري لأعيد إصلاح ما كسرته؟!..

أم أن لقائي بمها العزيزي قد أمدني بمزيد من القوة لأتمادىٰ في الطريق الخاطئ؟!..

ولكني كسرت مها العزيزي أيضًا، ورحت أخلق من هفوات صغيرة، حالات من الملل القاتل لأبرّر هروبي إلىٰ فيكتوريا وغيرها. وثارت كرامتي حين واجهتني مها باكتشافها العلاقة بيني وبين الإفريقية الجميلة، فهل كانت لتقف صامتة وأنا أضرب جدران بيتها بمعول أعمىٰ؟!..

وكيف سعيت لأجد حلًا لمشكلة سيطرتها التي رفضتها؟!..

وهل كان بإمكاني التهاون بشأن شتيمتها الأخيرة وإصرارها المؤذي علىٰ الطلاق؟!..

لم تزورني الأسئلة وتمتنع الإجابات عن المرور بي؟!..

(٤٣)

بعد الإفطار يوم الجمعة، قالت ميسون في وشوشة:

ـ بابا.. إن نيكول ليست كعادتها!

ـ مالها؟!

ـ شاردة وحزينة..

- آه..

- كما تبدو مريضة..

- مريضة؟!

(٤٤)

هذا يوم سعدي ولا شك..

على الفيسبوك، عثرت على بروفايل ميسون، صديقة مها رشدي، بعد بحث وخطط وحسابات مطوّلة لإمكان الوصول إلى أي منهما. عرفت أن مها لم تتزوج، وبعد نقاش استمر نحو ساعتين استطعت إقناعها بإعطائي رقم موبايل مها، ولكن رفضت إعطائي عنوانها الجديد. سجلتُ الرقم على هاتفي، وسجلته في دفتر على مكتبي، زيادة في التأكيد!..

ثم ذهبت إلى غرفة ميسون النائمة، فاحتضنتُها وخلدت لنوم عميق..

(٤٥)

هذه المرة، رأيت مها تجلس في حديقة ترنو إلى الفضاء الواسع بلا أي تعبير على وجهها..

(٤٦)

استيقظت متأخرًا. ولدى استيقاظي، عاودني انتصار الأمس، فامتلأت نشاطًا وحبورًا..

وجدت نيكول وميسون تعدّان الإفطار، وصاحت ميسون:

- ها هو بابا قد استيقظ..

ولكن نيكول لم تعلّق، ولم يبد الارتياح على وجهها. لم أهتم كثيرًا في الواقع، وجلست للإفطار، وبالي يحلّق خلف الأمل اللعوب الذي لا ينفك يجذبني ويطوف بي عرض السماء وطولها..

وانتبهت إلى مفارقة عجيبة، في هذا المكان كنت ذات يوم أجلس وميسون أيضًا، ولكني كنت أحترق بسبب غياب نيكول المفاجئ، كنت أشعر بأن غيابها سيتسبب في موتي وفي فناء الكون. وها هي نيكول أمامي.. ولكني أحلم بلقاء مها رشدي!..

كيف تدور الحياة وماذا تروم نفوسنا؟!..

(٤٧)

جذبني نقاش يدور بين نيكول وميسون، فالتفت إلى ما هما فيه من الحديث. كانت ميسون تقول:

- حين أكبر لن أتزوج أبدًا..

فقالت نيكول:

- لا تقولي ذلك يا حبيبتي.

- سأعيش مثل ماما.. ولكن بلا ابنة تعذبني!

وضحكت ميسون، لكن نيكول تجهّمت، ورمتني بنظرة نارية لم أفهم لها سببًا..

(٤٨)

بعد الإفطار، قامت ميسون للمذاكرة. فقالت نيكول:

- أرى بعيني مستقبل ابنتك وهو مدمر..

رفعت نحوها عيني في فزع، فقالت:

ـ ألا تفكر كيف يمكن لفتاة صغيرة أن تعيش بعيدًا عن أبيها.. خاصة إذا كانت تحبه؟!

ـ أنتِ التي تقولين ذلك؟!

ـ كانت أعظم مصائب قدري بعد فقد أبي، أن أحبك وأن أقبل الزواج منك..

ـ مصيبة؟!

ـ كنت أدرك منذ اللحظة الأولى أنه من الواجب ألا تكون لي وحدي..

ـ نيكول، اسمعي..

ـ لست أناقشُك.. ومن المؤسف أن أوقن أن زمان المناقشة قد فات..

ـ لم تقولين ذلك؟!

في غموض قالت:

ـ ربما عرفت يومًا..

ثم أردفت وهي مغرورقة العينين:

ـ لا تدع ابنتك وحيدة!

كالعادة.. أظلمت الدنيا حولي إثر انفجار القنبلة المخصصة لليوم..

أين أسير؟! وكيف أصلح وشائج تزداد تمزقًا كل يوم؟! وكيف أنقذ حياتي التي تندفع شظاياها في كل اتجاه؟!..

ليت لي ألف يد كما أن لي ألف قلب..

(٤٩)

مها رشدي.. مها العزيزي.. ميسون.. نيكول..

(٥٠)

مساء السبت أخبرتني ميسون ـ ونحن في طريقنا إلى بيت جدها ـ بدعوة جدتها لي لحضور سبوع ابن خالتها. وقالت:

ـ طلبت مني تيتة أن ألحّ عليك ولا أتركك حتى تخبرني أنك ستأتي!

فضحكت وقلت:

ـ طلبات تيتة وطلبات ميس أوامر..

فقالت في امتنان ورضا:

ـ حقًا؟!

ـ طبعًا..

ومدت بصرها إلى الطريق في سرور حالم..

لو لم تنفجر تلك القنبلة المروعة يوم الأوبرا، لكنت اليوم يا ميسون أسعد الناس بالمفاجأة التي كنت على بُعد دقائق من الإفصاح عنها، لأملأ عمرك سعادة..

(٥١)

باندفاع وربما بيأس وحزن، وبلا أي تفكر في واقعي المأزوم طلبت مها رشدي..

وقعت المعجزة ووافقت مها فورًا على لقائي الأربعاء المقبل..

(٥٢)

لدى عودتي إلى البيت مساءً، كانت نيكول كعادتها مؤخرًا، شاحبة مغرورقة العينين. أشفقت عليها دون أن أتمكن من معرفة ماذا أفعل لأهوّن حزنها. وبادرتني فور جلوسي وقالت وهي أمام اللاب توب:

- ربما سافرت إلى روسيا خلال أيام..

صفعتني جملتها، فتركت مجلة كانت بيدي، ورمقتها غير مصدق. فقالت:

- استطعت أن أجد عددًا من أقاربي على الفيسبوك.. وقد أسعدهم أن نتواصل من جديد ودعوني للسفر وقضاء بعض الوقت معهم!

على الفيسبوك؟! في الوقت الذي ألقيت بنفسك فيه تبحث عما غرق، كانت أشياءً أخرى ظننت أنها بأمان على الشاطئ تغرق هي الأخرى..

كنت توغل في طريق الماضي لتصحح أخطاءً ذهبت، بينما نيكول تجد في البحث عن أهلها لتجد ملاذًا بديلًا عن قلعتك التي لم توفر لها دفئًا ولا حماية..

هتفت في فزع:

- أي هراء؟!

- هي الحقيقة التي يجب أن نواجهها..

- لن أسمح لكِ..

- لا تتسرع في القرار..

- لا نقاش..

- لا تصعب مشكلتنا من فضلك.

- أنت تهذين..

- بل عدت إلى عقلي.. أو أحاول العودة إليه في الواقع.

ثم أردفت:

- في غيابي تستطيع أن تجد متسعًا من الوقت للتفكر في أزمتنا..

- لن أدعك تسافرين..

- للأسف سأسافر..

- ولكنك طالما رفضت التفكير في ذلك..

فقالت في حزن لخّص كل شيء:

- لم يعد للدفء موطن في هذا البيت..

ما الذي يكبّلني فلا أقوم لأحتضنها وأطرد أسراب الرعب والبرد التي تحدق بها؟!..

إنك لم تقو على طلاقها، ولكنك تصر على عقابها انتصارًا لكرامتك وثأرًا لكل ضحاياك.. فأي شيء تعلمت من دروس الماضي؟! وأي شيء تغير فيك؟!..

لم أعثر على جواب..

(٥٣)

يوم الأربعاء الموعود..

أقبلت مها رشدي بخطوات مضطربة، ثم جلست في جمود، وهي تنظر نحوي نظرتها إلى وحش ضارٍ. قلت لأكسر عنف اللقاء:

- مها.. كيف حالك؟!

- بخير..

- لم أتصور أن أعثر عليك بعد هذا العمر..

- من المؤكد أنه طالما أفزعك أن يجيء هذا اليوم..

- ولماذا؟!
- لا أتصوّر أن يُسر قاتل بلقاء ضحيته التي ظنها قد دفنت..
- ماذا تقولين؟! أنا آدم يا مها..
- هذه الأغنيات العذبة أيضًا قُتلت منذ زمن..
- هل تكذبين شعوري؟!
- بل أكذّب وجودك كله..
- أنا مظلوم يا مها..
- أنا على ثقة من ذلك..
- تصدقينني؟!
- بل أنا على ثقة من أنك تصدّق نفسك.. ولذلك جئت.. لأنزع عنك هذا الثوب الذي لا يليق بك.. ولترى حقيقتك بلا غطاء..
- أي عذاب..
- يعذّبك اللوم؟! فكيف لو جرّبت الغدر، وفراق الأحبة، وموت الوالدين بسبب الحزن عليك؟! تتعذب وأنت في الكافيه تتأمل ملامح ضحيتك بهذه النظرة المغرمة وبذات الأغنيات التي طالما سلبت بها قلبها الصغير؟!
- مها.. من فضلك..
- حسنًا.. لن أقاطعك.. خذ وقتك في المرافعة..
- إنك تقتلينني..
- ها هي بطاقتي الشخصية.. انظر إلى ختمك الجميل الذي يزينها.. «مطلقة».. هل ترى كم أنت منعم وسخي؟! هل عرفت ما هو القتل؟!
- لم أكن في الجنة أحيا.. صدقيني.. عانيت أنا أيضًا حياة مريرة.. واليوم أعرف أنني كنت أكفّر عن ذنبي معك..

- لا لا.. أنا لم أطلب من الله ولو مرة أن يعذبك..
- وها أنت تعذبينني..
- ماذا تريد اليوم يا آدم؟!
- أن نمحو الماضي.. كل آلام الماضي.. سيتطلب ذلك جهدًا غير عادي ولكني مُصر على ذلك..
- حقًا؟!
- لقد عانيت بعيدًا عنك حياة قاسية وإخفاقات مروعة.. كلما بنيت بيتًا هبت عليه ريح سوداء فخلته أطلالًا..
- من المؤسف أن أسمع ذلك..
- إنك تتصورين أنني كنت نذلًا ترك زوجته وسافر ليجمع أموالًا.. ولكنك لا تذكرين شيئًا عن الأسباب التي دفعتني لذلك.. أعلم الآن أنني كنت مخطئًا ولكن الصدمات كانت عنيفة.. وكنت أنت بصمتك وسلبيتك جزءًا منها.. ولكنك لا تعلمين أنني تعذبت بحبك إلى اليوم.. هل تعلمين أنك طالما زرتني في منامي وفي أحلام يقظتي، تنشدين بعضًا من أعذب أغنياتنا؟! هل تعلمين أنني كلما وددت الهروب من حياتي لا أتمنى إلا أن أجدك من جديد كما حدث يوم لقائنا الأخير بالأوبرا؟!..
- سيلزمني عمر لأستوعب حديثك..
- هي الحقيقة وحدها..
- كنت تتمنى لقائي حقًا؟! ألم تخش قسوة الحساب، ومرارة الحكايات التي لا تعلم عنها شيئًا؟!..
- بل كنت لا أتمنى إلا لقاءك.. كنت أحلم بأن أحتمي بك من حرارة الندم.. وأن أهب عمري الباقي للتكفير عن كل لحظة حزن وكل ألم كنت سببه..

صمتت مها تمامًا. ربما كانت تزن كلامي، وربما راجعت انطباعاتها السابقة كما فعلت وأنا أراجع قراراتي واختياراتي الشهر الماضي..

سألتني فجأة:

ـ من الطفلة التي كانت معك بالأوبرا؟!

فرحت لسؤالها، وعددت ذلك تراجعًا ما عن موقفها الحاد. قلت:

ـ ابنتي.. ميسون..

انتبَهتْ للاسم كما وضح من نظرتها، وقالت:

ـ أسميت ابنتك ميسون؟!

ضحكتُ وأنا أقول:

ـ على اسم صديقتك!

افتر ثغرها برقة، فومضت بسمتها المحبوبة في سماء قلبي للمرة الأولى منذ دهور. وقالت بحياء:

ـ بحسب عذابك الذي ترويه تخيلت أنك أسميتها مها..

ـ مها هو اسم والدتها..

رمقتني بعمق. كانت تبحث عن كلمات وربما عن تفسير. وقلت:

ـ منذ اللحظة الأولى ارتبطت باسمها ثم ارتبطت بها!

ـ اسمها مها؟!

ـ ولذلك أحببتها..

ـ لا أصدق هذا العبث..

ـ ولم؟!

ـ تركتني أنزف دمًا ودموعًا ثم تزوجت فتاة أخرى لأن اسمها يذكرك بي.. أي جنون؟!..

ـ هو الحب يا مها..

ـ دعك من تفسير ذلك.. وأخبرني كم أحببتها؟!..

ـ كانت على النقيض منك في كل شيء إلا أنني أحببتها.. ربما بسبب اسمها المحبوب.. ومضت حياتنا هادئة حينًا وحينًا وسط أمواج كالجبال.. وأنجبنا ميسون.. ثم مضى ما بيننا يتلاشى شيئًا فشيئًا لتحل بدلًا عنه علاقة جديدة ملؤها الغضب والعراك والألم.. وانتهى الأمر بطلاقنا..

فغرت فاها، وقالت:

ـ طلقتها؟!

ـ نعم..

ـ وابنتك؟! كيف هان عليك؟!..

ـ كان الخلاف أكبر من الحل، وكان جرحي من خلافاتنا أعمق من قدرة أحد على أن يشفيه..

ـ كلمتك القديمة!

همت بالدفاع عن نفسي، لكنها نظرت بعيدًا وهي تقول:

ـ أنا آسفة أن أسمع ذلك! ولكن لو سألتني النصح، يجب أن تراجع نفسك بشأن الكرامة المزعومة..

وكزتني نصيحتها في قلبي، فصمتُ تمامًا. ولكنها أشفقت عليّ فيما يبدو، فقالت:

ـ ما زال أمامك وقت لتصلح خطأك.. اذهب بلا إبطاء إلى زوجتك، صارحها بما يؤلمك واسمع منها ما يؤلمها، ثم ردّها فورًا، واحم ابنتك من الألم والحزن..

ـ للأسف.. لم يعد ذلك سهلًا..

ـ لماذا؟!

ـ لقد تزوجت منذ عام..

تجلّى على وجهها خليط من الدهشة وخيبة الأمل، وقالت:

ـ لا عجب إن قلتُ إن لك وجه ملاك وقلبًا من حجر.. أو لا قلب لك على الإطلاق.

وخيل إليّ أنني لمحت ارتياحًا على قسماتها، فربما تأكدت أنني لم أظلمها وحدها، وربما كان تألّمًا وصل ذروته!..

(٥٤)

ودّعت مها وقد أوشك ما بقلبها من جفاء أن يزول..

ولكن كيف ستزول هذه الأحداث الجسام التي مرّت بحياتها المؤلمة، وكيف سأتمكن من إنقاذ روحها؟! وكيف سأتمكن من محو الذكريات السيئة التي صارت لها ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا؟!..

ـ بعد زيارتك الأخيرة للبيت، وفور علم ماما بنبأ الطلاق وقعت. راحت في غيبوبة استمرت أسبوعًا كاملًا ثم توفّيت. ارتج البيت من الرعب، إلى الحد الذي جعل بابا يتقدم باستقالته من الجامعة، ثم اعتزل الحياة، واستمر في عزلته طيلة شهرين لا يكاد يتحدث إلا ليهوّن عليّ حزني وفجيعتي في أمي وزوجي.. وفي ليلة ذهب للنوم فلم يستيقظ ثانية..

(٥٥)

لم يحدث لقائي بمها في الوقت الوحيد الذي عزمت فيه على إصلاح أخطائي، وبعد كل تلك السنين، إلا لسبب..

سكنني الجنون.. وعلمت أنني لكي أصلح ما أفسدتُ، ستلزمني

إرادة أقوى من تلك التي جعلتني أهزأ بكل هذا الحب الذي أحاطني ولم أشعر به إلا حين عجزت عن طلاق نيكول..

(٥٦)

ـ لطالما رأيتك عائدًا توقظني من هذا الكابوس.. رفض قلبي التصديق ورفض عقلي الاعتراف بفعلتك.. وجعل خيالي المشوش يصور لي عودتك حتمية لا مراء فيها..

ـ لطالما عذبني الفراق شوقًا ودمعًا.. ولكن الإساءة كانت أكبر من النسيان..

ـ ولكنك نسيتها الآن، فماذا تغير؟!

ـ شوقي إليك أكبر من كل شيء..

ـ يا للخسارة.. ما أضيع عمري إذ توهمت حينها أن حبنا كذلك أكبر من كل شيء!

(٥٧)

كنت في حال أشبه بالجنون والهذيان..

مها رشدي.. مها العزيزي.. ميسون.. نيكول..

تتعاظم أمام عيني في كل دقيقة، فداحة ما خسرت وما سببته من خسران لكل من أحبني..

أي ألم هذا وأي مصير أسود تلقفهن ليعظم من جرمي؟! إن واحدة منهن لم تستقم حياتها، ليلتصق بي عار وألم موجع.. ومن أبشع ما يقتلني أن أكون عاجزًا عن أن أتخذ قرارًا واحدًا.. فأي قرار هذا الذي يمكن أن يضع حلًا للمأساة؟! هل أتزوج مجددًا بمها رشدي ومها العزيزي؟! أي جنون وأي هذيان؟!..

ولكن تملكني تصميم أعمى بوجوب وضع حل للمأساة..
ولكن ما يكون الحل الذي لا يسبب مزيدًا من التدمير؟! وكيف سأفي بوعدي لمها رشدي بألا أتركها بعد اليوم؟! وكيف أحفظ ابتسامتها الرقيقة المحبوبة التي عادت للحياة بعد لقائنا؟!..
ليتني أعثر على جواب قبل أن يقتلني الجنون..

(٥٨)

في البيت وجدت نيكول منزوية في ركنها. طعنني الشوق إليها بلا سبب. اقتربت منها واحتضنتها، فأدهشتني رعدة تشمل كل جسدها. هتفتُ:
- نيكول.. ما بك؟!
أزاحت يدي بهدوء، وقالت:
- لا تهتم..
- أأنت مريضة؟!
- بل أنا بخير.. فقط لا تهتم..
ثم أجهشت في بكاء مؤلم..
راقبت في وجل حسنها الذي اختفى كالمغيّب خلف الهم والحزن..
كيف أستطيع أن أنقذ روحك من الألم؟!..
كيف حطمتَ كل هذه التحف النادرة؟! وكيف تتمكن من إصلاحها؟!..
ليتني أعثر على جواب قبل أن يقتلني الجنون..

(٥٩)

ازداد حالي سوءًا طوال اليوم التالي..
لزمني الفكر المبعثر، وتخبطت الأحداث والأفكار داخل فراغ عقلي كما يحلو لها. وجعلتُ كالمجذوب أحصي الدموع التي خلقتها، والدموع التي خلفتها ورائي، فلا أستطيع..
لكنني ذهبت في المساء إلى حفل السبوع مضطرًا، التزامًا بوعدي لميسون واحترامًا لحماتي التي لا تتوانى عن خلق فرصة تلو أخرى لجمعي بابنتها..
رحّبت بي حماتي بحرارة، وشكرت لي بامتنان حضوري. وأقبل حماي فصافحني بذات الاحترام والحنان الذي عاملني به طيلة عشر سنوات..
جعلت أرقب الأجواء حولي، فأتعجب من قدرتي على هدم سعادة كل من بهذا البيت يومًا ما. كنت في هذه الحال من الجنون والهذيان التي تلازمني منذ بدأ زمان الانهيارات يوقظني..
كنت أفكر في مها العزيزي وأنا في قمة العشق، ولكني أيضًا أفكر في مها رشدي وفي نيكول!..
وراقبت ميسون وهي تطوف بين الحاضرين بابتسامة وإقبال. وقالت حماتي وهي تجلس بجواري:
- إنها لا تُرى بهذا السرور إلا حين تكون أنت موجودًا..
وذكرت تحذير نيكول ونبوءتها بشأن مستقبل ميسون، فانقبض قلبي أكثر..

(٦٠)

وأقبلت ملكة جمال الكون..

تذكرت طلّتها الأولىٰ بالكويت يوم وصلت من السفر، يوم كنت أصارع ذكرىٰ مها رشدي كما يحدث اليوم، فما أعجب الأقدار!..

أين هذه الفتاة التي تهزأ من كل حسن ومن كل فتنة؟!..

كيف امتص الشحوب بهاءك وعربد الحزن في روحك المرحة المتأهبة دومًا للدلال والشجار؟!..

ما أكثر ما حطمت من تحف نادرة! !..

(٦١)

بتدبير خفي من حماتي وجدتُني مختليًا بمها في ركن من الشقة..

شعرت بأنه لا شيء يمنعني من الاعتراف بأنني أرغب في حبها من جديد.. وفي لحظة غابت حسابات حياتي المعقدة.. واندفعت الموجة الغامضة المليئة بالحزن والحنين والحب وذكريات الماضي الصريعة.. تندفع الموجة فتلغي إرادتي الحية، وتبعث كوامن النفس الخفية، فتصرح بما لا يستطيع العقل حسابه بالمنطق. بغتة قلت:

ـ أنت الحب يا مها..

التفتت نحوي في دهشة، ثم ابتسمت في سخرية، وقالت:

ـ ماتت تلك الفتاة التي كانت ترد عليك فتقول «يخرب بيتك»..

ـ ولكن لم تمت النشوة التي يفجرها صوتك أيًا كان ما يقول..

ـ برافو..

ـ أنا لا أمزح..

ـ إذن ماذا تريد؟!

ـ لا شيء في عقلي تحديدًا.. ولكن يجدر بنا الجلوس للتفكير في حياتنا..

ـ حياتنا؟!

ـ نعم حياتنا..

ـ ثم؟!

ـ ننقذ ما تبقىٰ وهو كثير..

ـ بعد كل ما فعلتَ؟!

ـ و كل ما فعلتِ..

ـ لا تخف علىٰ ميسون، إنها بأمان..

ـ لم أتحدث عن ميسون..

ـ أنت تهذي يا آدم.. أأنت في وعيك؟!

ـ في كامل وعيي..

ـ وزوجتك..

ـ أنت أيضًا زوجتي..

ـ كنت..

ـ فلنجلس لنفكر..

ـ طالما ساءك أن أفكر لك!

ـ لم يعد يسوؤني شيء في الواقع..

ـ لذلك ترىٰ أنك أخيرًا تستطيع تحملي؟!

ـ لا تفكري بهذه الطريقة..

ـ وماذا تروم من عودتنا؟!

ـ ياله من سؤال!

ـ أجبني..

ـ نستعيد أجمل أيام حياتنا..

ـ هل تسمع نصيحتي؟!

ـ بكل تأكيد..

ـ لا تحاول استعادة نغمة أطربتك.. فالسحر كامن في المفاجأة الأولى لا في النغمة ذاتها.. فإن أصررت، فاسترجعها في الخيال.. فهو أصدق من التكرار..

ـ يالها من حكمة!

ـ اسخر كما شئت..

ـ ولكني أعشق امرأة هي ذاتها نغمة لا تعرف التكرار..

ـ يا للعجب! ما زلت قادرًا على خلق النشوة..

ـ مازلت أنت النشوة ذاتها.. ما زلت أنت جحيمي وجنتي.. ما زلت وحدك بيتي..

ـ ماذا يحدث في الكون يا ربي؟!

ـ تعود الأشياء لمستقرها..

ـ وأين اختفيت طوال عامين ونصف؟!

ـ كنت أداوي جرحًا غائرًا سببه جنونك..

ـ وهل شفيت؟!..

ـ رأيت أنه لا فائدة من معاندة شوق عاتٍ كالعاصفة..

ـ كنت في غنى عن هذا العذاب الجديد يا ربي..

ـ لن يكون عذابًا بعد اليوم..

ـ لكأنني أحلم..

ـ طالما زرتني بمنامي ولطالما اشتقت إلى لحظة من لحظات صفونا..

ـ طالما نطحت الصخر حتى لا أشتاق لسماع صوتك في الهاتف

والاطمئنان عليك.. وطالما ساءلت نفسي: أحقًا طلقني آدم؟! ولمن يتركني وهو كل الرجال.. وكل العالم؟!..

ـ أحقًا؟!

ـ لا تصدق؟! كم خفي عنك حبي الذي ملأ السماء والأرض! فيا للخسارة!..

ـ طالما رأيتُك حادة، سيئة الظن، سريعة الغضب..

ـ للحب يا آدم مائة لغة.. لم تتعلم أنت إلا أبسطها..

(٦٢)

طلبت مني مها فرصة للتفكير فيما يمكن أن يكون عليه شكل حياتنا المقبلة..

لكنني حتى الآن لم أعثر على الشكل الذي يمكن أن تكون عليه هذه الحياة الغريبة.. كيف أستطيع أن أنقذ الجميع من الألم؟!..

ليتني أعثر على جواب قبل أن يقتلني الجنون..

(٦٣)

في البيت لم أجد نيكول..

ضربتني الدهشة وأصابني الفزع. اتصلت بها مائة مرة ولكن موبايلها كان مغلقًا. بعد قليل اكتشفت اختفاء كثير من ثيابها..

هربت نيكول؟! ما معنى هذا؟! من أين يتفجر الجنون والعذاب؟! أي خلل أصاب ترتيب الكون؟! وكيف يتحمل عقلي عنف الطاحونة الدائرة بسرعة الضوء؟!..

أين نيكول؟! وأين يفترض أن تكون؟! هل عادت لبيت أمها؟!

لماذا وكيف جرؤت على نسف كل شيء بهذا العنف؟!..

ولكن صدم رأسي تصور مرعب..

هل تكون قد سافرت إلى روسيا؟!..

رباه! ما هذه الهوة التي لا قرار تحتها؟!..

ارتميت منهارًا مشلول الفكر محطم الإرادة..

كنت أتميز من هول ما صنعت نيكول، ويتجمد جسدي من قلقي ورغبتي في العثور عليها سالمة..

(٦٤)

قضيت ليلة مرعبة..

طافت بي الظنون بكل واد، وطعنتني المخاوف بكل سيف، ورأيت نهاية قصة طويلة مُلئت بالتناقضات المرعبة..

من أصدقاء بالمطار عرفت أنها لم تغادر مصر. ومن أصدقائها بالعمل عرفت أنها طلبت إجازة طويلة، لم يعرف أي ممن تحدثت إليهن السبب وراءها. ولكن أكد الجميع أنها كانت مريضة!.. وفي بيت والدتها أخبرني الحارس أنها لم تأت..

رباه! أي ألم يحدق بي؟!..

(٦٥)

كنت أعرف أنني أحبها..

ولذلك لم أتعجب حين شعرت بدبيب الفناء على أعتاب أنفاسي، ولا أفزعني وجيب الفؤاد الذي تمزق هلعًا، ولا الدنيا التي رأيتها توشك أن تغيب عن ناظري..

(٦٦)

صباح السبت، جاءني اتصال هو أعجب ما تصورت أن يكون..

رقية نصّار، الخالة الكبرى لنيكول، والوحيدة التي تعيش بالقاهرة. دعتني إلى بيتها على وجه السرعة. سألتها هل نزلت نيكول عندها، فأجابتني بنعم..

طرت إلى بيت رقية نصّار، وأنا أتساءل أي حزن دفع نيكول لأن ترمي بنفسها من الكرة الأرضية؟! وهل نيكول مريضة حقًا؟! وما خطورة مرضها لتذهب إلى خالتها؟! وكيف يصفو العداء الذي استفحل بطول الزمن بينها وبين أهل أمها؟! أي انفجار جديد يختبئ تحت اللحظات المقبلة كاللغم؟!..

(٦٧)

استقبلتني السيدة النحيلة بترحاب مصطنع، أضمر تجهمًا واضحًا. دعتني للجلوس وهي تقول بذات التركيبة من الترحاب والتجهم:

ـ آسفة على استدعائك..

ـ خير يا مدام رقية.. ماذا حدث؟! وأين نيكول؟!

ـ نيكول متعبة قليلًا..

انتفضت في فزع، وأنا أهتف:

ـ ماذا؟! أين نيكول؟!

ولكن المرأة قالت بهدوء:

ـ اطمئن هي ليست في خطر.. ولكني طلبتك لأمر آخر.. تفضل.

جلست مرة أخرى وأنا أحترق. وهتفت:

ـ ماذا حدث؟!

ـ لا شيء.. من فضلك اهدأ.. لقد جاءتني نيكول أول أمس وقد أجرت عملية إجهاض..

مادت بي الأرض، ولكني بحكمة تظاهرت بالمعرفة..

ـ واستأذنتني أن تقيم معي عدة أيام حتى تجتاز مرحلة الخطر ثم تذهب لبيت أمها.. وعندما سألتها عنك استنتجت أنكما على خلاف أو أنك لا تقيم في البيت بصفة دائمة أو شيء من هذا القبيل..

ـ في الواقع إن..

ـ في الواقع أن كل ذلك لا يعنيني.. ولكني أقول لك إنني لا أستطيع استضافتها في بيتي.. معذرة لطريقتي، لكن لكل منا ظروفه..

ـ .....

ـ وأرجو بعد أن تتحسن حالتها أن ترعاها جيدًا فلا تضطر أن تترك بيتها وتجيئني من جديد.. وأرجو أن تعلم هي أيضًا ذلك ولكن ليس الآن..

كنت في غاية العجب، وكنت أوشك أن أقوم فأسب هذه المرأة القاسية المخرفة. لكني تمالكت نفسي بأعجوبة، وقلت:

ـ أعدك أن ذلك لن يتكرر..

ـ مرة أخرى أعتذر وأرجو أن تلتمس لي العذر..

ـ أين نيكول؟!

ـ تفضل..

وقادتني إلى غرفة، حيث وجدت نيكول تجلس على السرير في إعياء، وقد شحبت إلى حد غير معقول..

فلما رأتني تضرّج وجهها بحمرة، لا أدرى أهي حمرة الحياة أم الغضب؟!..

(٦٨)

ـ لماذا جئت؟! وكيف عرفت طريقي؟!

ـ عرفت طريقك لأن خالتك كانت قلقة جدًا عليك واتصلت بي لأزورك.. أما لماذا جئت، فما أعجبه من سؤال!

ـ لم يعد في الدنيا شيء عجيب بعد أن عرفتك..

ـ وبعد أن أخفيت عني حملك..

ـ هل علمت؟!..

ـ الآن فقط..

ـ طالما أخبرتك.. ولكنك كنت سادرًا في مغامراتك القاتلة..

ـ ماذا؟!..

ـ لقد علمت بحملي في اليوم الذي أخبرتني فيه برغبتك في أن تعود لها العزيزي بعد أيام من المعركة الكبيرة.. وكنت قد عاهدت نفسي وقت زواجنا ألا أكون سببًا في حرمانك من ميسون ولا في حرمان ميسون منك، رغم أن مجرد التفكير في ذلك الأمر يقتلني.. ولذلك لم أعترض على رغبتك، ولكني أيضًا لم أجد بنفسي الرغبة في إسعادك بنبأ حملي..

ـ نيكول..

ـ مرّ وقت حتى هدأت ثورتي.. ولكن كارثة أخرى لم تمر بحسباني أطاحت بكل شيء..

ـ أي كارثة؟!..

ـ هذا اليوم، حين استيقظنا فلم نجدك حتى فزعت ميسون..

ـ أوه..

ـ عرفت منها أنك تركتها في اليوم السابق أيضًا، وخرجت تعدو

خلف سيدة كانت تجلس بالقرب منكما! احتضنت ميسون الخائفة وأنا أشعر أننا جميعًا سنصير ضحية إعصار واحد.. ولكني أملت أن يكون ذلك بلا معنى أو أن تكون هذه المرأة غير ذات خطر كأن تكون عميلة مثلًا..

- نيكول.. أنا لا أصدق..

- استيقظنا فلم نجدك، ثم عدت وأنت في حال مرعبة، ثم ذهبت في نوم طويل مريب، لم تستيقظ منه إلى اليوم!..

- دعيني أوضح لك..

- كنت هائمًا، غائبًا عن الوعي وعن حياتنا.. ظننتُ أنك تعاقبني.. ولكني رأيت كيف تغفل كذلك عن ابنتك المحبوبة، وسألتك عن زواجك من مها فأخبرتني أنك أجلت التفكير في ذلك وحاولت جرّك إلى التوضيح فلم تنطق.. فتأكد لي أنك توشك أن تضيع منا جميعًا إلى الأبد..

- يا ربي.. كان بإمكانك أن تخبريني بحملك.. وقتها كان سيتغير كل شيء..

- حقًا؟! هكذا تخيلت أنا أيضًا للأسف.. فقررت ذات يوم أن أحبس حزني في غرفة محكمة، وقيدت مخاوفي وشكوكي، وحررت قصة حبنا القديمة وأطلقت عبيرها في صدري حتى انتشيت بالأمل كأيام الوهم.. وجئتك بتصميم صادق على أن أستردك من المجهول..

ترقرقت عيناها بالدمع واختنق صوتها، ثم قالت:

- وضعت أمامك الماريوشكا وأنا أصدح بالحب.. وانتظرت أن ينتفض قلبك من جديد بنشيد الغرام.. وأن تتذكر نيكول التي أقسمتَ أنك لن تضيعها يومًا أو تسلمها للحزن.. وأن نستأنف

سيرنا مرة أخرى، وقد انضم إلينا طفلنا الجميل.. وأن نملأ الدنيا أطفالًا كالماريوشكا..

انفجرت نيكول في البكاء، وأنا أوشك أن أغيب عن الوعي من الحزن الذي أطبق عليّ أكفًا غليظة مرعبة..

وأردفت نيكول:

- ولكنك لم تهتم بفهم رسائلي، بل ولم تهتم بالنظر إليّ أصلًا. فطويت ذاتي على حزنٍ يملأ السماء والأرض. وقضيت ليلة مسهدة حتى تلقيت منك طعنة قاتلة..

- ماذا؟!

- وجدتك تنادي مها في أحلامك..

- ماذا؟!..

انهمرت دموعها، وقالت في نشيج:

- كنت ساذجة وحالمة إذ تصورتك تنادي مها العزيزي.. فتساءلت أين ذهب حبي؟! وهل انمحت ذكراه إلى هذا الحد؟! وتساءلت في كمد لم لا تردها ما دمت مشتاقًا إليها حتى الحلم؟!..

- نيكول.. الوضع غير كل ما تظنين..

أوقفتني بإشارة من يديها وهي ترتجف، ثم أكملت في حسم:

- أعرف.. أعرف كل شيء..

- كل شيء؟!..

- فتحت بنفسي أبواب الجحيم.. رغبت في أن أموت وأنا على علم بحقيقة المأساة، بدلًا من أن أعيش معلّقة بين السماء والأرض بحبال من نار.. وبحثت في History اللابتوب الخاص بك.. ففاجأني بحثك المرير في كل مواقع التواصل عن.. مها.. رشدي.

ـ آه..

ـ لمدة ست ساعات كنت أترنح وأنا أتصور أنك تعرفت على سيدة بهذا الاسم، ولكن فجأة صدم وعيي التذكار.. تذكرت الاسم.. اسم محبوبتك الأولى.. محبوبتك التي لم تستطع نسيانها حتى اخترت أن تتزوج بأخرى لها الاسم ذاته..

ـ نيكول أرجوك..

ـ هل كانت هي المرأة التي جريت وراءها في الأوبرا؟!..

ـ نعم..

ـ يا لعذابي!..

ـ يا لعذابي!..

ـ وبعد أيام وجدتك قد دونت رقمها في دفتر على مكتبك.. فعرفت أن كل ما بيننا قد انتهى..

ـ لذلك قررت البحث عن أهلك في روسيا؟!..

انفجرت في موجة أعلى من البكاء، ثم أردفت:

ـ روسيا؟! لم يكن هناك أي شيء من ذلك.. كانت خدعة يائسة مني لجذب اهتمامك..

ـ لا..

ـ كيف كنت أسافر وأنا حامل؟!..

ـ يا ربي.. ما هذا الألم؟!..

ـ الألم؟! الألم الحقيقي كان ألمي.. وهذه الليالي المرعبة التي قضيتها أعاني مخاوفي من الوحدة البغيضة والغثيان والمغص الذي يمزق جنبي..

ـ يا لي من بائس!..

تجاهلت قولي، ومضت في عنف تنكأ جرحي:

ـ واشتكيت يوم الأربعاء مغصًا مستمرًا لا ينتهي، فزرت الطبيب فأخبرني أن حالتي النفسية غير المستقرة ستؤذي حملي، كما أنني أعاني متاعب جسدية، وطلب مني أن أترك عملي وإلا سيضيع الحمل.. يومها قررت أنا أضع حدًا لعذابي وأن أطلب إجازة من العمل وألا أعتبر بيتنا أكثر من مأوى حتى أضع حملي ثم أعود لبيت أمي.. حتى إنني لم أسعد حين انتبهت لأول مرة لآلامي ولاحظت تعبي القاتل حين عدت مساءً وأخبرتك أنني بخير.. ولكن صباح الخميس وبينما كنت أنصرف من الشركة بعد أن ذهبت لطلب الإجازة، فاجأني نزيف حاد، فهرعت إلى الطبيب، فأخبرني بالمصيبة القاصمة، وأنني يجب أن أستعد لعملية إجهاض في الحال.. وحين سألوني عنك قلت إنك مسافر وإن أهلي يعيشون في روسيا، فاضطر الطبيب لسوء حالتي أن يجري الجراحة في الحال.. ولكنه أصر أن أمكث بالمستشفى حتى مساء الجمعة ليطمئن.. وبعد خروجي كنت كالتائهة، وكنت في رعب من أن أموت بسبب الجراحة، وبحثت عمن يهتم بي ريثما أعبر الخطر.. وتذكرت خالتي لحسن الحظ..

تذكرت لقاء السيدة الجاف فتألمت لجهل نيكول، ورددت في سخرية كالمغيّب:

ـ لحسن الحظ..

ـ نعم.. بل إنني نادمة على عمري الذي قضيته سجينة شعوري بالوحدة.. هنا شعرت مرة أخرى أنني في بيت أمي..

كنت أتمزق.. وكانت السماء تتساقط من فوقي.. وفي الأرض كانت أخاديد عميقة تمتد في سرعة كالثعابين.. هاهي ضحية جديدة

تجيء في الزمن الذي قررت فيه أن تنقذ ضحايا تهورك القديم.. ومن تكون؟! الوحيدة التي علمتك أن تشعر أنك مسئول عمن تحب كأنك أبوها!..

وأردفت نيكول:

ـ ولا شك أن غيابي سيمنحك فرصة رائعة لترتيب أولوياتك.. فتقرر هل ترد مها رشدي أولًا، ثم ترد مها العزيزي، أم ترد مها العزيزي أولًا وبعدها مها رشدي..

ـ أي جنون..

ـ لا فائدة من تجاهل ما تشير إليه الأسهم الإرشادية للطريق التي وضعتنا فيها يا آدم..

ـ نيكول.. لم يكن ببالي أي مفاجآت ستهز حياتي التي خلتها ماتت..

ـ ولكنها كانت حية.. في قلبك كانت حية.. وكنت تمدها بالحياة مرة بعد أخرىٰ.. وتهرب مني لتلقاها في أحلامك..

ـ الوضع غير ما تظنين..

ـ بل إنني لم أظن أن يكون حب عمري وقفًا علىٰ رجل عينه معلقة بماضيه.. رجل نذر أن يفني عمره المقبل في التقاط ما سقط من عمره الماضي..

وبكت من جديد واختنقت بالبكاء وهي تقول:

ـ حبّك لعنة أصابتني.. ومن عجب أنني مازلت أصدق أنك تحبني..

ـ بل إنني أذوب فيك يا نيكول..

ومن بين ظلمات الكمد المتكاثفة كسحب مربدة، قلت بصوت كأنه ينطلق من بئر عميقة:

ـ نيكول.. هل تصدقينني إذا قلت لك إن الحقيقة غير ما تظنين.. هل تصدقينني إذا أخبرتك أنك يا نيكول السبب؟!.

ـ أنا السبب؟! حقًا؟!..

ـ بسببك.. بسبب حبي لك.. بسبب جنوني بك.. انتبهت إلىٰ أنني لم أكن أبدًا ذلك المحب الذي تخيّلته..

ـ يا لي من محظوظة!..

ـ بسبب ما اكتشفته من حب معك، عرفت أنني ظلمت الجميع.. عرفت بأنني لم أصل لهذا الحب مع أي منهن، رغم أنهن قد أعطينني حياتهن.. وعرفت أنني لم أكن كما كان يتوهم ضميري المطمئن..

ـ ها قد صارت نيكول مبعوثة الأقدار لإنقاذ غريمتيها من الضياع!..

ـ هي الحقيقة بلا زيادة..

ـ يا لي من محظوظة!..

ـ حين وقع خلافنا الكبير ومعركتنا السيئة، صدمتني يقظة وعي تأخر كثيرًا حتىٰ تنبهت أنني قد قتلت مها رشدي بتهمةٍ، حين تأملتها من جديد وضح لي تهافتها.. ثم مزقت ما بيني وبين مها العزيزي ووهبت ابنتي الوحيدة للشقاء بسبب خطأ أنت أيضًا ارتكبته مثلها.. وحين عجزت عن طلاقك كما طلقتها، صفعني الوعي والندم.. ثم وضعت الأقدار مها رشدي في طريقي من جديد، لأعرف منها أن ما تصورت من قتلي إياها كان وهمًا وأن ما فعلته كان أبشع من ذلك بكثير..

تمكن التعب من نيكول، وكانت تقاوم الهبوط فيما يبدو، فأمسكتُ بكفيها فهالني برودهما. ولكنها أصرت علىٰ استكمال حوارنا المرعب:

- لذلك سترد مها؟!..

- لم أقرّر أي شيء..

فقالت في همهمة ضعيفة واهنة وكأنها تحادث نفسها:

- تزوجتك حين أقسمت لي أنك محوت عمرك السابق يوم غزتك بسمتي يوم المعرض.. وأنني لو قبلت زواجك فسأكون زوجتك الأولى.. ولكنك لم تصمد كثيرًا في وجه ماضيك يا آدم، فسرعان ما أصير زوجتك الثالثة بعد أن كنت الأولى..

- نيكول..

ولكنها قالت في هذيان:

- للحياة حزن لابدّ منه ومن تحمله.. ولقد ذقت في حبك يا آدم سعادة لن أنساها ما حييت.. ولكني أفضل أن أكون وحيدة في حزني، على أن أكون جزءًا في حياة من أحب.. ومن حسن حظك أن الطفل الذي كان سيربطنا لم تُكتب له الحياة..

- بل أنتِ كل حياتي..

اهتزّ جسدها من البكاء وتهدج صدرها في وهن، وهمست وقد أوشكت أن تغيب عن الوعي:

- من عجب أنني أصدقك.. ولكني أصدق أيضًا حبك لمها رشدي ومها العزيزي وحزنك عليهن.. ولذلك..

وصمتت نيكول تمامًا وسقط رأسها إلى جوارها..

(٦٩)

تلهب الأقدار ظهرك بالسياط لتتحرك ولكنك عاجز عن أن تتقدم خطوة واحدة..

وكيف تتقدم وأنت ترى الألغام مكشوفة في جلاء..

وهذه دموع مها رشدي وآهات مها العزيزي وضياع نيكول وشقاء ميسون تمزق ظهرك في عنف ملهب..

وهذا الكون قد حبسكم جميعًا في غرفة ضيقة وطالبك بالنجاة..

كيف ننجو من النفس ومن القلب ومن أحزاننا المغروسة بين اللحم والعظم؟!..

(٧٠)

«أوشك أن أصير زوجتك الثالثة بعد أن كنت الأولى»..

من المدهش أنني لو رددت مها رشدي فإنها ستصير الثالثة بعد أن كانت الأولى.. وكذلك ستصير مها العزيزي لو تزوجتها بعد مها رشدي.. فكأنك تعيد السير في دائرة!

(٧١)

مأساتي أنني لا أنسى براءة وعذوبة اللقاءات الأولى..

ولا هذا الحب النادر الذي يقع من أول نظرة فأعاهده أن أظل لعهده حافظًا..

فلا أثر في النفس الجريحة لما جرّته الحياة بعدها من أحداث كان المفترض بعدها ألا أقيم إلا حساب العقل وحده، وهو كفيل بأن أقرر أن أعيش وحدي بقية عمري!..

(٧٢)

هل كان الخطأ وقوعي أولًا في الحب؟!..

أم كان الخطأ استجابتي للكرامة بعد أن أحببت؟!..

أم الخطأ هو عودتي من جديد لأصلح أخطائي؟!..

(٧٣)

حين انتبهت نيكول من جديد، كنا في شقتنا..
تلفتت حولها، ثم أجهشت في البكاء. لكني رأيت في عينيها الزرقاوين امتنانًا وحبورًا..
أعددتُ لها حساء دجاج ساخنا، فاحتسته وهي ترمقني ببسمة عذبة، وكأنها لا تصدق أننا نعود من جديد. وانفعل باطني بالشوق العارم، فضممتها إليّ، فأراحت رأسها على صدري..
وعاهدتها في نفسي ألا أتركها للوحدة ما حييت..

(٧٤)

كان ذلك ثالث وعد أقطعه على نفسي بإخلاص وصدق..
ولكني أتساءل: كيف أستطيع الوفاء به؟!..

(٧٥)

كيف ينتهي عقدي الرابع وأنا بعد لا أعرف كيف يولد الحب..
ولا كيف يموت؟!..

تمت بفضل الله

أحمد مدحت
القاهرة، نوفمبر ٢٠١٤

تحية وامتنان للشعراء الذين ملأوا عالمنا بالإحساس..
وتحية خاصة للشعراء الذين أثروا هذا العمل بإبداعاتهم الرقيقة

شعراء فصل «نيكولا رشيدوف»:
آنا أخماتوفا
يفغينيا يوفاشيفنادافيتاشفيلي
إلكسندر بوشكين

شعراء فصل «مها رشدي»:
أحمد شتا
أحمد شفيق كامل
بليغ حمدي
عبد الوهاب محمد
سامح القدوسي
مجدي نجيب
جورج جرداق
الهادي آدم
مرسي جميل عزيز

شاعر فصل «مها العزيزي»:
نزار قباني

شاعر فصل «الثالثة والأولى»:
أحمد رامي

شكر خاص

أبي/ محمد مدحت مصطفى - جدي/ أحمد وافي

أمي/ وهيبة أحمد وافي

صاحبتي/ نها عبد الله عبد العزيز

أخي/ مصطفى مدحت - عمي/ أيمن مصطفى

أخواتي/ دعاء وريم وحنان

محمود عادل سعد - أمنية نجيب شكري

أميمة الشاذلي

مها الهنداوي - أميرة توفيق - صبري سراج - د. محمد طنطاوي

رُبا فوزي - رشا الشربيني - خليل جمال - هدير مدكور

شريف سعيد - أحمد شبكة - يمنى الفقي - محمد عبدالرحمن

صاحبة الرؤيا/ أميرة نجيب شكري

وشكر جزيل لأختي الأعز/ إيناس سلامة الشواف

للتواصل مع المؤلف

البريد الإلكتروني

ahmed_medhat31@yahoo. com

الفيس بوك

https://www. facebook. com/ahmed. medhat. 1441

تويتر

https://twitter. com/ahmedmedhat31